

دماء جافتہ

دماء جافة

رواية

نزار عيسى

الإسكندرية : حسان للنشر

الطبعة الأولى : ٢٠١٨

ISBN 978-977-6535-80-0

رقم الإيداع : ٢٠١٨ / ٥٧٥٢

ديوى : ٨١٣

٤٠٠ ص ، ٢٠ سم

{ جميع الحقوق محفوظة © }



الإسكندرية ، ج . م . ع

٠١٠١٨٨٣١٣٦١

٠٣ / ٥٧٦٥٧٧٧

المدير العام : عادل أبو الأنوار

المراجعة اللغوية : عادل أبو الأنوار

الإخراج الفني : أمير مصطفى

دماء جافتا

روایتا

نزار عیسیٰ



القسمة الأولى

كانت إحدى مساءات أغسطس الجافة على نحو أصبح معتاداً في السنوات الأخيرة، بقعة ريفية هادئة على أطراف إحدى قرى أسيوط الصغيرة، والتي اعتادت فيها الرؤوس على أن تستند إلى الوسائد مع ساعات الليل الأولى لتبدأ يقظتها مع صياح الديكة، الطريق الترابي المؤدي إلى الفيلا القديمة التي تقع في ركن بعيد محاط بصفوف متتابعة من الأشجار والزروع المنتشرة على كلا الجانبين، فيما كان صوت صرصور الليل يعلو كل صوت آخر.

_ أتعلم أنني أكره هذا الصوت المقيت، يذكرني بالليلة التي اصطحبت فيها زوجتي إلى ذلك العرض الموسيقي في دار الأوبرا، كان جنونا يا رجل، الصعيدي الذي اصطحب زوجته المدنية إلى حفل موسيقي.

لم يكن أحد من سكان المنطقة يهتم بالمرور من هذا الطريق الذي كان يمتد ليتصل بمساحة من أراضٍ غير مأهولة، لا يوجد في نهايته سوى ذلك البيت الكبير الذي يقبع وحيداً ومنعزلاً كآخر أثر للحضارة قبل الخوض في غمار القفار. أما من الجهة الخلفية للبيت، فتمتد مساحة واسعة من الأراضي الزراعية التي تصل حتى أطراف المنطقة السكنية، وتفصل بينها وبين بيوت القرية أسلاك شائكة يصل ارتفاعها إلى مترين، عدد كبير من الأفدنة الموروثة لرجل اسمه راضي السيف، وهذا كان سبباً آخر لتجنب المرور من ذلك الطريق.

_ في تلك الليلة كان هنالك رجل من بين العازفين يعزف على تلك الآلة الوترية ذات الحجم الكبير، نسيت ما اسمها، لست ماهراً في هذه

الأمر بقدر زوجتي ههه، المهم، كانت ذات صوت رفيع ومميز، يقولون إن العقل إذا ما ركز على شيء ما فإنك تصبح غير قادر على التفكير في أي شيء آخر سوى ما اختاره لك عقلك.

باستثناء الأضواء القليلة القادمة من المنزل الكبير، فقد كان المكان معتمًا وساكنًا كقبر، اضطر سليمان إلى ترك أنوار السيارة مضاءة بعد أن تأكد من أنها تقف على بعد كافٍ من المنزل بحيث لا تلاحظ بالعين المجردة، السيارة الأخرى كانت مركونة بعرض الطريق بحيث يصبح مغلقا على كل من قد يرغب في المرور منه، لم يفكر أي شخص بمحاولة المرور لوقت طويل، القرية بأكملها كانت تبدو غارقة في غياهب النوم، لكن أعين الجميع هذه الليلة تحديداً، كانت مفتوحة وترقب.

_ كل الآلات التي كانت تعزف في تلك الليلة، وقد اختار عقلي التركيز على هذه الآلة، هل تصدق ذلك يا رجل؟ ههه، طوال الليل وأذناي لا تكفان عن الطنين، كانت تلك المرة الأولى والأخيرة، حتى زوجتي ندمت على تلك الليلة لكنها لم تصارحني بذلك لكي لا تظهر بأنها مخطئة في تقليد ما يقوم به الآخرون، المسافة التي قطعناها والتذاكر التي دفعنا ثمنها والمشقة التي عانيناها.

صوت صرصور الليل عاد ليطنغى على هدوء المكان بعد انقطاع قصير، مما منح سليمان فرصة إضافة تعليق آخر.

_ وها هي السمفونية تعود للعزف من جديد، في المرة القادمة التي يخطر فيها على بال زوجتي حضور حفل موسيقي، ربما سأحضرها إلى هذا المكان، ههه، الفرقة هنا لا بأس بها وعزفها جيد، والأفضل من ذلك أن العرض مجاني وحصري.

مرة أخرى لم يجب محمود، لم يشارك بالضحك ولو متكلفاً، كان عقله منشغلاً بأمور أخرى عن الاستماع إلى حكايات سليمان التي لا تنتهي، الخطوة الأخيرة في سلم طويل وشاق أصبحت وشيكة، على الرغم من ذلك فقد كان لا يزال يشعر ببعض القلق. الحدس الداخلي الذي يحضر في اللحظات النهائية التي تظن فيها أن كل شيء تحت السيطرة. عاد لتشغيل جهاز اللاسلكي الذي يقبض عليه بكف يده اليمنى. جاءه الرد من الجهة الأخرى ذاته: لا جديد، الوضع كما هو عليه، الحركة عادية، لم يدخل أو يخرج أحد من داخل المنزل.

_ يمكنك تأكيد العدد مرة أخرى.

_ ثلاثة رجال عند المدخل، وثلاثة في الداخل من بينهم الهدف، رجل يقف عند نافذة الطابق الثاني واثنان في الطابق الأول. ستة رجال. توقد عقل محمود مثل جمره بدأت في الاشتعال، طغى صوت أفكاره على الحبال الصوتية لسليمان.

ستة رجال، ستة فقط، صيد سهل، أسهل من اللازم. مراقبوا الجهة الخلفية من المنزل أعادوا تأكيد حقيقة أن الأمور على ما يرام، لا أحد يمكنه التسلسل من الخلف.

الليلة هادئة ومقمرة، وصرصور الليل لا يتوقف عن العزف، وسليمان لا يتوقف عن التذمر، والرجلان اللذان في السيارة الأخرى انشغلا فيما بينهما في حديث جانبي هامس، كانت رائحة الجمره البرتقالية التي ترقص بين أصابع أحدهما تصل إلى أنفاس محمود الذي كان أنفه يكره رائحة النيكوتين، لكنه كان قادرًا على احتماله.

أصوات محركات تهدر من أول الطريق باتجاههم كانت كفيلة بأن تدفع سليمان إلى السكوت، لكن صراصير الليل استمرت في العزف بوتيرة

أسرع كأنها تعزف لحنا خاصًا لترحب بالقادمين الجدد. توقفت أولى السيارات الثلاث القادمة وقد أثارت خلفها موجة كثيفة من الغبار، أحد الرجلين اللذين يقفان عند السيارة التي تسد الطريق أدار وجهه جانبا ودخل في نوبة عطاس قصيرة، تمالك نفسه منها بسرعة. خرج من السيارة الأولى أربعة رجال بالزي الرسمي الكامل، أكبرهم سنا ورتبة سارباتجاه المكان الذي يقف فيه محمود وسليمان والرجلان الآخران، قام الأربعة بتأدية التحية العسكرية للقادم الذي ميزه شعره المكسو بالبياض من التشابه مع بقية الضلال.

_ كل شيء على أهبة الاستعداد يا سيدي، لدي رجلان يراقبان البوابة، واثنان آخران عند الطرف الآخر من المزرعة. خمسة رجال، بما فيهم الهدف.

هز الرجل ذو الرتبة العالية رأسه، كان يعلم أن الأمر شبه محسوم، ليس الليلة، وإنما منذ وقت طويل، لكن الليلة ستكون موعد قطف الثمرة الأخيرة في المحصول. حانت اللحظة، وجاء وقت كلمة التشجيع المنتظرة من الرجل الكبير، تقدم من محمود وربت على كتفه عدة مرات متتالية.

_ وفقكم الله يا رجال.

الرجال الثلاثة الذين كانوا يقفون في الممر الذي يصل بين البوابة الخارجية ومدخل البيت لم يملكوا أية فرصة، كانوا يقفون في حلقة دائرية منشغلين في جدال محتدم قبل أن تقاطعهم أصوات عالية من كل اتجاه تطالبهم بالاستسلام وتسليم أسلحتهم. في هذه المرحلة الحرجة، تصرف كل واحد منهم وفقا لحدهس وسرعة استجابته

للأحداث الطارئة، الشخص الأكبر حجمًا والذي كان يمتلك وجهًا ضخماً وذقنا طويلة ومربعة استدار بسرعة باتجاه أقرب الأصوات المعادية مصوبا سلاحه الآلي، تبين أن ردة فعله السريعة لم تكن موفقة، إذ لم يتسنَّ له إطلاق أي رصاصة، سقط على ظهره والدماء تخرج من صدره وفمه.

الرجلان الآخران كانا أكثر حنظا، إذ لم يكونا يمتلكان ردة الفعل السريعة ذاتها، لذا فقد اكتفى كلاهما بالانصياع إلى الأوامر برفع الأيدي إلى الأعلى، أصغرهما سنا لم يتمكن من التوقف عن الارتجاج، تحرك اثنان من رجال القوات الخاصة باتجاههما وقاما بطرحهما أرضاً ووضع القيود في رصغيمهما، ثم قاما بجرهما بعيدا عن الممر باتجاه البوابة الخارجية. لم يستغرق الأمر أكثر من ثوان معدودة. في حين ظل الضخم طريحا على الأرض بدون حراك، اقترب منه أحد رجال القوات الخاصة وقام بوضع أصبعين على مكمن النبض في عنقه، قبل أن يوجه إشارة بيده بأن الرجل قد فارق الحياة، ثم يتراجع إلى الخلف بعيدا عن المساحة المكشوفة.

_ لقد سقط ثلاثة، وبقي ثلاثة داخل المنزل.

_ حسنا، سوف نقتحم الآن، عودوا إلى التشكيل.

انطلقت رصاصتان من داخل المنزل باتجاه رجال القوات الخاصة، دفعتهم إلى التفرق والاختفاء خلف أشجار الحديقة، لحظات ساد بعدها الهدوء مجددا كأن شيئا لم يكن.

تحرك محمود بخفة متحصنا بشريط الأشجار المتراص طوليا بين البوابة الخارجية والمنزل، إلى أن وصل إلى النقطة الأقرب من الباب واختبأ خلف شجرة تقع عند الطرف الأيسر للمبنى وتبعد عنه بأمتار

قليلة، فيما جاء صوت القائد من خارج البوابة عبر مكبر الصوت: استسلم يا راضي، المكان محاصر من جميع الجهات ولا مجال للهرب. لم يصدر أي صوت من داخل المنزل.

_ سأمنحك فرصة أخيرة للاستسلام، مُر من تبقى من رجالك بإلقاء أسلحتهم، ولتخرجوا جميعاً وأيديكم فوق رؤوسكم. هذه المرة انطلقت رصاصتان أخريان من خلال النوافذ الأرضية المعتمة. فبدأ رجال القوات الخاصة بإطلاق الرصاص باتجاه المنزل. أشار محمود إلى سليمان الذي كان يقف على مقربة منه، فهم سليمان الإشارة وأوماً برأسه موافقاً.

ارتقى محمود على بطنه فوق التراب وأخذ يزحف باتجاه المبنى، وصل إلى الحائط الأسمنتي الصلب وأسند ظهره إليه، قام سليمان بتغطية تحركاته بإطلاق عدة رصاصات باتجاه النافذة الأقرب إليه إلى أن تمكن محمود من الولوج إلى الممر الجانبي متخطياً واجهة المنزل، قام بالالتفاف حول المبنى بحذر وظهره مستند إلى الحائط، ظل يسير بهذه الطريقة محاذراً الدوس على الأعشاب اليابسة التي كانت تتكسر تحت قدمه إلى أن وصل إلى المدخل الخلفي الذي يطل على المزرعة الممتدة حتى السياج الحديدي البعيد الذي لم يكن قادراً على رؤيته من مكانه، بهدوء وحذر وصل إلى النافذة الخلفية، تنفس بعمق طالباً الاسترخاء والمزيد من التركيز، كانت أصوات الرصاص المتبادل لا تزال تصل إلى مسامعه وقد ازدادت وتيرتها.

قام بكسر الزجاج بكوع يده ثم انتظر، لكن الصوت المكتوم للزجاج المتناثر لم يصل إلى مسامع الرجلين المنشغلين في الجهة الأمامية، تأكد من أن الغرفة خالية، ثم قام بمد يده من الفتحة التي أحدثها في

الزجاج ليفتح مزلاج النافذة من الداخل ودلف بخفة إلى الغرفة المعتمة، فرقعة المقذوفات النارية على الجدران كانت تحدث ضجيجا متكررا مثل ضربات مطرقة عشوائية.

_ الليلة، قال في نفسه وهو يشد يده على السلاح، الليلة ينتهي كل شيء.

_ حسنا، ما الذي حدث بعد ذلك ؟ خذ وقتك من فضلك.

_ كان من المفترض بالرقيب سليمان أن يسير خلفي مباشرة، إلا أنه تأخر عني، بعد أن تأكدت من أن دخولي كان نظيفا اتخذت القرار بالمضي قدما إلى الداخل لمفاجأة المجرمين اللذين يطلقان الرصاص من الطابق الأرضي، اقتربت من باب الغرفة وقمت بفتحه، ووجدت نفسي أسير في ممر معتم يفضي إلى الصالة الرئيسية للمنزل وإلى مطلع الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي.

تمكن محمود من تلمس طريقه إلى الأمام معتمداً على ضوء اللمبة الوحيدة المضاءة في نهاية الممر، فيما بقية أرجاء البيت تركت لتغرق في العتمة، وصل صراخ الرجل الذي يقف في الطرف الأقرب من الصالة إلى مسامعه، سمع صوت ارتطام جسده بالأرض، اقترب محمود من مدخل الصالة الرئيسية وهو يسير مقرفصاً، كان الجسد المسحوق قد أصبح على بعد أمتار أمامه وقد انعكس ضوء اللمبة فوق الجزء العلوي منه، كان الرجل ضخمًا وأصلع الرأس وعيناه مفتوحتان عن

آخرهما وقد جف ماء الحياة فيهما، والرجل الذي يقف خلف النافذة الأخرى كان يجلس على الأرض وهو يئن، وسلاحه الأوتوماتيكي منطرح بجانبه دون أن يقوى على حمله مجددًا، شغلته الدماء التي تسيل منه عن أي شيء آخر، النيران كانت قد أصبحت أقل كثافة بكثير لكنها لم تتوقف تمامًا.

فكر محمود مجددًا وهو يستعد للصعود إلى الطابق العلوي في أن الأمر كان أسهل بكثير مما توقع.

_ لم تنتظر حتى يدخل زملاؤك إلى البيت.

_ كنت أرغب في إنهاء الأمر بسرعة مستغلا عنصر المفاجأة، بقي رجل واحد فقط في الطابق العلوي وأدركت أن بإمكانني مباغتته.

_ أو أنك كنت تبحث عن مجد شخصي.

نظر محمود إلى الرجل الجالس أمامه باستياء، أحد ثلاثة رجال بالزي العسكري الكامل والعديد من النياشين. قال الأخير مستدرًا دون أن يتخلى عن وقاره: لا أعني أن هذا شيء خاطئ، بل على العكس، برأيي إنها شجاعة منك.

لكن محمود لم يكن يعلم فيما إذا كان قد قام بالتصرف وحده من أجل مباغتته فعلا أو لأجل تحقيق مجد شخصي أو لأي سبب آخر، لقد فكر بالأمر كثيرا فيما بعد، ليالٍ طويلة وحالكة الظلمة وعيون مفتوحة على مصراعها، فكر فيما إذا كان الأمر يستحق، وإذا ما كان بإمكانه تغيير ما حدث، لو كان بإمكانه الرجوع إلى الخلف، ولو للحظة واحدة فقط.

هناك في الدور العلوي لم يكن المكان أقل حلقة، وجد باب الغرفة مفتوحًا كأنه يرحب به ويدعوه إلى الدخول والنيل من فريسته، الرجل الذي كان يقف أمامه الآن كان يرسل طلقاته على فترات متباعدة من مسدس عادي أقل شراسة بكثير من أسلحة البقية الأوتوماتيكية وبذخيرة بدت على وشك النفاد بحيث أصبح مضطرا إلى الاقتصاد في استخدامها قدر الإمكان. مسدس حلوان، هكذا فكر محمود والابتسامه تملأ وجهه في الظلام.

مرة أخرى خطر له أن العملية كانت أسهل مما يتصور، تاجر المخدرات الذي دوخ المديرية لسنوات يقف أمامه الآن مثل ملك شطرنج سقط جميع الجنود من حوله وبقي في رقعته وحيدا، شهر عديده من العمل الشاق والنوم القليل وسلسلة طويلة من المراقبة المستمرة والمداهمات المنظمة والاعتقالات. كل ذلك سينتهي بعد لحظة بسقوط الرجل الكبير، السقوط الذي أصبح محتما وينتظر الإعلان الرسمي عنه.

توسعت حدقاته في الوقت المناسب، وأصبحت الرؤية أكثر وضوحا بشيء يسير، الشبح الذي أمامه أصبح يتحول إلى الشكل الآدمي المؤلف، الجلباب الرمادي والوشاح الصوفي الأسود فوق جسد نحيل ومتوسط الطول، ويد تمتد بين الفينة والأخرى من فتحة النافذة لتطلق الرصاص بشكل عشوائي، من دون أن يغامر حتى بالنظر إلى الوجهة التي كانت تنطلق فيها رصاصاته ليتأكد مما إذا كانت قد أصابت بشرا أو حجرا.

عندما أصبح على مسافة قريبة، وجّه محمود فوهة المسدس بثبات.

_ استسلم يا راضي، ألق سلاحك جانبا.

تجمد الشيخ الآدمي على وضعيته للحظات، ثم استدار باتجاه محمود، كان غطاء الرأس الأسود يغطي وجهه بأكمله ولا يظهر منه سوى العينين، ويداه منخفضتان إلى جانبيه، بينما يده اليمنى كانت لا تزال ممسكة بالمسدس. تحدث محمود عبر جهاز اللاسلكي، توقف إطلاق النار تمامًا، وساد الهدوء.

_ قلت لك ألق سلاحك وإلا أطلقت النار. قالها هذه المرة بلهجة أكثر حدة، لكن الشيخ ظل مُصرًا على جموده، منسجمًا مع الظلام والسكون. وعيناه معلقتان على محمود من خلف لثامه الأسود. ابتسم محمود مجددًا، قال: لا تظن أنني سأتردد لحظة واحدة. لمعت عيناه بتحفظ.

لحظات قصيرة جدًا، وأصوات خطوات غير منتظمة تأتي من الممر في الخلف، وصوت سليمان وهو يرفع عقيرته بالنداء، صدى صوته يتردد في الأرجاء، محمود يجيبه بلهجة انتصار، المكان كان معتّمًا والرؤية غير واضحة، الشيخ قام برفع يده التي تمسك بالمسدس وصوبها باتجاه محمود.

مستجيبًا إلى ردة فعل سريعة ومنظمة، أطلق محمود رصاصة تعرف طريقها.

سقط الشيخ على الأرض محدثًا ارتطامًا خفيفًا بالبلاط، اقترب منه محمود وهو لا زال يصوب مسدسه باتجاهه تحسبًا وقام بركل حلوان بعيدًا، لكن العينين اللتين كانتا تحدقان به بجرأة قبل لحظات من تحت اللثام ذبلتا تمامًا وانطفأ نورهما.

اقترب سليمان من محمود وهو يشهر مسدسه بدوره، نظر إلى الجسد الملقى على الأرض بلا أية معالم واضحة، رجال القوات الخاصة قد

بدأوا في التوافد تبعاً إلى داخل البيت، تمكن أحدهم من الوصول إلى مفتاح الإنارة في الغرفة، بعد لحظة كانت الثريا الضخمة المعلقة في السقف تضيء المكان بنور أبيض ساطع، اختفى اللون الأسود وعادت الألوان الأخرى إلى الحياة من جديد، والجسد المسحى على الأرض الذي يرتدي جلباباً رمادياً وكوفية سوداء بدا أنه قد أصبح أصغر حجمًا مما كان عليه قبل قليل، أقصر طولاً وأكثر نحافة، شعر محمود بأن العينين السوداوين لا زالتا تنظران إليه، نظرة لا حياة فيها ولا مشهد ينعكس أمامها، لكنها مع ذلك كانت كافية لتجعل القشعريرة تدب في جسده بأكمله.

_ إذاً، فقد قامت بتصويب السلاح نحوك على الرغم من تكرار طلبك لها بالاستسلام.

_ نعم يا سيدي.

_ وشعرت بأن هنالك خطرًا واضحًا يهدد حياتك ولم يكن هنالك أي وسيلة أخرى لدفعه سوى إطلاق الرصاص.

تردد محمود قليلاً، فهو لم يكن متأكدًا، لكنه نطق بالإجابة نفسها: نعم يا سيدي.

_ المكان كان معتمًا ومن الصعب أن تتوقع حركة الشخص الذي يقف أمامك، فقامت بالتصرف وفقا للطريقة التي رأيت أنها الأنسب تبعًا للظروف.

_ نعم يا سيدي.

نظر الرجل الجالس أمامه إلى الأوراق التي بين يديه، دقيقة من الصمت مرت قبل أن يقول: هنالك أيضًا شهادة الرقيب سليمان فرج

الله الذي أكد أقوالك، وبأنه كان يقف على مسافة قريبة منك عند حصول الواقعة.

ثم وضع الأوراق التي بين يديه جانبًا، شبك يديه على الطاولة التي أمامه، ثم قال: حسنا، هذا كل شيء، يمكنك العودة إلى استئناف عملك بدءًا من الغد.

رفع محمود يده بالتحية العسكرية، ثم استدار ليتجه نحو باب القاعة، إلا أنه توقف كمن تذكر شيئًا، ثم عاد ليستدير باتجاه أعضاء الهيئة، اقترب خطوتين ثم وقف مترددًا. توجهت أنظار الرجال الثلاثة باتجاهه. قال الرجل الذي يجلس في المنتصف: هل هنالك شيء آخر يا محمود؟
_ إنها لم تتكلم.

لم يكن يراهم في هذه اللحظة، عيناه كانتا تشاهدان شيئًا آخر.
بدا على ثلاثتهم إمارات عدم الفهم، قال الرجل الذي في المنتصف: من التي لم تتكلم يا محمود، أرجو أن توضح مقصدك.
_ الفتاة يا سيدي.

_ ما بها؟

_ إنها لم تتكلم، لم تفتح فمها بكلمة واحدة، ربما لو أنها نطقت بكلمة واحدة لكنت عرفت أنها ليست الشخص المقصود.
_ بالتأكيد يا محمود.

_ لماذا لم تقل أي شيء؟

أجاب الرجل الذي يجلس في المنتصف بنبرة فيها شيء من التعاطف: محمود يا بني، ما حدث لم يكن مقصودًا، هذا قدر الفتاة، مهما فكرت لن تجد أي إجابة. يمكنك الانصراف الآن ونسيان الأمر برمته.

هز محمود رأسه ، ثم استدار وسار باتجاه باب القاعة، هذه المرة لم يتوقف.

الربيع في أوج تألقه، ورود حديقة والدتي الصغيرة التي قامت بزرعها على البلكونة قد تفتحت، زوج من العصافير وجد طريقه إلى هذه الجنة الصغيرة، لكن والدتي طردتهما، وجدت الأمر مؤسفاً جداً، العصافير رمز الأمل والحرية، أخي قال إنني في يوم من الأيام كنت مثل هذه الورد، يانعة وجميلة، أنا أرى أبنائي الآن كما كان أخي يراني.

شقيقتي الصغرى التي تزوجت السنة الماضية حضرت مع زوجها الوسيم صاحب محل الأدوات المنزلية، أمي تقول إنه أبيض البشرة أكثر من اللازم، ينحدر من سلالة معظم رجالها بيض الأجساد وزرق العيون، أمي لديها منظورها الخاص عن الوسامة، مازال شارب والدي الذي اصطبغ باللون الأبيض يعيد بها الذكريات إلى المرة الأولى التي رآته فيها، الشاب الخجول القوي خريج دبلوم التجارة، وافقت أمي على الفور.

كانت حفلة صغيرة وبسيطة، لكن الكوب الذي يملأه الحب لا يوجد فيه نصف فارغ، الجميع متواجدون، سعاد وزوجها وأولادها الثلاثة، فتحية وابنتها الوحيدة، زوجها يحضر عادة في وقت متأخر، لكنه يسهر مع والدي يلعبان الطاولة حتى الفجر، والدتي تحب ابنتها كثيراً، وتحب ابنتي أيضاً، والدتي تقول إن الفتيات بحاجة إلى قدر أكبر من الحنان والعطف، الفتيات مخلوقات رقيقة، نظرة في غير محلها يمكنها أن تتحرك في نفس الفتاة أثراً يمتد لسنوات، فكيف إذا كانت

تتعرض للضرب والإهانة؟ ماذا سأقول لابنتي الصغيرة؟ ماذا سأقول لأمي؟

أكل والدي كثيرا على العشاء حتى أن والدتي شعرت بالقلق، قالت لي ونحن في المطبخ إن والدي لا يأكل كثيرا إلا عندما يكون حزينا، حتى لو لم يكن هو نفسه يعرف أنه يشعر بالحزن، يفكر فيما بعد التقاعد، أخبرها أن كل ظنونها خاطئة، وأن أبي سعيد، سعيد بعائلته التي تتجمع حوله، سعيد بأنه أدى رسالته على أحسن ما يكون، سعيد بما بقي له من أيام ليمضيها في أكفان الراحة والتفرغ للعبادة، سعيد وفخور، الليلة أنا سعيدة، فكيف لا يكون أبي سعيدًا كذلك؟

نضحك ونضحك، يرقص الأولاد، ثم يجلسون ليأكلوا من أصناف الحلويات التي أعدتها أنا وفتحية، ثم يتجمعون كلهم على شكل حلقة حول سعاد التي ترقص بينهم وتراقصهم، أخي يخبرهم بأن يخرجوا ليلعبوا في الحديقة، أمي تنهرهم، أنا أقف مستندة إلى باب المطبخ وأضحك، الحديقة التي تخاف عليها أمي حوض أزهار صغير في البلكونة، أخي يغمزني ويضحك، كم أحبه وأحب عائلتي وأولادي، جسد أبي يهتز من كثرة الضحك حتى تدمع عيناه.

تقول لي أمي: زوجك لم يحضر.

أقول لها إنه منشغل في العمل، تهز رأسها بإيماءة لا أعرف معناها، أخي يستأذن في الخروج لزيارة خطيبته، أعود في ذاكرتي إلى تلك الأيام التي كنت فيها فتاة مخطوبة، أنظر إلى وجه ابنتي الصغيرة التي تجلس في أحضان والدي وتشاكسه لتحاول الإمساك بحبات النرد وتلقها على الطاولة كما يفعل جدها، أنظر إليها ولا أندم.

الساعة قد أوشكت على العاشرة، لا يمكن أن أتأخر أكثر، والدتي تعرض عليّ أن أبيت في المنزل الليلة، تعرف أنني لن أوافق، لكنها لا تعرف أنني أتوق إلى ليلة أخرى أقضيها بين أحضانها، ليلة واحدة فقط، أعود فيها فتاة صغيرة بريئة لا تعرف شيئاً عن شرور العالم، فتاة تحميها أمها حتى من النظرات والكلمات الجارحة إلى حد الموت، فكيف إذا تعرضت للضرب؟

أخي يعرض عليّ أن يرافقني إلى المنزل، لكنني أرفض عرضه، أطلب منه الذهاب لرؤية خطيبته التي تنتظره الآن على أحر من الجمر وقد ارتدت ثوبها الأسود قصير الأكمام الذي اشتراه لها في عيد ميلادها الفائق وصدفت شعرها على طريقة تويست الفرنسية التي يعشقها، أستطيع أن أتخيلها بوجهها الأسمر الجميل وهي تقف عند باب الشقة في انتظاره، أتساءل فيم تفكر؟ فيم عساها تفكر؟ في مجهول قادم ليست لديها عنه أدنى فكرة، أقول لها في نفسي كم هي فتاة محظوظة، أخي شاب طيب ولطيف، ورقيق جدا، آخر العنقود في بيت فيه أربعة نساء، لكنه رجل يعتمد عليه، يشبه والدي في شبابه، هنيئاً لك بالمجهول القادم الذي لا تملكين عنه أية فكرة، أكاد أراها تستقبله بابتسامة ووردة حمراء، تدمع عيناها، تربت فتحية على كتفي وتقول لي إنني الليلة حساسة أكثر من اللزوم، أقول لها إنني بخير، أنا فقط سعيدة، سعيدة جدا، وأبي سعيد كذلك، أكاد أجزم بأن أمي مخطئة في تقديرها، أولئك الذي يذبلون بعد التقاعد أناس وحيدون ومتعبون، من يشعر بالفراغ ولديه عائلته التي يحبها إلى جانبه؟ الكأس الذي يملؤه الحب لا يوجد به نصف فارغ، أخي خطب

رفيقته في الجامعة منذ ثلاث سنوات الآن، ولا زال بانتظار الفرج، وأنا في انتظار الفرج.

الساعة العاشرة ونصف، أوقف السيارة في كراج العمارة وأنا لا زلت أبتسم من السعادة، أحمل الصغيرة التي نامت في السيارة وأدلف إلى المصعد، لا زال للفرح مكان في قلبي، أناول الصغيرة لأكبر أبنائي ريثما أخرج المفتاح من الحقيبة لأفتح باب الشقة، ألتفت إلى الصبي وهو يحمل الصغيرة ويحتضنها بحنان، أعود لأبتسم.

أجده جالسا هناك، على الأريكة التي تواجه باب الشقة، أعرف ماذا يعني جلوسه في هذا المكان، الإضاءة خفيفة ولا أتبين ملامح وجهه جيدا، لكن من قال إنك بحاجة إلى الضوء لتشاهد وجه الشر.

أعرف أنه ينظر إليّ، أعرف أن عينيه تشعان شررًا، أعرف أن جسده يرتجف من الغضب، العرق الكبير الذي ينفر على زاوية رقبتة كلما يكون مهتاجًا، أعرف أنه الآن ينتفخ إلى درجة الانفجار، لم أعرف أنه سيكون في المنزل مبكرا هذه الليلة، لماذا عاد مبكرا؟

أدعو في نفسي أن يمنحني عشر ثوان، فقط عشر، يداي تعصران جسد طفلي الصغيرة، أطلب من الأولاد الذهاب إلى غرف النوم بنبرة حازمة، أدعو أن يستجيبوا لي دون ملاحظة. استجاب الأولاد دون ملاحظة، أولادي أذكيا، يشعرون بالخطر حين يكون قريبا منهم. فماذا لو كان الخطر جزءًا من حياتهم؟

جروا إلى غرفهم دون أن يديروا وجوههم باتجاه الأريكة ومن يجلس عليها، سرت وراءهم بخطوات تسابق الريح، وضعت الصغيرة على سريرها ثم خرجت وأغلقت الباب، لم أتمن لأطفالي ليلة سعيدة، لم

أجد الوقت لفعل ذلك، الثواني العشر التي تمنيتها قد انتهت منذ وقت طويل.

لم يخني إحساسي هذه المرة، هدوءه لا يعني أن الأمور على ما يرام، أنني سأوي إلى سريري آمنة مطمئنة، أتذكر الليلة التي قضيتها في منزل عائلي وأبتسم، ثم أنام وأنا مبتسمة، هدوءه أحياناً أكثر بلاغة من أي غضب.

_ أين كنتِ لغاية الآن؟

لم أتوهم، إنها هي، النبرة التي تسبق الكارثة، كنت محقة، منذ اللحظة التي رأيته فيها يجلس على هذا الكرسي المشؤوم، أولادي ورثوا عني هذا الحدس، أراه يقف الآن أمامي بأكتافه العريضة وقامته الممدودة، هل يفترض أن أشعر بالخوف الآن؟ لقد مات الخوف منذ زمن ولى، ماذا يتبقى من الأدمية إذا كان الخوف نفسه مات، أولادي كانوا محقين أيضاً.

يكرر سؤاله مرة أخرى، رغم أنني أخبرته مرات عديدة بأن شمل العائلة سيجتمع الليلة للاحتفال بتقاعد والدي عن العمل، بأن حماه وصهره سيكونون هناك وهو غائب، لا فرق، كان يعرف أين كنت، ويعرف ماذا كنت أفعل، يعرف كيف أشعرومتى أتنفس، يعرف الأجزاء التي ماتت بداخلي والأجزاء الباقية التي لا زالت تحتضر، لكنه يسأل، كل مصيبة تبدأ من نقطة عادية.

أقول له: لقد كنت عند أهلي، لقد اجتمعنا الليلة، وقد أخبرتك بذلك، هل نسيت؟

يقول: وهل بقيت في منزل أهلك حتى منتصف الليل؟

يقترّب خطوة أخرى، رائحة الكحول تغطي خياشيمي وتبعث بي إحساسًا بالقرف، القرف من هذا البيت، ومن هذه الأريكة المشؤومة، ومن نفسي، أنا الملامة.

_ أجيبي، لم تأخرت إلى منتصف الليل؟

أردد في نفسي مرة أخرى أنني أنا الملومة، يقترّب أكثر، رائحة أنفاسه الكريمة تجد طريقها إلى نفسي أيضًا، أشعر أنها تأخذ من روحي شيئًا فشيئًا، أصبحت أذبل مثل ورود أمي في الخريف.

أجيب: الوقت ليس منتصف الليل، الساعة زالت العاشرة والنصف.

لم يدعني أكمل، كانت يده أسرع، اللطمة جعلتني أترجع إلى الخلف، لكنها لم تصدمني، لقد كنت أتوقعها وأنتظرها، هذا ما يحصل عندما يموت الخوف.

أمد كفي لأتحسس فكي الذي يعوي من الألم، أردد مرة أخرى أنني أنا الملومة، أنا من اختار إنسانًا مريضًا وملونا ليكون شريك حياة وأب لأطفال صغار، أطفال أذكيا، لم يخرج أحد منهم من غرفته، كم أمقته وأحبهم.

ينعتني بأبشع الألفاظ والشتائم، شتائم أترفع عن ذكرها وأضع كفي على أذني أولادي كي لا يسمعوها، أولادي الأذكيا، أدعو ألا يسمعوها داخل غرفهم، ما الذي يبقى بعد أن يشتم رجل أم أطفاله بهذه الطريقة؟ أنا سعيدة، أستعيد ذكرى حفلنا الصغير في مخيلتي من جديد، أرى والدتي وهي تصرخ على أولادي وأولاد سعد الذكور كي لا يعبثوا بالزهور في البلكونة، أخي يتحدث مع خطيبته على الهاتف ويبتسم، أرى الحمرة على وجنتيه فأعرف أنها أخبرته بأنها تحبه أكثر

من أي شيء في العالم، أبي يأكل الليلة بهم، وأنا سعيدة، سأبقى سعيدة.

جسدي متكوم على الأرض، أشعر بثقل الضربات على ظهري وجنبي، أتأوه رغما عني، تتوقف الضربات، أسمع وقع خطواته وهي تبتعد إلى الداخل، أنتظر، أعد الخطوات، أحمد الله في سري أنه تعدى غرف الأولاد، أغمض عيني وأعود لعائلي، لا أريد لسعادتي أن تذهب وتتركني.

هاه، ستعترف يا رجب أم أنك تصر على إضاعة وقتنا بلا طائل؟ عند زاوية الغرفة التي يشغلها مأمور قسم شرطة الشرايية، وقف رجل طويل ونحيف بشارب غليظ ووجه أسمر مدبب، يرتدي ملابس متسخة بنقط دهان بيضاء، قال بصوت متحشرج صادر عن حلق جاف: يا سيدي، أقسم لك إنني لم أفعلها، أنا شخص تائب يا باشا، ربنا قبل التوبة، لماذا لا يقبلها العبد.

نظر إليه معتزز في استهزاء، لمس بأصابع يده اليمنى الشعيرات القليلة النابتة على ذقنه، ثم قال موجهاً حديثه إلى الضيف الجالس قبالة طاولة المكتب: هل ترى ما الذي أضطر إلى التعامل معه يوميًا؟ هل لديكم في قصر النيل مثل هذه النماذج؟

تكشف وجه شريف المستدير والضحخم عن ابتسامة، وهو يعقد يديه فوق صدره العريض، ثم تغيرت معالم وجهه فجأة إلى الصرامة الطاغية وهو يقول: لماذا تصر على إتعاب سيادة العقيد، اعترف بجرمك ولننته من هذا الموضوع.

_ يا سعادة الباشا الله يكرمك، لتكن محضر خير، أنا والله العظيم.....

توقف عن الكلام بإشارة من يد معتزز، الذي وجه حديثه إلى شريف متجاهلاً رجب تمامًا: ما أخبار المعاون الجديد الذي جاء من المخدرات.

_ ابن المستشار السابق.

_ والده مستشار سابق؟

_ المستشار طلعت هرس، نائب رئيس محكمة النقض السابق.

هز معترز رأسه وعلى وجهه سيماء التفكير العارض، كمن توصل إلى فهم أمر ما كان مستعصياً عليه، رجب الذي كان يقف بملابسه القذرة في أقصا الغرفة قام بهز رأسه بذات الطريقة.

قال معترز: إنه يماثلك في الرتبة، ألا تخشى أن يشكل هذا تهديداً لك؟ رفع شريف حاجبيه في ثقة وهو يقول: لا تخف عليّ، عمر الشقي بقي، والدي ليس مستشاراً سابقاً ولكن أنا لديّ معارفي.

_ شخص يصل إلى رتبة رائد في المكافحة، لماذا يطلب نقله إلى المباحث الجنائية؟

_ بحسب ما عرفت، حصلت معه حادثة. قام بقتل فتاة بالخطأ ظنا منه أنها مجرم مطلوب.

_ يا ساتريا رب، قتل فتاة بالخطأ؟

نظر كلاهما إلى رجب الذي تراجع إلى الخلف في فزع بعد تعليقه الأخير الذي كان فيه الكثير من التسرع، انفجر فيه معترز غاضباً: تعال واجلس معنا وشاركنا الحديث، ما رأيك في أن نطلب لك كوباً من الشاي؟

أخذ رجب يرفع يده بأسلوب الذي ارتكب خطأ ويريد الاعتذار عنه وهو يردد: العفويا باشا، العفو.

في هذه اللحظة دخل إلى الغرفة شاب في أواخر العشرينات من العمر وقام بإلقاء التحية، قال له معترز: جئت في وقتك.

ثم التفت إلى شريف وهو يقول: الملازم مراد معاون مباحث لذي في القسم، شاب نشيط جداً. اكتفى شريف بهز رأسه دون أن يجيب.

قال معتز مخاطبًا مراد: هذا رجب الصرصار ابن منطقتك، خذه إلى مكتبك وخذ أقواله بصفة رسمية ثم أعدّه إلى هنا حتى نرى كيف سنتصرف بشأنه.

تحول وجه رجب إلى الشحوب ولكنه لم يجرؤ على الكلام مجدداً أملاً بالنجاة قريباً.

لم يكن الجو بارداً جداً هذا المساء، كان أقرب ما يكون إلى الرطوبة وإن لم تصل إلى الحد الذي لا يمكن احتمالها. الصيف فرض سطوته مبكراً في أوائل نيسان، إلا أن المطر كان له رأي آخر عندما وجد طريقه إلى الأرض، بدءاً بقطرات متفرقة على استحياء، ثم أصبح ينهمر بشدة، لم يكن المطر ضيقاً معتاداً في هذا الوقت من السنة، لكنه هذه المرة أثبت وجوده بقوة.

البنية التحتية السيئة للشارع الجانبي ذي المساحة الضيقة جعلت مسألة نزول المطر أكثر صعوبة على المشاة، فبالإضافة إلى حبات المطر ذات الحجم الكبير التي كانت تنهمر فوق رؤوسهم فقد كان عليهم الانتباه بدرجة عالية إلى البرك والحفر الطينية التي قد تظهر تحت أقدامهم، الظلام الذي كان يسود المكان زاد من صعوبة المهمة، وأعمدة الإنارة الموجودة على طول الشارع كانت جميعها تالفة فبدت كأشباح معدنية خاوية، شكاوى أهل الحي لم تجد بعد آذان صاغية من مسؤولي البلدية، في حين أن الأنوار التي كانت تصدر من خلف ستائر المنازل القديمة الملاصقة للشارع وإن كانت كافية للمارة لكي يميزوا اتجاهاتهم إلا أنها لم تكن كافية لتوفير رؤية واضحة لتفادي

البرك المائية، والتي إن تفادها الشخص فإن عليه أن يتفادى القمامة والقاذورات المنتشرة في كل مكان على طرفي الشارع. لذا فإن سماع الشتائم واللعنات المتكررة من المارة والتي تصب على غيرهدى كان أمراً عادياً.

في نهاية الطريق الضيق كان الوضع أحسن حالا بقليل، ففي تلك الناصية التي يقع فيها المقهى الشعبي، كان المكان مضاءً بصورة جيدة، وملئنا بالدخان والناس، أنغام الأغاني القديمة، أصوات الضحك الصاخب والمحادثات العشوائية الصادرة عن رواد المقهى كانت قادرة على الوصول إلى مسامع صاحب البشرية السمراء الخفيفة الذي كان متكئاً إلى عمود الإنارة الموجود في الجهة الأخرى من الشارع المقابل للمقهى، لم يكن يعبر أي اهتمام لحبات المطر المتساقطة فوق رأسه ولا أية رغبة في الاحتماء منه، اهتمامه الوحيد كان منصباً على النظر إلى بوابة المقهى وتفحص وجوه الأشخاص الداخلين إليه.

دقائق قليلة مرت إلى أن شاهد شخصاً قصيراً القامة يهرول باتجاه المقهى وهو يضع قبعة سترته الرياضية فوق رأسه ويوجه أنظاره إلى الأسفل، كان يضطر إلى القفز في أحيان كثيرة تجنباً للبرك المائية، عندما تأكد من أن الشخص القصير قد أصبح داخل المقهى، سار باتجاهه.

اتخذ القصير مقعده في ركن بعيد عن البقعة الأشد ازدحاماً في المقهى وهي صفوف الطاولات والمقاعد المترابطة أمام شاشة تلفاز بحجم ٣٢ بوصة معلقة على الحائط والذي كان يعرض برنامج

مسابقات غنائية شهير جذب له أنظار الحاضرين، القصير طلب كوبًا كبيرًا من الشاي فور جلوسه ثم قام بإشعال لفاقة تبغ. لم يتمكن من إبعاد نظره عن الرجل الأسمر الذي دخل إلى المقهى، والذي ظل يسير باتجاهه بخطوات ثابتة قبل أن يجلس على المقعد المقابل له دون أن يلقي التحية، شعره كان مبتلا بالكامل وقطرات الماء تنساب من خصلات شعره لتسيل على وجهه، أخرج من جيبه منديلا قطنياً وانشغل في مسح قطرات الماء عن وجهه وعنقه، ثم قام بطلب كوب من الشاي بدوره. كان الرجل القصير يغلي من الداخل، إلا أنه كان مضطرا إلى إخفاء غضبه، بدا أشبه بحبة طماطم رديئة. اكتفى بأن قال بصوت هامس: لقد قلت لك مرارا، لا يجب أن نلتقي في العلن.

حدجه محمود بنظرة حادة دفعته إلى إعادة التفكير في موقفه وتحليل ردة فعله على الرغم من أنه كان حريصًا على كتمان غضبه واستيائه. ثم قال بلهجة حرص فيها على أن تكون أكثر إثارة للتعاطف: يا باشا، أنا تركت كل هذه الأمور السيئة ورائي، وقمت بتقديم كل مساعدة ممكنة لرجالكم، لكن رؤيتي بصحبتك في مكان كهذا من شأنها أن تعرض حياتي للخطر، وأنا حياتي غالية عليّ. تكلم محمود للمرة الأولى منذ جلوسه: كل واحد منا حياته غالية عليه، لكن لا يجب عليك أن تقلق بهذا الشأن.

كأنما تمكن الرجل القصير من إيجاد ذريعة ليقوم برفع وتيرة أحواله الصوتية بقدر ضئيل: كيف تريدني ألا أقلق؟ أشخاص كثيرهنا يعرفون هويتي، وبالتأكيد يتذكرون من أنت، إذا أردتم التحدث معي

يمكنني الحضور إلى القسم في أي وقت ترغبون فيه كما يفعل الجميع، لكن لقاءنا هنا يثير الشبهات. أطلق محمود ابتسامة ساخرة وهو يقول: أنت تعرف أنني قد انتقلت من هنا يا خفيف الظل.

قال حمدي القصير: نعم يا باشا، أعلم أنك انتقلت من هنا وأنك تركت مكافحة المخدرات ورحلت عن أسيوط بأكملها وانتقلت إلى القاهرة. قال عبارته الأخيرة مشددًا على الكلمات كتذكير بواقع الحال الجديد، ثم تابع: لا أعلم لماذا لا زلت مصرًا على التحدث معي طالما لم أعد مخبرك.

توقف القصير عن الكلام وأشاح بوجهه في الاتجاه الآخر في اللحظة التي اقترب فيها النادل الصغير وقام بوضع كوبين من الشاي، بقي ينتظر انصراف النادل قبل أن يعود لينظر إلى محمود ويقول: يا باشا، أنا وضعي حرج للغاية، لا يمكنني أن أستمر في مقابلتك بهذا الشكل، خاصة وأني لا زلت لا أعرف كيف يمكن أن أكون ذا فائدة لك الآن.

أخذ محمود رشفة من كوبه، ترك السائل الساخن يتغلغل إلى أعماق حلقه، أعاد الكوب إلى مكانه بهدوء وهو يقول: لا زال بيننا عمل غير منتهٍ، لا تقل لي إنك نسيت.

_ عمل غير منتهٍ؟ لا أفهمك يا باشا.

_ راضي السيف.

أعاد القصير كوب الشاي الذي كان في يده إلى مكانه على الطاولة بسرعة قبل أن يصل به إلى فمه، ثم رفع يده التي كانت ممسكة بالكوب إلى مستوى وجهه وهو يقول بنبرة حاول جاهدا إبقاءها

منخفضة: يا باشا، أقسم لك إنني لا أعلم أي شيء عن مكانه، لقد سبق وأن أخبرت زميلك الباشا سليمان بذلك، السيف فص ملح وذاب، اختفى من يومها ولم يظهر مجددًا.

أخذ محمود يهز رأسه ببطء، لم يعلم القصير ما إذا كانت هذه علامة على الاقتناع أو التكذيب، تنبه إلى أن لفافة التبغ التي كان يضعها على المنفضة قد أوشكت على الانتهاء، تناولها بين أصبعيه وأخذ منها عدة أنفاس متلاحقة إلى أن قضى عليها تمامًا، شعر بعدها بشيء من الهدوء الظاهري الذي مكنه من التفكير فيما سيقوله لاحقًا. ثم تحدث بنبرة حرص على أن تخرج بأسلوب من يقوم بتقديم نصيحة لصديق: يا باشا، السيف أمره انتهى تمامًا، لقد قطعت يداه وساقاه، إذا كنت خائفًا من أن يقوم بأي شيء لينتقم منك لأنك قتلت ابنته...

النظرة النارية التي شاهدها في عيني محمود كانت كفيلة بأن تكبح جماح لسانه، ندم فوراً على اختياره السيء للكلمات لكنه لم يكن يملك سوى إكمال فكرته حتى النهاية، تابع بنبرة انتزعت منها الثقة: وترغب في الغداء به قبل أن يتعشى بك، أعني أنه لا داعي لذلك، لن يكون قادراً على فعل أي شيء سوى الاختباء تحت المجاريير مثل الفئران، كن مطمئناً من هذه الناحية.

_ أعتقد أنني أطارد السيف خوفاً من أن يترى بي ويقتلني انتقاماً لحادثة ابنته؟ أحقا تظن أن هذا هو السبب الحقيقي الذي يدفعني إلى الإيقاع به؟

نبرة الصوت التي كانت تخفي في طياتها أكثر مما تظهره والتي كانت تنذر بقدوم عاصفة في الطريق جعلت الرجل القصير في حالته

القصوى من الحذر والترقب. أخذ يتلفت حوله بصورة آلية وهو يفكر في كيفية تلافي الموقف قدر الإمكان. فتح فمه قاصدًا للنطق بعبارات كثيرة ليوضح فيها مقصده من دون إثارة أي سوء فهم، لكنه لم يجد في جعبته الكثير، اكتفى بأن قال: لم أكن أقصد هذا المعنى الذي فهمته. ردة فعل محمود جاءت مفاجئة ومريحة للقصير في نفس الوقت، استرخى بظهره إلى الخلف على المقعد الخشبي، تناول كوب الشاي الخاص به وارتشف منه عدة رشفات، قال: أنا لست من أولئك الأشخاص الذين يتركون وراءهم عملاً غير منجز، حتى وإن انتقلت من مكافحة المخدرات، وحتى وإن لم تعد مسألة السيف من اختصاصي رسميًا، حتى وإن تركت الداخلية كلها، أنا شخص أحرص دائماً على إنهاء أي عمل أقوم به، هذه طبيعتي ولا أملك حيالها أي شيء، هل تفهمني؟

هز القصير رأسه موافقاً بحركة بطيئة دلالة على الفهم، لكنه في حقيقة الأمر لم يكن يملك تفسيراً لذلك.

_ جيد، كل ما أُرغب به هو القليل من المساعدة، خدمة صغيرة أخرى مثل التي كنت تقدمها لي في المكافحة، يمكنك أن تعتبرها الخدمة الأخيرة، بعدها سنغلق هذا الباب بالضبة والمفتاح.

_ ماشي يا باشا، سأبذل قصارى جهدي.

نظر محمود إلى عينيه مباشرة وهو يقول: أنا واثق من أنك ستفعل. ثم مد يده إلى كوب الشاي ورشف منه الرشفة الأخيرة، قال وعلى وجهه إمارات الاستمتاع: الشاي هنا طعمه لذيذ، أعتقد أنني سوف أشرب المزيد، هل ترغب في أن أطلب لك كوباً آخر معي؟
لكن كوب القصير كان لا يزال ممتلئاً عن آخره.

رن جرس الهاتف للمرة العاشرة، إلا إن هذه كانت المرة الأولى التي يتنبه فيها محمود إلى الرنين، أبقى يده اليسرى ممسكة بمقود السيارة، ثم مد يده اليمنى وقام بفتح غطاء التابلو الأمامي وتناول الهاتف، جاءه صوت زوجته من الطرف الآخر يحمل في طياته الكثير من القلق: أين أنت؟ إنني أحاول الاتصال بك منذ ساعتين.

_ لماذا؟ هل هناك شيء ما؟ هل الأولاد بخير؟

ثار غضبها فجأة جراء رده المستفز، ردت بنبرة حادة: وهل يجب أن تكون هنالك كارثة حتى يكون اتصالي مبررًا؟

لم يرغب محمود في أن يخوض أكثر في معركة كان يعرف نتائجها مسبقاً، قال: لقد نسيت هاتفني في السيارة، لم أنتبه إلى مكالماتك سوى الآن.

_ لا بأس لن أشغلك عن القيادة، هل أنتظر على العشاء.

_ لا داعي لذلك، قد لا أصل قبل منتصف الليل.

_ منتصف الليل! ازدادت وتيرة القلق في صوتها، قالت: محمود، أين أنت؟

_ في الطريق إلى المنزل.

_ أعلم ذلك، في الطريق من أين؟

لم يكن يرغب في إثارة جدال على الهاتف لكنه لم يكن يرغب في الكذب أيضًا، لحظة السكوت التالية اختار فيها عدم الكذب، قال: أسيوط.

لم تتكلم فوراً، لكنه كان لازال قادرًا على سماع تهديداتها المتتالية عبر الهاتف. قالت أخيرًا: الموضوع ذاته.

لم يرد، تابعت: وأنا الذي ظننت أننا قد انتهينا من أسيوط وما فيها
وعدنا أخيرا إلى القاهرة، لماذا تصر على العودة؟ ما الذي ستجنيه من
كل هذا؟ محمود، أنت تؤذي نفسك وتؤذينا معك.

مرة أخرى أثار محمود ألا يجيب، تركها تتحدث وبقي يسمعها، لكن
دون أن يستمع إليها.

كانت غاضبة جدًا عندما أغلقت الهاتف، كلما ظنت أن الأمر انتهى
يعود ليطفو إلى السطح من جديد، وفي كل مرة كانت تشعر بالغضب
بالقدر ذاته. فكرة ألا تكون قادرة على فهم ما يدور في عقل محمود
كانت تشعرها بالاستفزاز، كم يجب أن يمضي من الوقت حتى تعود
المياه إلى مجاريها، سنة، عشرة، مائة سنة؟

في اللحظة التالية وجدت نفسها في المطبخ، حملت أول كوب زجاجي
كان بمتناول يدها وهوت به على الأرض، أفلتت منها صرخة غضب
سريعة ومفعمة، استعادت بعدها هدوءها وعادت أنفاسها إلى
الانتظام.

صوت ارتطام الكوب الزجاجي بالأرض أحدث صوتا أشبه بانفجار
مكتوم.

تراجعت سمية خطوتان إلى الخلف وهي تنطق بالمعوذات وتتأمل
شظايا الزجاج المكسور التي كانت تلمع فوق الأرضية الرخامية
المصقولة، سمية كانت نادراً ما تلجأ إلى استخدام المطبخ، على الرغم
من أنها أصرت أن يتم تغيير ديكوراتها بالكامل منذ شهر قليلة
مضت، جزء من الفيلا الكبيرة التي تسكنها أصبح يعكس ذوقها

الخاص والأنيق، وقفت بنفسها على كل صغيرة وكبيرة، عشرات النماذج والخيارات إلى أن استقرت على التصميم المناسب، حرصت على إبداء رأيها في كل قطعة بلاط ورخام وأرضيات وخزائن ونقوش، كما حرصت على أن تقوم بالإشراف بنفسها على النقل والتكيب، شهر من الانشغال الكامل، بعدها عادت إلى حياتها الرتيبة التي تحلم بها الكثيرات، ما بين الاستيقاظ المتأخر وممارسة الرياضة في النادي والتسوق باستمرار والخروج مع الصديقات والسفر والرحلات، ومن خلفها ابنا الوحيد ذو الأعوام الأربعة واضعا يده بيد الخادمة الفلبينية التي كانت فتاة قصيرة وصغيرة في السن، ولكنها على صغر سنها كانت تملك قدرا واسعا من المعرفة والإتقان لفنون الطبخ، الأمر الذي أثار غيرة وحسد صديقاتها على هذه الجوهرة التي لا تقدر بثمن، الجوهرة التي كانت السبب الرئيسي في ألا تستمتع سمية بامتيازات استخدام مطبخها الثمين، إلا في حالات نادرة، مثل هذه الليلة. صحيح أن جوهرتها شعلة من الطاقة والنشاط، لكنها كانت تخلد إلى النوم في وقت مبكر جدًا، وإذا نامت دوري فلا سبيل إلى يقاظها قبل السادسة صباحًا، فيما وجدت سمية نفسها هذه الليلة غير قادرة على النوم على الرغم من أن الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل، وفكرت في أن تمضي الليلة في قراءة إحدى الروايات الكثيرة التي تزين مكتبتها، لهذا فإن كوب النسكافيه قد أصبح أمرًا مسلمًا به، وفي ظل غياب دوري في عالم الأحلام، فإن قيامها بإعداده بنفسها كان أمرًا آخر مسلمًا به.

فأل سيء حقا.

سمعت صوت تكة السخان الكهربائي التي تعلن أن المياه التي في جوفه قد بلغت درجة الغليان، لكنها لم تحرك ساكنا بعد. فقد فكرت في أول الأمر في أن تترك الزجاج المكسور المختلط بحبيبات النسكافيه والسكر في مكانها على الأرض، سوف تستيقظ دوري كالعادة في الصباح الباكر، وسوف تشاهد هذه الفوضى، وكالعادة سوف تقوم بما يتوجب عليها القيام به، أمر لا يصدق مقدار الراحة التي يمكن لمائتي دولار شهريًا أن توفره.

وفاة والديها، وحقيقة أنها الابنة الوحيدة الباقية لهما بعد وفاة شقيقها منذ سنوات في إحدى رحلاته إلى خارج البلاد، جعلت منها الوريثة الوحيدة لمجموعة شركات تعمل في الاستيراد والتصدير، درجة الماجستير التي تحملها في التجارة وسنوات عديدة اقتطعتها من شبابها لتشارك والدها وزوجها في العمل جعلها امرأة قوية وذكية، وعالمة ببواطن الأمور، في ذلك الوقت عملت بجهد واجتهاد، لكن الشيء الأكثر أهمية التي تعلمته من والدها تحديداً، هو حماية أموالها جيداً.

لكن قرارها بترك العمل وهي لا تزال في الخامسة والثلاثين جاء مفاجئاً لكل من حولها، اعتقد البعض أن السبب في ذلك يعود إلى عوامل صحية، الإرهاق والتوتر الناتج عن ضغط العمل وحجم المسؤولية الكبيرة التي ألقتها وفاة والدها على كاهلها، البعض الآخر أرجع السبب إلى رغبتها في الاعتناء بولدها الوحيد، والذي كان لا يزال في سنته الأولى، سامح زوجها لم يهتم كثيراً بقرارها ترك العمل بحيث يصبح هو الأمر النهائي أمام الجميع، فهو كان يعتبر نفسه كذلك فعلاً حتى في حضورها، بقيت تردد أن السبب الحقيقي وراء قرارها

بالاستقالة والذي لم يكن يعلمه أحد، هو ببساطة أن الحياة قصيرة وأنها لم تعد ترغب في إرهاق نفسها بالعمل بعد اليوم. سمية في الخامسة والثلاثين من عمرها توصلت إلى القرار الذي عجز أثرياء كثير عن الوصول إليه رغم وصولهم لسن الشيخوخة، هذا ما كان يتناقله مجتمع الصديقات المنغلق، إذا كنت تملك المال الكثير فلماذا تضيع حياتك في كسب المزيد، فلتستمتع بإنفاقه إذًا ولا تضيع وقتك، خاصة بوجود من يمكنه القيام بجمع المال لك، وبنفس الكفاءة إذا لم يكن أكثر.

عندما انتهت من إعداد كوب النسكافيه وهمت بالخروج من المطبخ، ألقت نظرة أخيرة على بقايا الكوب الذي انكسر، ومعه أعادت النظر في قرارها بترك هذه البقايا على الأرض إلى حين استيقاظ دوري، قد تكون فكرة سخيفة بحد ذاتها، لكن ماذا ستقول عنها الخادمة عندما ترى بقايا الكوب المكسور على الأرض، هل ستقول في نفسها كم أن هذه المرأة التي تعمل لديها كسولة إلى الدرجة التي لا تقوم فيها بإزالة أثار كوب مكسور؟ هل سيكون هذا الخبر هو الخبر الأول الذي تبدأ به صباحها عندما تقوم بالاتصال بعائلتها عبر السكايب؟ بأن السيدة التي تعمل عندها والتي عندما قررت أن تخدم نفسها لأول مرة لم تتمكن من ذلك، بل إنها قامت بكسر الكأس ولم تكلف نفسها حتى عناء إزالة بعض الزجاج المتناثر بحجم الكف.

وماذا لو ظنت بها أسوأ من ذلك؟ ماذا لو قالت عنها إنها امرأة قذرة؟ صوت وقع أقدام في الصالة أخرجها من أفكارها، على الأغلب أن سامح قد عاد من حفل الزفاف الذي كانا مدعويين إليه والذي كانت قد أعلنت رفضها القاطع لحضوره حتى من قبل أن تتلقى الدعوة

إليه. لقد عاد مبكراً هذه المرة، قد يفعل ذلك في حال كان الحفل مملًا، لكن الحفلات التي تقام في قصر "فهمي أبوربيع" نادرًا ما تصيبك بالملل. كثيرون عاتبوها على امتناعها عن التواجد في مثل هذه الحفلات، لكن قرارها بمقاطعة كل هذه المظاهر والعيش لنفسها كان نهائيًا ولا رجعة فيه.

رفعت عقيرتها بالنداء: سامح. لكنها لم تسمع أي إجابة.

_ سامح، هل أنت هناك؟

أ يكون ابنها الصغير قد استيقظ ونزل إلى الطابق الأرضي؟ استبعدت ذلك، فابنها لديه كل ما يحتاجه في الطابق العلوي، ودورة المياه في الطرف الآخر من الممر، كما أصبح لديه ثلاثته الصغيرة في غرفته حتى لا يضطر إلى نزول السلالم إلى المطبخ في حال شعر بالعطش ليلاً. خطت إلى الصالة وكوب النسكافيه الآخر في يدها.

_ سامح، هل هذا أنت؟

الضربة جاءت سريعة ومباغتة.

للمرة الثانية في خلال دقائق، تسقط سمية كويًا من يدها لتتناثر أجزاءه على الأرض، لكنها هذه المرة سقطت معه.

أخذ شريف يزمجر بطريقة غاضبة كأن هاتفه الجوال سوف يشعر بالخوف ويتوقف عن الرنين، بقي مصرًا على إطباق عينيه بإحكام، لكن المتصل كان مصرًا على إقلاق مضجعه، كلما انتهت نغمة الهاتف وساد السلام للحظة يعود إلى البدء من جديد، كان المتصل مصرًا على تلقي الإجابة.

عند المحاولة الثالثة استيقظت زوجته، مدت يدها البضة البيضاء وقامت بهزه عدة مرات، عاد ليزمجر من جديد.

_ شريف، شريف، الهاتف.

ثم أخذت تهزه بقوة أكبر: شريف، الهاتف.

أخيرًا سلم شريف تحت وطأة الضغوط، فتح عينيه بصعوبة وقام معتدلاً وهو يمد يده إلى هاتفه الجوال الذي كان لا زال يرن، فكر في أن المتصل لا بد أن يكون لديه سبب جيد لإيقاظه فيمثل هذا الوقت، لم يكن متأكدًا من الساعة لكن الوقت كان متأخرًا بالتأكيد، بل متأخرًا جدًا. لكن لدى مشاهدته الرقم الخاص بغرفة العمليات في المديرية، فقد أصبح لزامًا عليه أن يستعيد كامل وعيه، حتى وإن اضطر إلى الاستيقاظ في الرابعة فجرا، فهو يعلم ماذا يعني أن يقوموا بالاتصال في مثل هذا الوقت.

_ ماذا هناك؟ من الذي على الهاتف؟

جاء سؤال زوجته بطريقة روتينية دون أن تفتح عينها أو تدير وجهها ناحيته، وجد شريف ضالته للتنفيس عن غضبه جراء إيقاظه في هذا

الوقت، أجاب بصوته الخشن الحاد، ذات الصوت الذي يستخدمه لأداء دور الشرطي الشرير الذي يتقنه تمامًا: هذا ليس من شأنك، عودي إلى النوم.

لكن لم يكن يبدو أن زوجته كان تعقد النية على الاستيقاظ من الأساس، كان سؤالها من باب لزوم ما لا يلزم، بقيت ساكنة فوق السرير وقد اكتفت بهذه الإجابة.

تأمل شريف زوجته للحظات تحت ضوء الوناسة ذات الإنارة الصفراء، ثم خرج من الغرفة وهو يسأل نفسه متى أصبحت تلك العصفورة الصغيرة التي تزوجها منذ سنوات بمثل هذا الحجم الكبير؟

ماذا تتوقع من زوجة همها في الحياة الأكل والنوم وإنجاب الأطفال؟ هذه المرة كان يحدث نفسه بصوت عالٍ.

كانت خيوط الفجر الأولى قد بدأت تجد طريقها على استحياء، والظهور المنتظر لأشعة الشمس يبشر بأجواء صافية لهذا اليوم، إلا أن الطقس كان لا زال باردًا بدرجة كبيرة في ساعات الصباح الأولى. توقفت سيارة الدورية التي كانت تقل شريف أمام بوابة الفيلا، أفسح المجند الواقف على البوابة الطريق لها بالمرور، سارت السيارة في ممر مرصوف بين خطين متوازيين من الأشجار قبل أن يقوم سائقها بركتها بجانب مجموعة من السيارات، ميز منها شريف السيارة الخاصة بمعاون المباحث الجديد، فكر في أن كلهم يكونون نشطين في بداية انتقالهم قبل أن تخمد حماسهم تدريجياً بمرور الوقت كأن

الالتزام بالعمل له فترة صلاحية، عندما نزل من السيارة شاهد محمود وقد وضع سجادة صغيرة أمام سيارته وبدأ منشغلاً في أداء صلاة الفجر. نظر إلى خيوط الشمس الأولى وقال معلقاً: بالكاد ستلحق يا شيخ.

خطا إلى الداخل بشموخ، وجد نفسه في قاعة كبيرة مليئة بمختلف أنواع الأثاث والتحف التي تنم عن ذوق عالٍ، على الرغم من عشقه الدائم للنظر في حاجيات الغير وبخاصة في فيلا من الحجم الكبير مثل هذه، إلا أنه أرجأ هوايته إلى وقت لاحق عندما لاحظ أن هنالك ستة عيون تنظر إليه في ترقب، ميز اللباس الرسمي لاثنين من الرجال الثلاثة الواقفين قبالته، في حين لم يكن صعباً عليه أن يحزر أن الشخص الثالث الواقف بينهما هو زوج القتيلة، صاحب البلاغ، مسحة من الحزن الشديد وآثار دموع جافة كانت تنطق على وجهه، تقدم منهم بخطوات ثابتة وقام بالتعريف عن نفسه بصوت مفخم، الرجل الأعلى رتبة فهما كان مأمور القسم الذي يعمل فيه. في حين أن الرجل صاحب العينين الحمراوين والبدلة الكحلية يدعى سامح فهيم، زوج الضحية.

لم يكن محمود قد ذاق طعم النوم الليلة الفائتة، وصل إلى منزله بحدود الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، كانت منال لا تزال مستيقظة، قامت بتكرار ما حاولت فعله على الهاتف لتدفعه إلى إجراء حوار يمهد لمشادة كلامية، لكنه لم يكن مستعداً لخوض أي جدال، ساعة تراوحت ما بين اللين والغضب قبل أن تستسلم في

النهاية وتذهب إلى النوم ، الساعة التي تليها قضاها وهو يفكر في ما الذي كانت تريده منه بالضبط ، معنى أنه غائب ذهنيًا، وحاضر بجسده فقط دون فكره.

كان محمود من الأشخاص اللذين يهتمون بعملهم كثيرًا ، جزء من هذا الاهتمام كان عائدًا إلى طبيعة المهنة التي كان يقوم بها والتي كان يحلم بالقيام بها منذ صغره، في حين أن الجزء الآخر كان عائدًا إلى رغبته في الخروج من مظلة والده، المستشار السابق، لم يكن يرغب في الاعتقاد بأن وساطة ونفوذ والده كانا السبب الوحيد لكونه قد أصبح ذا مركز مهم في سلك الشرطة، عمل محمود طوال الوقت بجد لكي يتمكن من إزالة هذه الفكرة من أذهان من حوله، وبدأ أن لا زال عليه أن يعمل أكثر. رفضه الالتحاق بالسلك القضائي كان أمراً صادمًا لوالده، الذي كان يقوم بتهيئة ابنه الوحيد الذي بقي في البلاد بين إخوته الثلاثة ولم يسع للهجرة إلى الخارج، ليصبح قاضيًا أو وكيل نيابة، إلا أن محمود كانت له أفكار أخرى، الأب والابن كانا يسيران في طريقين متوازيين ولكنهما مختلفين عن بعضهما.

البنية العضلية الضخمة والكتفان العريضان جراء سنوات من ممارسة رياضة كمال الأجسام في الماضي منحت شريف دفعة معنوية هائلة لإثبات نفسه كشخص مسيطر بوجود المعاون الجديد الذي كان يماثله في السن والرتبة ولكن ليس في الحجم، وإن كان جسمه المائل إلى النحافة لائقًا رياضيًا بدرجة كبيرة. انتحى به جانبًا بعيدا عن المأمور وقال: لم أرسية المعمل الجنائي.

_ سيكونون هنا قريبًا جدًا، الوقت لا زال مبكرًا.

قال شريف متذمرًا: لم يكن مبكرا جدًا بالنسبة لي على ما أظن. ثم أضاف: على أية حال، كلما قل تواجدهم كلما كان أفضل، فهم لا يفعلون شيئًا سوى إعاقتنا عن العمل.

تساءل محمود وقد انعقد حاجباه: إعاقتنا عن العمل؟
_ هل رأيت الجثة؟

أوما محمود برأسه موافقًا.

قال وهو يغمز بعينه بطريقة وجدها محمود غريبة: هل هي جميلة؟

_ تعني بالنسبة إلى امرأة أم بالنسبة إلى جثة؟

الجدية في عبارة محمود الأخيرة أوقعت شريف في حيرة من أمره، فقد توقع أن يأخذ عبارته على سبيل الدعابة المهنية، لكن الضحكة التي كان ينتظرها من زميله لم تأت، ولم يبدو أنها ستأتي في أي وقت قريب. كانت جثة المرأة في الطرف الآخر من الصالة، الجزء الأكبر من جسدها باستثناء رأسها وذراعها اليمنى كانت مستلقية فوق سجادة مستطيلة صغيرة بلون العشب، كانت ترتدي بنطالا رياضياً رمادياً وسويتراً بكمام طويلة من نفس اللون في حين أن رأسها وذراعها الأيمن كانا فوق البلاط المصقول. قال شريف معلقاً حينما رآها لأول مرة: خسارة، ليست الثياب التي كنت أتوقعها.

كان مصراً على الاستمرار في النهج ذاته، لكنه مجدداً لم يسمع أي ضحكة ولو على سبيل المجاملة المهنية، عند هذه اللحظة اتخذ قراره بالتوقف عن إلقاء الدعابات أمام من لا يقدران قيمتها.

_ لا يوجد أي آثار دماء واضحة حول الضحية، قال شريف باهتمام.

_ الضحية ماتت مخنوقة، الوجه يبدو بلون أزرق بسبب النقص في الأوكسجين، بالإضافة إلى آثار الضغط الواضحة على رقبته، أترى هذا الخط الأحمر حول العنق.

_ خنق إذاً.

جثا شريف بجانب الجثة وأخذ ينظر إليها، لكنه لم يكن يفكر في أي شيء معين ليبحث عنه، عاد ليقف أدراجه.

_ لماذا تعتقد بأنهم يعيقوننا عن العمل؟

نظر شريف إلى محمود متسائلاً، ثم قال مستدرجاً: تقصد المعمل الجنائي.

_ أجل، قلت أنهم لا يفعلون أي شيء مفيد عدا إعاقتنا عن العمل، لماذا تعتقد ذلك؟

ابتسم شريف وهو يفكر في مدى سذاجة زميله الجديد الذي للغرابة كان في ما مضى نجماً في إدارة مكافحة المخدرات، قال بلهجة الخبير: ماذا تتوقع؟ يقضون وقتاً طويلاً في أخذ الصور والعينات والبصمات والحمض النووي وفي النتيجة لا نصل إلى أي مشتبه به، أعني بدمتك، من تراه قد يترك بصماته في مسرح جريمة هذه الأيام.

_ إذا أنت لا تؤمن بأهمية العلم الحديث في الكشف عن الجرائم.

أفلتت من شريف ضحكة قصيرة، ثم قال: إذا كنت تبحث عن الحقيقة، وهو - صدق أو لا - ما نسعى إليه في هذا العمل، فلماذا إذاً نقوم بتعقيد الأمور البسيطة؟

_ تعقيد الأمور البسيطة!

_ بالتأكيد، جريمة قتل، لدينا مشتبه بهم ولدينا دافع لارتكاب الجريمة، قم بوصل النقاط وستصل إلى قاتل.

ثم اقترب من محمود وقال بصوت أقرب إلى الهمس: في حالتنا هذه، فإن الأمور لا يمكن أن تكون أوضح من ذلك.

قال محمود متسائلاً: تعني أنك، آه.

لم يكمل محمود جملته، عاد لينظر إلى الجثة من جديد، في حين شعر شريف بالحيرة مرة أخرى من تصرف زميله، لم يفهم ما إذا كان محمود قد حزر ما هو بصدد قوله له لاحقاً، أم أنه فقد الاهتمام بالحديث هكذا فجأة. إلا أنه قال متابعاً: إنه الزوج.

نظر إليه محمود وقد ضاقت عيناه قليلاً، ثم قال: الزوج؟

ارتسمت على ملامح شريف ابتسامة أشبه بابتسامة القائد الذي يخرج منتصراً من معركة، لفت انتباه زميله الجديد، كان أمراً مهماً بالنسبة له. قال مؤكداً: إنه الزوج، سأخمن ما سيحدث لاحقاً، سوف تكون لديه حجة غياب قوية، لكنه بذات الوقت سوف يكون المستفيد الأكبر من موت زوجته، هنالك عشيقة سرية أو ميراث ضخمة أو بوليصة تأمين على الحياة. إنه الزوج يا صديقي، دائماً الزوج.

بركان من الغضب كان قد انفجر في داخل شريف عندما عرف أن شخصاً آخر بنفس رتبته قد انتقل إلى قسم المباحث الجنائية الذي يرأسه شريف بصفة مؤقتة في قسم شرطة قصر النيل، كان المنتظر هو شخص أقل رتبة وبالتالي أقل تهديداً وأكثر طواعية لتلقي الأوامر، خاصة عندما علم أن والد الشخص الجديد كان عضواً سابقاً في المجلس الأعلى للقضاء، هاج وماج، فشخص مثل شريف، أحد الأشخاص القلائل اللذين وصلوا إلى برائن الشرطة دون أن يكون وراءه من يدعمه، مهما جد واجتهد، فإنه سيظل الحلقة الأضعف في

السلك. مدفوعاً بالإحساس بظلم مرتقب، اندفع إلى مكتب رئيس قطاع مباحث الغرب في خطوة غير محسوبة، وأطلق العنان لمشاعره وعبر عن مخاوفه من قدوم الرائد الجديد، وأن المكان لا يتسع لكليهما، يتذكر شريف كم كان محظوظاً لأن رئيس القطاع كان يعرفه منذ خطواته الأولى في الشرطة، والذي كان بإمكانه أن يوصي بنقله إلى أقاصي البلاد جراء هذا التطاول غير المسبوق ممن هم أقل رتبة، إلا أنه بدلاً من ذلك نصحه بالهدوء والترث لحين حضور الضابط الجديد والعمل معاً، مؤكداً له أنه سوف يقف وراءه مهما حدث، وفي حال تطورت الأمور إلى الاختيار بين أحدهما، فإنه سيختاره هو، حتى وإن كان منافسه ابن النائب السابق لمحكمة النقض، هذه البلاد لم تعد كما كانت سابقاً، لقد أصبح من الممكن للمجتهد أن يحصل على حقه.

كان رجال المعمل الجنائي قد وصلوا إلى الفيلا وبدأوا في العمل، في حين توجه شريف ومحمود إلى إحدى غرف الطابق الأرضي من الفيلا والتي كانت تستخدم كمكتب خاص لسامح فهيم، جلسا على الأريكة الجلدية ذات الحجم الكبير والتي كانت تتسع لأربعة أشخاص، في حين جلس سامح على كرسي مقابل لهما مصنوع من خشب أسود ناعم الملمس، قال شريف بلهجة جافة ولا تتناسب مع الكلمات التي صدرت عنه: نعتذر عن إزعاجك في مثل هذا الوقت الحساس، نعرف أنه ليس الوقت المناسب ولكننا مضطرين لتوجيه بعض الأسئلة. أشار سامح برأسه موافقاً دون أن يتكلم.

قال شريف: جيد، طبعًا أنت الشخص الذي قام بالاتصال بالشرطة والإبلاغ عن الجريمة.

أجاب: هذا صحيح.

_ هل يمكنك أن تخبرنا بما حدث بالضبط؟ سيساعدنا كثيرًا إذا ما قمت بتذكر الأحداث بالتفصيل بما فيها المواعيد إن أمكن.

_ بالتأكيد يا سيدي، بالتأكيد.

أخذ نفسًا عميقًا، ثم قال: عدت من حفل الزفاف الذي كنت مدعواً إليه في قصر أبي ربيع في حوالي الثالثة فجرًا، فتحت الباب بمفتاحي الخاص ودخلت إلى المنزل بهدوء، توقعت أن الجميع سوف يكونون نائمين بمثل هذا الوقت.

استوقفه شريف: كم عدد الأشخاص الذين يعيشون في المنزل.

أجاب سامح مباشرة: أنا وزوجتي المرحومة، وابني الصغير في سن الرابعة. ودوري، هناك البستاني الذي يقضي حاليًا إجازته مع عائلته في الأرياف.

_ عفوًا، دوري؟

نظر إليه سامح في غير فهم، فقال شريف موضحًا: ما هذه الدوري؟

أجاب سامح: عذرًا، خادمتنا الفلبينية، اسمها دوري.

_ وأين هم الآن؟

تصدى محمود للإجابة هذه المرة: الابن لا زال نائمًا في غرفته، أما الخادمة فقد قمنا بإيقاظها وطلبت منها الذهاب إلى غرفة الطفل والبقاء فيها إلى حين استيقاظه.

قال شريف: حسنًا، تابع من فضلك.

أخذ سامح نفسًا عميقًا مرة أخرى، ثم قال: في البداية عندما دخلت إلى الفيلا، كنت أنوي الصعود مباشرة إلى غرفة النوم كي أبدل ثيابي وأخذ حمامًا سريعًا استعدادًا للنوم، لكنني عندما صعدت عدة خطوات، لاحظت أن نور المطبخ كان مضاءً، اعتقدت أن الخادمة قد نسيت أن تطفئه قبل أن تخلد إلى النوم، لذا فقد عدت أدراجي وتوجهت ناحية المطبخ، وهناك، رأيت.. أقصد رأيت سمية مستلقية هناك عند باب المطبخ.

أخذ نفسًا عميقًا، ثم قال: ظننت في البداية أنها، تعلم، في غيبوبة ربما أو مريضة، ناديت عليها عدة مرات، وحاولت إيقاظها، تعلم، كما تحاول إيقاظ شخص نائم، ربما كنت تحت تأثير الصدمة وقتها، إذ ظننت أنها قد تستيقظ إذا ما استمررت في هز جسدها، أنوار الصالة كانت مطفأة، والإضاءة القادمة من المطبخ لم تكن قوية كفاية، لكنني مع ذلك لاحظت شيئًا غريبًا في ملامحها، عندما قمت بإضاءة الصالة، تأكدت من الأمر تمامًا، حتى إنني لم أحاول أن أقوم - كما يفعلون في هذه المواقف - بقياس نبضها أو التأكد من أنفاسها، فقد كان واضحًا أنها ميتة.

_ لا بد من أن الصدمة كانت شديدة عليك، أن تجد زوجتك بهذا الشكل.

مرة أخرى جاء صوت شريف جافًا ولا يتناسب مع المقصد من عبارته الأخيرة التي كان من المفترض بها إظهار التعاطف.

قال سامح: كان واضحًا جدًا أنها ميتة، لقد كان يجب أن أشعر بذلك من اللحظة الأولى التي رأيته فيها على هذه الحال، لكن الإضاءة لم تكن كافية كما قلت لك.

_ ماذا فعلت بعد ذلك ؟

_ قمت بالاتصال بالشرطة، ثم ذهبت إلى الخارج ووقفت عند الباب ولم أتزحزح من هناك، قمت بتدخين عدة سجائر وانتظرت قدوم الشرطة.

وضع شريف يده على ذقنه متخذاً هيئة الشخص الغارق في أفكاره، فكر محمود في أن مظهره كان مبالغاً فيه بعض الشيء بالنسبة لشخص حسم أمره مسبقاً، كان أقرب إلى تمثال.

قال شريف: زوجتك كما علمنا هي الابنة الوحيدة لرجل الأعمال الراحل سليم شهاب صاحب مجموعة شركات شهاب للاستيراد والتصدير.

أجاب: هذا صحيح.

قال شريف متابعاً وهو يركز بصره على سامح مثل صقريستعد للانقضاض على فريسة متحِيناً الفرصة المناسبة: وكما نعلم أيضاً فإن زوجتك هي الوريثة الوحيدة لأملاك والديها، وبوفاتها فإن كافة هذه الأملاك تصبح من نصيبك أنت وابنكما الوحيد.

بدت عبارات شريف الأخيرة بالنسبة لسامح أسلوباً مبتدلاً للوصول إلى تلميحات غير مرغوبة، إلا أن ملامحه ونبرة صوته لم يتغيرا. قال متسائلاً: إلام تلمح يا حضرة المحقق؟

_ لا ألمح إلى شيء، أنا فقط أقوم بسرد الحقائق لأتأكد من صحتها.

لم يعقب سامح على أقوال شريف الأخيرة، إنما اكتفى بهز رأسه وانتظار ما ستؤدي إليه "الحقائق" والتي أدرك أنها سوف تتحول إلى اتهام رسمي في وقت قريب. كان واضحاً بالنسبة لمحمود مقدار الاستياء والغضب اللذين كان سامح يخفيهما في أعماقه جراء هذه

التلميحات، لم يكن يرغب في أن يعتنق طريقة شريف في التفكير، لكنه لم يجد طريقًا آخر. قال متسائلًا: لماذا لم تتفقد الصبي أولًا؟ نظر سامح إلى محمود بعدم فهم، قال الأخير معيدًا سؤاله: أعني عندما وجدت جثة زوجتك، قمت بالاتصال بالشرطة، ثم وقفت في الخارج وقمت بالانتظار، هل هذا ما حدث؟
رد سامح بصوت جاف: نعم.

قال محمود: لماذا لم تفكر في الصعود إلى غرفة ابنك؟ ألم تفكر في أنه يمكن أن يكون بخطر، أو لا قدر الله مقتولا هو الآخر؟ ارتسم الفزع على ملامح سامح كأنما لم يجل هذا بخاطره من قبل وكان بحاجة إلى كلمات محمود لتنبيهه إلى احتمالية حدوث ذلك. _ ابني بخطر؟ ظل حلقة جافا وخرجت الكلمات من فمه ضعيفة.
هل تظن أن ابني بخطر؟

قال محمود موضحًا: لا أظن ذلك على الإطلاق، ابنك بأمان، أنا فقط كنت أتساءل فيما إذا كنت قد نسيت أمره لوهلة بسيطة. بدا سامح غارقا في أفكاره، بقي الخوف ظاهرًا على وجهه على نحو غريب، ثم قال أخيرا وقد بدأت نبرة صوته في العودة تدريجيا إلى مسارها الطبيعي: يا إلهي، كيف لم يخطر لي ذلك؟ أعني أنني قد سلمت تلقائيًا بأنه في أمان، لم أفكر في أن اللص يمكن أن يتسبب بالأذى لطفل صغير.

ارتسمت على ملامح شريف ابتسامة مآكرة للحظة ثم اختفت من حيث أتت، إلا أنها عكست إلى حد كبير ما كان يفكر فيه. قال سامح في محاولة لأن يدفع تهمة الأب السيء عن نفسه، وهي التهمة التي يمكن اعتبارها أقل اهتماماته حاليًا: لكنني صعدت إلى

غرفته بعد أن وصل رجال الشرطة وتفقدته، كان مطمئنا في نومه ولم يلاحظ أي شيء.

قال محمود: لا داعي لأن تحمل نفسك أي ذنب في ذلك، أعتقد أن الأمر طبيعي تمامًا، تأثير ما بعد الصدمة سبب لك تشوشا في أفكارك. نظر شريف إلى محمود وقد تقوس حاجباه قليلا بما يشبه التكشيرة، لكنه أصر على التشبث بالفكرة. سأل: سيد سامح، على الرغم مما قاله زميلي حول تأثير الصدمة وهذه الأمور المتعلقة بعلم النفس، إلا أنني لا زلت لا أفهم لماذا بقيت واقفا في الخارج إلى حين حضور الشرطة؟

أجاب سامح: حسنا، أعتقد أنني لم أرغب في أن أتجول كثيرا بالقرب من مكان الجريمة، خوفا من إفساد الأدلة وما إلى ذلك.

أخذ شريف يهز رأسه بطريقة إيحائية تدل على عدم رضاه عن هذه الإجابة، تظاهر بالنظر إلى الكراسة الصغيرة التي كان يستخدمها لتدوين ملاحظاته لفترة قصيرة، ثم عاد ليرفع رأسه ونظر إلى سامح بثبات وهو يقول: حسنا، إذا أنت تعتقد أن شخصا ما قد قام بالدخول إلى الفيلا بغرض السرقة، وفي أثناء ذلك فوجئ بوجود زوجتك المرحومة، فقام بقتلها ولاذ بالفرار.

أجاب سامح: هذا صحيح يا سيدي.

سأل شريف: وهل تملك ما يدعم هذا الاعتقاد؟

أجاب سامح وقد بدت بعض الحماسة على صوته: عندما جاء رجال الشرطة ودخلت إلى غرفة نومنا، لم أجد صندوق المجوهرات الخاص بزوجتي، بالإضافة إلى مبلغ مالي كان موجودا في درج منضدة صغيرة بجانب السرير.

لم ينزل شريف عينه للحظة واحدة عن وجه سامح، كأنه كان يحاول أن يصل إلى أفكاره.

قال: وهل لديك فكرة عن ماهية هذه المجوهرات؟

أجاب سامح ببعض الارتياح: أكيد، معظم هذه المجوهرات قطع تم شراؤها من متاجر معروفة في مصروفي الخارج، تملك سمية إيصالات بها جميعاً، وجميع هذه الإيصالات موجودة هنا في خزانة مكتبي، يمكنني أن أقوم بإعداد قائمة بها، بالإضافة إلى أن لدي لها الكثير من الصور.

ثم أخذ يوزع أنظاره بين شريف ومحمود وهو يقول: هذا من شأنه أن يسهل من عملية القبض على المجرم، أليس كذلك؟

انتظر قليلاً، إلا أنه لم يحصل على إجابة، فقال متابعاً كلامه: أعني فيما إذا حاول بيع هذه المجوهرات في المستقبل. بدا أن سامح كان الشخص الوحيد في الغرفة الذي كان متحمساً لهذه الفكرة.

قال محمود: عفوا سيد سامح، قلت إنك تمتلك خزانة في مكتبك؟
_ بالتأكيد لدي واحدة. أشار إلى بقعة في إحدى زوايا الغرفة خلف طاولة المكتب.

قال محمود: وهل توجد لديك خزانة أخرى في الفيلا. في غرفة النوم مثلاً؟

أجاب: لا، ليست لدينا سوى هذه الخزانة.

_ هل يمكننا أن نعرف ما هو الموجود في هذه الخزانة؟

بدأ سامح يفكر في الهدف من مثل هذه الأسئلة، إلا أنه لم يصرح عما يجول في خاطره واكتفى بالإجابة: أوراق ومستندات مهمة، بعضها أوراق مالية، وبعضها سندات ملكية وأمور أخرى مثل هذه.

سأل محمود: وزوجتك، أين كانت تحتفظ بصندوق مجوهراتها في العادة؟

_ في درج صغير في خزانة ملابسها، المكان الذي سرقت منه.

قال محمود: لكن ألم يكن من الأسلم أن تقوم بالاحتفاظ بهذا الصندوق في الخزانة هنا؟ أليس هذا هو الهدف من هذه الأدوات محكمة الإغلاق، حماية المقتنيات الثمينة.

هز سامح رأسه موافقا وهو يقول: صدقني يا سيدي، لقد حاولت معها أكثر من مرة، ليس بشأن الاحتفاظ بمجوهراتها في الخزانة هنا في المكتب فقط، بل حاولت إقناعها بأن تقوم بإيداعها في أحد البنوك، أو حتى شراء خزانة معدنية خاصة بها ووضعها في غرفة النوم، لكنها كانت ترفض ذلك بشدة.

أطلق تهيدة، ثم أضاف بنبهة يشوبها الحزن: زوجتي رحمها الله كانت امرأة لا مبالية يا سيدي، كما أنها كانت متعلقة بمجوهراتها بشكل حميمي جدًا، كانت تحب أن تنظر إليها وتجرب ارتدائها كل ليلة قبل أن تنام.

شريف كان لا يزال يراقب سامح بإمعان شديد، بقي ساكنا على مقعده لعدة دقائق قبل أن يقوم بتغيير وضعية جلوسه بشكل مفاجئ ويعود لاستلام دفعة الحديث من جديد: حسنا، لنندع أمر المجوهرات جانبًا قليلا وسوف ننظر فيه لاحقًا. قال عبارته الأخيرة بشيء من الملل.

إلا أن سامح بقي متشبثا بهذه الفكرة بشدة كأنه كان يخشى عليها من الهرب، بدا أنه لم يسمع عبارة شريف الأخيرة، قام من مقعده

وقال وهو لا زال يوجه حديثه إلى محمود: ربما يمكنني أن أجهز لكم قائمة بالمجوهرات الآن.

قال شريف بنفاد صبر: سيد سامح، عد إلى مقعدك من فضلك. إلا أن سامح خطأ خطوة إضافية باتجاه طاولة المكتب وهو يقول: سأعدها الآن، خير البر عاجله، من الممكن أن يقوم اللص ببيعها سريعاً وتضيع الفرصة.

_ سيد سامح، عد إلى مكانك.

هذه المرة خرج صوت شريف عاليًا بلهجة أقرب إلى الصراخ، كان من السهل استشعار الغضب في نبذة صوته، النبذة العالية حققت النتيجة المرجوة، إذ إن الأخير أخذ ينظر إلى شريف بحالة أقرب إلى الذهول التام، جسد جامد وعينان مفتوحتان عن آخرهما وفم نصف مفتوح. تدخل محمود وهو يقوم من مكانه: سيد سامح، سننظر في أمر تلك القائمة لاحقًا.

ثم أمسك به من ذراعه وقاده إلى مقعده من جديد كمن يقود رجلاً أعمى، قال: سوف أحضر بنفسني لأخذها منك لاحقاً، هذا وعد.

عاد سامح إلى الجلوس على مقعده من جديد وهو يهز رأسه موافقاً دون أن يتكلم، بقي شريف ينظر إلى سامح، لكن هذه المرة بشيء من الاستغراب. لم يعد محمود إلى مقعده، أشار إلى شريف فتبعه الأخير إلى خارج الغرفة وهو يقول موجهاً حديثه لسامح أثناء خروجه: سأطلب من أحد أن يقوم بتحضير كوب من الشاي لك.

بقي سامح ينظر إلى شريف وهو يخطو خارجاً دون أن يتفوه بأي كلمة.

_ ربما يجب أن نكتفي بهذا القدر في الوقت الحالي.

عادت إلى شريف تكشيرته المعتادة، هذه المرة كانت تجمع بين الاستهجان والاستغراب، قال: هل تمزح معي؟
_ الرجل يبدو أنه لا يزال تحت تأثير الصدمة.

قال شريف بلهجة أقرب إلى الأمر: دعك من هذه الهراءات النفسية التي لا تقدم ولا تؤخر، هذا كله مجرد تمثيل، لا تنخدع به، لقد أصبح في قبضتنا، ولن نخرج من هذا المكان إلا وفي جعبتنا ما يكفي لتوجيه الاتهام إليه.

قال محمود وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة باهتة: لازلنا بعيدين جدًّا عن الإيقاع بأي شخص، الطبيب الشرعي لم ينته من الفحص الأولي للجنة بعد.

زادت حدة انفعال شريف، إلا أن نبرة صوته بقيت هادئة. قال: حسنا يا حضرة المعاون، إليك الحقائق، الرجل لم يصعد إلى غرفة ابنه بعد أن اكتشف مقتل زوجته، أتعلم لماذا؟ لأنه متأكد من أن ابنه بخير ولم يمسه أي سوء، رد فعل تلقائي يعكس حقيقة أن الرجل قد قتل زوجته وانتهى الخطر عند هذا الحد. إليك الحقائق الأخرى، لا يوجد أي اقتحام للفيلا، لا يوجد أي كسر أو خلع، إضافة إلى ذلك، فإن اللص لا يمتلك أي دافع لارتكاب جريمة قتل، لو كان هذا اللص موجودًا فعلا، وصل إلى غرفة النوم وتمكن من وضع يده على صندوق المجوهرات في الطابق العلوي، لماذا يتوقف لقتل صاحبة المنزل في الطابق الأرضي، كان بإمكانه أن يكتفي بضررها على رأسها وإفقادها وعيها ثم يلوذ بالفرار، لكن أن يخنقها، ألا تبدوا لك جريمة شخصية.

لاحق منه التفاتة إلى داخل الغرفة باتجاه سامح الذي بدا غارقاً في أفكاره، ثم عاد لينظر إلى محمود وهو يقول: يبقى لدينا الدافع. وهو في هذه الحالة لا يمكن أن يكون أكثر وضوحاً من ذلك.

ثم فتح ذراعيه على اتساعهما وهو يقول: الزوجة الغنية وريثة الأملاك، والزوج الذي يمر بضائقة مالية، يمكنك إجراء الحساب بسهولة.

_ اسمع، لن أجادلك في هذه النقطة. الزوج هو المشتبه به المفضل في كل الأوقات، لكن لا زلنا لا نملك كل المعلومات بعد، على الأقل حتى نتأكد من كذب ادعائه بوجود مقتحم مجهول.

قال شريف باستياء: لا تذكر لي الأدلة الشرعية والمختبر الجنائي وهذا الهراء كله. لا تتوقع أن يقوم المقتحم المجهول، إذا كان موجوداً أصلاً، بأن يتكرم بترك بصماته لنا، كل هذا هراء أكاديمي.

ثم ربت على كتف محمود وهو يقول: الواقع شيء مختلف يا زميلي، وهذه الجريمة خير دليل على كلامي، سترى بنفسك، أنت لا تزال جديداً على هذا النوع من العمل.

هز محمود رأسه، ثم قال: أتعلم؟ ربما أنت محق فعلاً.

لم يتمكن شريف من منع نفسه من رسم ابتسامة زهو عريضة وهو يقول: بالتأكيد أنا على حق.

قال محمود متابِعاً: طب شرعي ومختبرات جنائية وتحاليل وحمض نووي وألياف وأنسجة، أقسام علمية متخصصة، أبحاث ودراسات، اتهامات ومحاكمات تتغير نتائجها بناء على شعرة رأس يتم العثور عليها في مسرح الجريمة، أمر مضحك حقاً.

أخذت ابتسامة شريف في الزوال شيئاً فشيئاً حينما استشعر قدراً
ضئيلاً من السخرية في عباراته.

_ أتعلم؟ أظن أن كل هذا "الهراء" الذي يدعى بالمعمل الجنائي هو أمر
ابتدعته الحكومة حتى يتسنى لها التخفيف من حدة البطالة
باستحداث وظائف وهمية ومنحها لأبناء المتنفذين. أو ما رأيك أنت؟

شخص مودرن، لكنه بذات الوقت رجل قديم الطراز.

على الرغم من التناقض الظاهر في كلا هذين الوصفين إلا أن كليهما من الممكن أن ينطبق على الدكتور خيرى، الطبيب الشرعي لمديرية المباحث الجنائية، لكن ذلك كان يعتمد على الخلفية الثقافية والاجتماعية التي يملكها الشخص الذي ينظر إليه.

تميز الدكتور خيرى بشعر أشيب طويل يصل إلى كتفه تقريبا، وقد اعتاد على ربطه على شكل ذيل الفرس. وفي الوقت الذي كان فيه أقرانه حريصين على الظهور بالبديل الرسمية والجلوس خلف مكاتب فارهة أو الظهور أحيانا بالروب الأبيض والقفازات البلاستيكية والاكتفاء بتوجيه الإرشادات والتعليمات لطلبة الطب المستجدين، فإنه تميز بقمصانه ذات الأكمام المثنية والأزرار المفتوحة عند العنق، وبناطيل الجينز ذات الألوان الباهتة، سمات شخصية غير تقليدية لرجل شرقي تجاوز الخمسين من العمر والتي اكتسبها من الفترة الطويلة التي قضاها من حياته بولاية ميتشغان في الولايات المتحدة. الرجل ذاته الذي كان يملك سيارة قديمة الطراز بصندوق التروس اليدوي، والذي تطرب أذنه لسماع عبد الحليم وسيناترا والبيتلز في كاسيت واحد، ودأب على استعمال الغليون للتدخين عوضا عن السجائر، لكن ليس في أوقات العمل الرسمي.

_ ما الأداة التي تعتقد أن القاتل قام باستخدامها لخنقها؟

لم يجب خيرى سؤال مساعده، إنما مد يداً مغطاة بقفاز مطاطي وأخذ يتحسس الكدمة الحمراء الرفيعة التي انطبعت على عنق المرأة الميتة مثل وشم، مد أصبعين وضغط عدة ضغوطات خفيفة على الحنجرة، رفع يده وهو يقول: الاحتمالات عديدة، من حبل مطاطي إلى زوج من الجوارب ذات القطن الجيد الذي لا يتمزق بسهولة. ابتسم الرجل الذي كان جالساً القرفصاء بجانب الدكتور خيرى وهو يحاول أن يقيم فيما إذا كان خيرى جاداً أو مازحاً، قال الأخير متابعاً: لا يمكن الجزم بنوع الأداة التي استخدمها في الوقت الحالي، لكن يمكنني القول إن موتها كان بطيئاً، لقد جاهد الدماغ كثيراً في طلب الأوكسجين، لا يوجد أي كسور في منطقة العنق، لكن هذا يمنحني انطباعاً آخر عن جريمة القتل هذه.

_ حقا، وما ذلك؟

_ أن قاتلنا ليس شخصاً محترفاً، صحيح أنه قد نجح في مسعاه لكنه لم يتقن عمله تماماً.

_ تعتقد إذن يا دكتور أن القاتل شخص هاوٍ؟

أدار كل من الرجلين رأسهما باتجاه المتحدث الذي يقف خلفهما، قبل أن ترتسم ابتسامة عريضة على وجه الدكتور خيرى ذي الذقن الحليقة والتجاعيد الرفيعة، استوى واقفاً ومد يده مصافحاً: كيف حالك أيها الفتى؟ لم أرك منذ مدة، كيف والدك المستشار بعد أن تقاعد من سلك القضاء؟

_ والدي بخير، المحاماة والأحداث السياسية شغلاه بعض الشيء.

_ سمعت أنك انتقلت مؤخراً من المخدرات إلى المباحث، لكنني لم أتوقع أن نلتقي بهذه السرعة.

ابتسم محمود وهو يقول: الشكر في ذلك إلى مرتكبي الجرائم.
ضحك خيرى وهو يقول: في هذه معك حق، نظر إلى المرأة الميتة
مجددًا، سأل: أين كنا؟
قال محمود وهو يبتسم: إذا أنت تعتقد يا دكتور خيرى أن القاتل
ليس شخصًا محترفًا.

_ صحيح. ثم تابع حديثه وهو يرفع سبابته اليمنى في وجه محمود،
عادة اكتسبها من خلال عمله في التدريس الجامعي: إنها مجرد
تخمينات ليس إلا، أعتقد أن القاتل لم يصب المناطق الصحيحة مع
أنه كان متمكنًا من الضحية تمامًا، أغلب الظن أنه باغتها من
الخلف، أو ربما أنه أفقدها الوعي، لا أجد أية آثار دماء واضحة،
حسنًا.

ثم عاد ليجلس القرفصاء قبالة الجثة، وكذلك فعل محمود في حين
انشغل رجل من المعمل الجنائي بتفحص بقايا بقع بنية وزجاج
مكسور على مقربة من مكان الجثة.

قام خيرى بوضع يده تحت رأس الضحية وأخذ يتحسس مؤخرة
رأسها، ثم قام برفع رأسها إلى الأعلى قليلاً واضطر إلى أن ينخفض
بجذعه لأكبر قدر ممكن، قال: ها هي، كما توقعت، لقد تلقت ضربة
من الخلف، لا توجد أية كسور، لكنها ضربة كافية لأن تفقدها وعيها
أو على الأقل تضعف مقاومتها بدرجة كبيرة، يوجد جرح خلف رأسها
ولكن من دون نزيف.

_ ماذا عن وقت الوفاة؟

نظر الدكتور خيرى إلى ساعته بصورة تلقائية، ثم قال: لنقل مبدئيًا
في وقت ما ما بين الواحدة والثانية فجرًا.

ثم عاد ليستوي واقفا وهو يقول موجها نظره إلى محمود: لديك جريمة لا زالت طازجة هنا ويستحسن أن تأكلها قبل أن تبرد.

ثم استغرق في الضحك، اكتفى محمود بالابتسام وهو يفكر في حكاية هذه الدعابات الغريبة، ربما لأنه كان لا يزال جديداً على المكان.

اقترب أحد رجال المعمل الجنائي من الدكتور خيرى ومحمود، انحى بجانب الجثة وأخرج أداة من حقيبته، في حين اقترب شخص آخر وبدأ بالتقاط بعض الصور.

قال خيرى: أعتقد أن عملي هنا قد انتهى الآن، لكن سيكون هنالك المزيد عندما نضعها على طاولة المشرحة.

ثم نظر إلى ساعة يده وهو يقول: ممتاز، لدي الوقت الكافي للعودة إلى المنزل وتناول إفطار متأخر مع هيلينا.

قال محمود وهو يبتسم: مدام هيلين امرأة محظوظة فعلا، فزوجها العجوز يمتلك لياقة بدنية جيدة ويستطيع أن يكون حاضراً لمشاركتها طعام الإفطار أيضاً.

ضحك خيرى ثم قال معلقا وهو لا زال يضحك: أنت محق في ذلك عدا حقيقة أنني رجل عجوز جداً.

ثم اختفت الضحكة فجأة تماما كما ظهرت، ومد يده مصافحاً محمود وهو يقول: أرجو أن تنقل تحياتي إلى والدك.

رفع الرجل المنحني ليتفحص الجثة رأسه إلى الأعلى وقال بصوت عالٍ: أين صبحي؟

جاءه الرد من أحد الأشخاص الذين كانوا يجلسون على الأريكة الموجودة في الصالة. فقال الرجل متابعا: تعال إلى هنا بسرعة وأحضر أدواتك، على ما يبدو أنك لن تنصرف من هنا دون أي عمل.

تنهت حواس خيرى عند سماعه العبارة الأخيرة، ثم نظر إلى الجثة من جديد وهو يقول بصوت منخفض: أمر مثير.

قال محمود الذي أصابه الفضول هو الآخر: ماذا هناك؟ قال خيرى وهو يقترب من الجثة مرة أخرى: صبحي خير الدم. يبدو أنني قد أغفلت شيئاً ما.

ثم عاد ليجلس القرفصاء ويقوم بإخراج زوج آخر من القفازات البلاستيكية من حقيبته، في حين كان صبحي يتبادل حديثاً سريعاً مع الرجل الذي قام بمناداته قبل قليل، ثم اقترب هو الآخر من الجثة وبدأ بتجهيز أدواته.

مد شريف يده ليمسك بكف يد الضحية، وأخذ يتفحص أصابعها واحداً تلو الآخر، قام بتقليب كفها عدة مرات، ثم فعل ذات الشيء باليد الأخرى، دقائق قليلة قبل أن يقوم بالوقوف مجدداً وهو يقول مداعباً صبحي الذي كان مستعداً لبدء العمل: يجب أن تكون سعيداً يا صبحي، فمجيئك لن يكون بلا فائدة.

قال صبحي وقد بدا على وجهه استياء حقيقي: هذا يعني أننا سنقوم بفحص الفيلا كلها بحثاً عن آثار دماء أخرى، عملنا هنا سيطول وأنا لا زلت على لحم بطني.

قال أحد زملائه بصوت عالٍ من الطرف الآخر من الصالة: الله يصبرك يا عم صبحي، سوف نبحث لك عن طعام في المطبخ لا تقلق. تبعته عدة قهقهات عالية.

أنهى خيرى ضحكته، خلع قفازه، ثم التفت إلى محمود الذي كان يراقب بصمت وقال: هنالك بقعة دماء على موقعين في كف الضحية اليمنى، لقد فاتني رؤيتهما في المرة الأولى لأنني افترضت أن الضحية لم

يتسَنّ لها مقاومة الجاني، لكن على ما يبدو أن الضحية قد تمكنت من المقاومة رغم كل شيء، ستكون ضربة موفقة بالنسبة لكم إذا ما تبين أن الضحية قد تمكنت من إحداث أية جروح بالشخص الذي هاجمها.

قال محمود متسائلا: أليس من المحتمل أن تكون هذه دماء الضحية، ربما سبق وأن جرحت نفسها.

قال خيرى بلهجة واثقة: لا توجد أية آثار جروح على يدها، هذه الدماء بالتأكيد مصدرها شخص آخر.

ثم التفت إلى صبحي الذي أصبح منهمكا في عمله وهو يقول: على أية حال فإن صبحي هنا سوف يؤكد لنا فيما إذا كانت هذه الدماء تعود إلى الضحية أم إلى شخص آخر.

رفع صبحي إبهامه إلى الأعلى للحظة للتأكيد على اتفاقه مع خيرى ثم عاد لينشغل في عمله، فكر محمود، قال لنفسه: ليس قاتلا محترفا، كما قلت، بالتأكيد سيخلف وراءه أثرا.

وربت خيرى على كتفه وهو يقول: أهنئك على هذه الإثارة في قضيتك الأولى.

لم يستطع خيرى أن يميز بالتحديد ذلك التعبير الغريب الذي ارتسم على ملامح محمود، بدا كمن يراقب شخصا يقطع الشارع في حين أن هنالك سيارة مسرعة على الطرف الآخر فأصبح يخشى حدوث شيء سيء ويتوقع حدوثه في ذات الوقت، التفت خيرى إلى الاتجاه الذي كان ينظر إليه محمود، على بعد عدة أمتار منهما ومن الجثة المسجاة على الأرض، حيث مطلع الدرج الواسع المؤدي إلى الغرف الموجودة في

الطابق الثاني، على الدرجة الثالثة وقف طفل صغير كان طوله بالكاد يتعدى حاجز السلالم المعدني ذي اللون الذهبي ببوصة أو اثنتين. كان الصبي يقف ساكنا دون حراك، وقد وضع يده اليسرى على أعلى الحاجز في حين بقيت يده اليمنى إلى جانبه، يرتدي بيجاما من القطن الناعم بلون أزرق فاتح وعليها رسومات عديدة لشخصيات كرتونية مختلفة، بينما عيناه تحدقان إلى الأسفل، إلى حيث كانت والدته مستلقية بلا حراك وبالقرب منها رجلان يقوم أحدهما بالإمساك بإحدى يديها وينظر إليها عن قرب والآخر يقوم بتفحص شيء ما على الأرضية بجانب رأسها، كان يتابع ما يدور في سكون تام دون أن يتحرك له جفن، كأنما عقله الصغير كان يحاول استيعاب المشهد بإيجاد تفسيرات تناسب تفكيره.

كان محمود أول من قام برد فعل، سار بخطوات سريعة أقرب إلى الهرولة متجاوزا الأم الراقدة ومن حولها باتجاه الطفل الذي بدا مثل كائن قدم للتو من كوكب آخر، أمسكه من يده وأخذ يصعد معه إلى الأعلى، لم يبذ الطفل أي اعتراض يذكر إذ بدا معتادا على وجود أيد تقفاده باستمرار، رفع رأسه إلى الأعلى وقال متسائلا في براءة وهو مستمر بالصعود: هل أمي لا زالت مريضة؟

قال محمود دون أن ينظر إليه: نعم يا صغيري، أمك مريضة جدًا. _ لكن لماذا لا تستيقظ؟ كيف تنام وهي مريضة؟ أنا لا أستطيع النوم عندما أمرض.

كانا قد وصلنا إلى الطابق الثاني، وقفنا في الممر قليلا.

سأل محمود: اسمك هاني، أليس كذلك؟

هز الطفل رأسه موافقا.

_ أين هي غرفتك يا هاني؟

كانت كفه اليسرى لا تزال ممسكة بيد محمود، في حين أشار بيده اليمنى إلى الاتجاه الذي تقع فيه غرفته وهو يقول: هناك، في آخر الممر.

سارا بخطوات بطيئة في الاتجاه الذي أشار إليه الفتى الذي كرر سؤاله بإلحاح أكثر هذه المرة: لم تجبني، لماذا لا تستيقظ ماما؟ عندما لم يلق إجابة هذه المرة أخذ يقاوم السير ويحاول أن يتفلسف من يد محمود الذي اضطر إلى أن يشد قبضته أكثر، فحاول الطفل المقاومة أكثر.

قال محمود وهو يحاول منعه من الإفلات: لا تثر المشاكل يا هاني، والدك سوف يكون غاضبًا منك جدًا إذا فعلت.

قال الفتى بصوت أقرب إلى الصراخ: أنت لا تريد أن تخبرني، لا تريد أن تخبرني. كان صياحه قد بدأ يجتذب الأنظار من الأسفل.

لم يكن محمود يكره الصغار، لكن حركاتهم غير المتوقعة كانت تسبب الاستفزاز، قال محاولا استرضاءه: إذا هدأت وكففت عن المشاغبة سوف أجيب عن جميع أسئلتك. هل أنت موافق؟

نظر إليه الطفل في تمعن، وبدا كأنه يفكر في هذا العرض. قال محمود مبادرا: وسأحضر لك شيئا لذيذا لتأكله.

اتسعت عينا الفتى وهو يقول: آيس كريم.

أجاب محمود: آيس كريم يا عم، كما ترغب.

ابتسم الفتى قبل أن يقول بصوت طفولي عالٍ: موافق.

أفلت محمود يده، لم يحاول الطفل الذهاب إلى أي مكان هذه المرة، قال مكررا سؤاله: لماذا لا تستيقظ أمي؟

فكر محمود قليلا في إجابة مناسبة تخرجه من هذا الوضع، مرة أخرى فكر في أنه ليس الشخص المناسب ليتعامل مع الأطفال، فقد آمن دائما بأن والده لم يكن يحسن التعامل معه أو مع أي من إخوته الثلاثة الذين يعيشون في الخارج، كما آمن بأنه لم يكن يحسن التعامل مع أبنائه، ولا حتى يجيد النظر إلى عيني ابنته الصغيرة. إلا أنه كان مضطرا لذلك هذه المرة.

قال: حسنا يا هاني باشا، أنت فتى كبير، وأظن أنك ستفهم ما سأقوله لك.

هز الصغير رأسه موافقا بمرح.

_ عندما كانت والدتك تسير في المطبخ بالأمس، كانت الأرضية زلقة، وكان المكان معتمًا لأن الدنيا كانت ليلاً، لذلك تعثرت والدتك وسقطت على الأرض، السقطة جاءت على رأسها فدخلت في غيبوبة. كان الفتى ينظر إليه بتركيز كبير، لاحظ محمود للمرة الأولى أن الفتى قد ورث الكثير من ملامح والدته المتوفاة. كان يعلم أن عمله لا مكان فيه للعاطفة، إلا أنه شعر بالأسى الشديد لهذا الصغير.

قال الفتى متسائلاً أخيراً: ماذا يعني غيبوبة؟

أخذ محمود يتابع ببصره أمين الشرطة حسن الذي كان يصعد السلالم بخطوات مسرعة، قال مجيباً: الغيبوبة نوع من أنواع المرض، يحدث للإنسان عندما يسقط على رأسه، فيذهب في النوم لوقت طويل دون أن يستيقظ.

بدت ملامح الاهتمام الشديد على وجه الفتى الصغير.

_ إذاً أمي الآن نائمة في الغيبوبة، كيف سوف نوقظها من النوم؟

حسن تخطى السلالم بالكامل ثم استدار باتجاه اليسار، كان محمود قادراً على رؤية ملابسه الرسمية وهي تصبح أكبر شيئاً فشيئاً فوق جسده الضخم البنيان، وأصبحت تمتماته مفهومة كلما اقترب أكثر.

_ أنا آسف يا محمود باشا، الفتى أزعجك؟

أجاب محمود بجديّة: يجب أن تكون حذراً أكثر يا حسن، هذا مسرح جريمة قتل وليست حضانة أطفال.

عاد حسن ليتمتم بكلمات الاعتذار بلهجة سريعة، ثم قال بغضب: لقد اعتمدت عليها الخادمة بنت الكلب.

ثم مد يده ليمسك بيد سامي الذي شعر بالخوف من مظهر هذا العملاق ذي البشرة السمراء الداكنة والشوارب الكثيفة، ابتعد عنه واقترب من محمود أكثر حتى التصق به. قال العملاق محاولاً استرضاءه: لا تخف يا بني، أنا عمك حسن.

نبرة صوته المصطنعة كانت توحى بالسخافة، لم تفلح في دفع الصغير إلى الثقة به والتخلي عن موقفه الدفاعي، في حين قال محمود بلهجة أمرة: اذهب وأحضر الخادمة لتعيده إلى غرفته.

_ حالا يا باشا.

ثم أسرع قاطعاً الأمتار القليلة الفاصلة بينه وبين غرفة الطفل التي تقع في آخر الممر، وقام بفتح باب الغرفة دون أن يطرق. كانت الخادمة نائمة على سرير الطفل فأخذ يهزها بعنف.

_ ماذا لو أحضرت كوباً كبيراً من الماء البارد وسكبته على وجه أمي، هل تستيقظ؟

التفت محمود إلى الفتى الصغير من جديد، ثم قال بلهجة بدت صادقة جداً: لا أعرف، ربما.

عاد الفتى الصغير ليسأل من جديد: كل هؤلاء الأطباء سوف يتمكنون من إيقاظها إذا سكب عليها كل واحد منهم كوب ماء بارد. نبرة الرجاء والأمل التي في صوت الفتى أيقظت مجددًا مشاعر الأسي بداخل محمود، رغب في أن يقول له شيئًا، أي شيء، لكن ذهنه لم يكن حاضرًا، ما الذي يمكن قوله لطفل في الرابعة من العمر وقد شاهد جثة والدته للتو وسط جمع من الغرباء؟

_ ربما يتمكن بابا من إيقاظها عندما يعود من العمل.

التفت محمود إلى الخلف حيث شاهد حسن وهو يخرج من غرفة الفتى وبجانبه فتاة صغيرة الحجم، بالكاد يصل طولها إلى كتف الرجل الطويل الذي يسير بجانبها، ذات ملامح آسيوية جامدة ودون أي مسحة من الجمال باستثناء شعر أسود ناعم.

_ إن بابا قادر على إيقاظها، سوف أبحث عن هاتف ماما وأتصل به ليحضر ويقوم بإيقاظها.....

اختلطت الأصوات جميعها في ذهن محمود، كان الفتى لا يزال يتحدث معه باحثًا عن انتباهه الذي تشتت، في حين كانت دوري تتمم بكلمات غير مفهومة بلغة عربية ركيكة، وحسن يرد عليها غاضبًا وهو يتهمها بالإهمال والتقصير في مراقبة الصغير، كلاهما كان يبدي غضبه لكن دون أن يفهم أي منهما ما يتفوه الطرف الآخر، الفتى راقب الجدال الدائر أمامه لبرهة قصيرة ثم تجاهله وعاد ليحاول التحدث إلى محمود، تحولت دوري إلى اللهجة المحلية لبلدها الأصلي، أخذت تتمم بكلمات كثيرة دون انقطاع وهي تسير بخطوات سريعة نحو الفتى، على الرغم من جسمها الصغير وقصر قامتها إلا أنها تمكنت من حمله وأدارت ظهرها لمحمود لتعود بالفتى إلى غرفته.

_ انتظري.

سارت دوري خطوتين إلى الأمام، ما دفع محمود إلى الصراخ لإيقافها:
توقفي مكانك.

أخذ حسن يدير وجهه ما بين محمود وبين الخادمة القصيرة التي
توقفت والتفتت إلى محمود بفرع لكنه لم يعرها أي انتباه، اقترب من
الفتى الصغير الذي كان أكثر اطمئنانا.

_ تقول إن والدك حاول إيقاظ ماما؟

لم يتكلم الصغير، اكتفى بهز رأسه موافقًا.

شعرت دوري بالارتياح حينما اكتشفت أن رجل الشرطة لم يكن
ينوي بها شرا، أنزلت الفتى ليقف على قدميه وتراجعت إلى الخلف
قليلا. جلس محمود القرفصاء حتى أصبح طوله بمستوى طول قامة
الصغير، ثم وجه سؤاله بصوت حاول أن يجعله متعاطفًا وودودًا
قدر الإمكان، لكن الصغير كان على استعداد للإجابة على أية أسئلة.

أمضى سامح يومه في الإجابة على العديد من الأسئلة، شعر أن كثيرًا منها لم يكن يمت إلى التحقيق بصلة، في ساعات الصباح الأولى يجد نفسه أمام عرض للشرطي الطيب والشرطي الشرير، ثم يتركهما الشرطي الطيب ويبقى عالقا لفترة مع الشرطي الشرير، ثم لاحقًا يجد نفسه أمام رجل ببدلة وربطة عنق يعرف على نفسه بصفته وكيلًا للنياحة ويقوم بسؤاله عدة أسئلة معظمها كان تكررًا لما كان قد سبق وأجاب به، ثم ترك لشأنه لبعض الوقت اطمأن فيه على ابنه الصغير وودعه قبل أن يرسله إلى منزل عمته، ليجد نفسه مرة أخرى أمام الشرطي الشرير وحده، إلا أنه هذه المرة بدا أنه قد تجاوز صدمة البدايات ليصبح أكثر هدوءًا واتزانًا وقد استعاد رباطة جأشه بالكامل، وهو الشيء الذي كان بمثابة الخبر السيء للشرطي الشرير الذي يجلس قبالته والذي كان يعتمد بدرجة كبيرة على انهياره، لكنه مع ذلك لم يكن قادرًا على إخفاء بعض تعبيرات الغضب والاستياء من اعتباره المتهم الأول في هذه الجريمة، لم يوجه إليه أي اتهام رسمي بعد، إلا أن تلميحات الرجل الذي يحقق معه كانت تزداد وضوحًا وصراحة مع كل سؤال كان يطرحه عليه وبكل استجابة له تتبع ذلك.

إلا أنه كان مضطربًا لأن يرضى بنصيبه من الكعكة وإن على مضض، فالضحية كانت زوجته، وهو أول شخص رآها ميتة، وعلى الأغلب أنه آخر من رآها حية، كما أن الشرطة لن تعدم حيلة لإيجاد العديد من

الدوافع المحتملة التي قد تجعل منه المتهم المثالي، نتيجة تناسب مع كسلهم وتقاعسهم الطبيعي عن بذل مزيد من الجهد لاكتشاف الفاعل الحقيقي.

عاد شريف لينظر إلى مفكرته مرة أخرى، دقائق أخرى إضافية مضت في لا شيء، كانت الغرفة هادئة لا يسمع فيها أي صوت باستثناء حفيف أوراق المفكرة وهي تقلب بيد المحقق، وصوت المروحة الصغيرة رديئة الصنع التي كانت موضوعة على طاولة المكتب التي يجلس خلفها المحقق، والتي كانت تصدر صريرا في كل مرة تصل فيها إلى أقصى التفافة لها لإحدى الجانبين، صوتها المزعج كان يتفوق بمراحل على قدرتها في صنع تيار هواء بارد، وصريرها المزعج كان مثيرا للأعصاب. إلا أن سامح كان موقنا بأن هذا الأمر كان متعمداً، ففي الوقت الذي تطورت فيه أجهزة التكييف وزادت فيه حصة الأجهزة الأمنية من موازنة الدولة، فإن وجود مثل هذه الخردة المزعجة كان أمرا مقصوداً حتماً، كل ما عليه فعله هو أن يبقى ثابتاً، حاول أن يتذكر مواقف مماثلة مرت عليه في ماضيه ليستعين بها على مواجهة ما هو قادم، كان يؤمن بأن الخبرة والتجارب السابقة هي أفضل معلم للإنسان، عليه فقط أن يجري المقاربة الصحيحة.

لكن الوضع لم يكن مماثلاً في الغرفة المجاورة التي تجلس بها شقيقته في هذه اللحظة بوضعية مماثلة، قبالة طاولة مكتب يجلس خلفها ضابط مباحث، والتي كانت محظوظة للغاية ليكون الشرطي الطيب هو نصيبها من هذه الكعكة. لطالما كانت شقيقته تحظى بالأشياء الجيدة منذ الصغر. حتى حبة الكريز التي في الكعكة الحقيقية كانت من نصيبها دائماً، كانت نهلة قادرة على كسب ود

والديهما بذرف المزيد من الدموع، لكنه لم يكن يبالي، فكل انتصار كانت شقيقته تحققه بالدموع والرجاء، كان يجعل منه شخصاً أكثر فطنة وحذراً وحرصاً على أن يسبقها بخطوة قبل أن تستخدم سلاحها الفتاك. سارا الأمر معه على أحسن وجه ممكن.

عودة سامح لذكريات قديمة دفعت به إلى الابتسام بصورة تلقائية، ابتسامة أثارت حفيظة شريف بعض الشيء، تمكن من كتمان غيظه بصعوبة.

_ سيد سامح، نحن مضطرون إلى العودة إلى الخلف قليلاً، من المهم جداً أن تحاول تذكر التفاصيل بدقة قدر الإمكان، أعلم أنك سبق وأن أجبت على العديد من الأسئلة، وأن الكثير من الأسئلة قد أجبت عليها مرتين وثلاث، لكنني أرجو أن تكون صبوراً أكثر، فالموقف الذي أنت فيه ليس سهلاً على الإطلاق.

أطلق سامح تهيدة دون أن يتكلم، كرر شريف وهو ينظر إليه: على الإطلاق.

_ أنا تحت أمرك يا حضرة الضابط.

_ جميل جداً، حسناً، قلت لي إنك وصلت إلى الفيلا قادماً من الشركة التي تعمل مديراً عاماً لها في حوالي الساعة السادسة والنصف، وقمها كانت زوجتك خارج المنزل، اجتماع أو لقاء مع رفيقات لها في النادي كما قلت.

أخذ شريف ينظر في مفكرته، قال سامح: نعم، زوجتي تشارك في العديد من النشاطات الاجتماعية المهمة ال.....

قاطعته شريف بطريقة أجبرته على السكوت دون أن ينظر إليه: سنعود إلى أمر نشاطات المرحومة لاحقاً. ثم أخذ يقلب في أوراق المفكرة.

_ حسناً، لنرّ، زوجتك عادت من الخارج في الساعة الثامنة تقريباً، وسنفترض أنها منذ عودتها وإلى حين وقت وفاتها لم تغادر الفيلا. قلب صفحة جديدة ونظر إلى محتوياتها، ثم عاد إلى الصفحة السابقة.

_ حضرتك غادرت الفيلا في التاسعة والنصف ليلاً، حيث توجهت إلى حفل الزفاف الذي كنت مدعوًا إليه، في منزل رجل الأعمال فهمي بيك أبو ربيع، وصلت إلى هناك في العاشرة إلا خمس دقائق، و..... آه. هز شريف رأسه عدة هزات غير مفهومة المعنى، ثم قال بصوت منخفض أكثر من المعتاد وهو لا زال ينظر إلى عيني سامح: هل من المعتاد أن تقوم مديرة مكتبك بمرافقتك إلى الحفلات عوضاً عن زوجتك، أعني اعذرنى، ولكنني أجد هذا الأمر غريباً بعض الشيء. أجاب سامح بنبرة هادئة: نادين لم ترافقني إلى هناك، لقد أتت لوحدها، هي أيضاً كانت مدعوة إلى الحفل بصفة شخصية.

رفع شريف حاجبيه بشكل مبالغ فيه وهو يقول باستغراب: السكرتيرة مدعوة إلى الحفل وزوجتك غير مدعوة.

أجاب سامح بسرعة: كانت مدعوة طبعاً، إلا أن زوجتي لا تميل لمثل هذا النوع من الحفلات، كما أنها لا تحب حضور حفل زفاف ما لم يكن شخصاً قريباً منا، وهي منذ أن تركت العمل لم تعد مهتمة كثيراً بتنمية علاقات اجتماعية.

قال سامح: غريبة، حفل زفاف يدعى إليه كبار القوم في مصر، وأي شخص يملك الفرصة لن يتوانى عن حضوره، ومع ذلك فإن زوجتك غير مهتمة.

هز سامح كتفيه دون أن يرد. قال: لقد كانت تشعر بوعكة صحية على أي حال ولم تكن ستحضر الحفل حتى لو كانت ترغب بذلك، لقد كانت تهتم براحتها أكثر من أي شيء آخر.

قاطعته شريف مجددًا قبل أن يندفع في إسهابه أكثر: ولماذا تركت زوجتك إدارة الشركة على الرغم من أنها على الورق المالكة الأولى لها؟

تشديد شريف المبالغ فيه على لفظه للحروف في آخر الجملة أثار انتباه سامح، لقد كانت التلميحات ذاتها، لماذا لا تتكلم بصراحة وننتهي من الأمر؟ قال مجيبًا: لا أحد يعلم، فقد قررت ببساطة ترك العمل في الشركة والتفرغ للحياة.

_ التفرغ للحياة؟

تابع سامح بنفس اللهجة والنبرة الهادئة: هكذا كانت تقول، لقد شعرت أنها قد أضاعت من وقتها الكثير في العمل، وأن الوقت قد حان لكي تقوم بأمور تحبها وتستهوئها بدلًا من الاستمرار في القيام بأمور تعتقد أنها مجبرة على القيام بها.

عاد شريف ليهز رأسه من جديد، هزات متتالية منحت الانطباع هذه المرة بأنه غير مقتنع بما يقوله سامح وبأنه يرغب في أن يظهر ذلك عمدًا، إلا أن الأخير بقي محافظًا على وتيرته الهادئة في الحديث مقاومًا الانطباعات السلبية التي يظهرها شريف ومقاطعته المستفزة للحديث وصرير المروحة المزعج.

على الرغم من أن زوجتك كانت تعاني من وعكة صحية، لكن مع ذلك بقيت في الحفل حتى انتهى ولم تفكر في العودة إلى المنزل في وقت أبكر.

قال سامح: لقد اتصلت بها عدة مرات للاطمئنان على صحتها. قال شريف: وعندما لم تجب مكالمتك في المرة الأخيرة، ألم يدفعك هذا إلى الاشتباه بوجود شيء خاطئ؟

_ أبدأ، فقد ظننت أنها نامت، هي في العادة تنام مبكرًا.

_ إذا أنتما بقيتما جالسين معًا طوال فترة الحفل.

نظر إليه سامح في تساؤل، قال: أعني نادين، السكرتيرة، ألم تذكرها بصفتها حجة غياب لك؟

أجاب سامح، دون أن يبدو أنه قد أدرك أي مما يفكر فيه المحقق: لا، لكننا كنا نلتقي بين الفينة والأخرى، عند طاولة تقديم المشروبات أو أثناء تقديم الطعام.

_ آها.

خرجت الكلمة من شريف بطيئة وبنبرة ممدودة توحى بتوصله إلى اكتشاف شيء على درجة كبيرة من الأهمية، وإن كان في حقيقة الأمر لم يكن قد توصل إلى أي شيء.

_ أرجو أن تعذرني على ارتباكي الشديد، فالموقف جد صعب، في بيتي طفل صغير فقد والدته للتو وهو لا زال لا يعلم شيئاً عن ذلك، وأنا غير قادرة على إبعاد الأمر عن تفكيري.

_ لا بأس مدام نهلة، خذي كامل وقتك.

كان شكلها قد اتخذ مظهرًا مختلفًا تمامًا عما كان عليه هذا الصباح حينما حضرت إلى الفيلا لأخذ الفتى الصغير، فقد اختفى غطاء الرأس ذو الألوان الزاهية وتم استبداله بغطاء رأس واسع بلون الأسود، شأنه شأن الجاكيت مكمم الأزرار والتنورة الطويلة، في حين أن مساحيق التجميل التي كانت تزين وجهها في الصباح قد اختفت تمامًا، بدا أن عمرها قد ازداد سنوات. مسحت آخردمعة نزلت من عينها وهي تردد: الفتى المسكين.

بقي محمود صامتا بانتظار أن تستعيد المرأة هدوءها، عادت لتقدم اعتذاراتها من جديد.

_ أنا يا سيدي قد رزقت بأربع فتيات مثل الملائكة، لكن لم يكتب لي أن أرزق بأي أولاد، وهذا الصغير المسكين هو ابن أخي الوحيد، يمكنك أن تقدر حزني الشديد على ما سيؤول إليه مصير الصغير، إنه أمر فظيع، فظيع.

كانت قبضتها تشد على المنديل الحريري الذي في يدها، قال محمود بلهجة يغلب عليها التعاطف: بالتأكيد إن الموقف صعب، نحن مقدرين جدًا للظرف الذي تمررون به حقا، لكن من المهم جدًا للتحقيق أن نقوم بجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات حتى نتمكن من الإحاطة بالظروف والكشف عن ملابسات الحادثة، لذا فإنني أرجو أن تكوني صبورة بعض الشيء وسوف نرسلك إلى منزلك قريبًا. هزت نهلة رأسها موافقة، ثم قالت: لا بأس يا سيدي، شكرا جزيلًا لك.

_ إذا بقيت في الحفل لغاية الساعة الثانية والنصف تقريباً.

_ صحيح.

_ ووصلت إلى المنزل ما بعد الساعة الثالثة بقليل.

_ صحيح أيضاً.

أغلق شريف المفكرة التي أمامه بحركة عصبية مفتعلة، ثم وجه ذات النظرة الحادة التي اعتاد عليها سامح خلال الساعة الماضية.

_ هل شاهدك أحدًا وأنت تخرج من الحفل؟

أطرق سامح مفكراً للحظات، ثم قال: بالتأكيد، رجال الأمن عند بوابة القصر، ومجموعة أخرى منهم عند المدخل.

قام شريف بفتح مفكرته من جديد، أمسك بالقلم في وضعية الاستعداد للكتابة وهو يقول: هل لك أن تعطيني أسماءهم في حال رغبنا بالتأكد من أقوالك.

نظر إليه سامح في استغراب، انتظر شريف عدة لحظات وهو ممسك بالقلم، وعندما لم يسمع أي إجابة رفع رأسه من جديد ونظر إلى سامح وهو يقول: لماذا لم تجب عن السؤال؟ نحن بحاجة إلى أسمائهم حتى نتثبت من صحة أقوالك، هذا بالتأكيد سوف يكون في صالحك مستقبلاً.

لم يتمكن سامح من المعرفة على وجه اليقين فيما إذا كان ذلك المحقق الذي أمامه يسخر منه أو يتكلم بجدية، بدا بعض الارتباك عليه وهو يجيب: لكنني لا أعرف أسماءهم، ربما لن أتذكرهم إذا رأيتهم مرة أخرى.

ارتسمت على ملامح شريف ابتسامة خبيثة لم يفكر في إخفاءها، أصابه شعور داخلي بالرضا، إلا أنه قام بفتح مفكرته من جديد

وتظاهر بأنه يبحث بين صفحاتها عن شيء ما، لكن هذه الدقائق القصيرة التي كان الغرض منها إثارة أعصاب سامح لم تعد بالنتائج التي كان يرجوها المحقق.

للحظة كان الحق قد بلغ بسامح حد التفكير في القيام من مكانه ومغادرة المكان دون أن ينظروا، ومن ثم الاتصال بأحد كبار رجالات البلد للتدخل وإيقاف هذا الشرطي التافه عند حده، أو إعلان الحرب بقيادة جيش من المحامين، إلا أنه سرعان ما استعاد السيطرة من جديد. ولم يفلح الصرير المزعج في إبقائه متوترًا.

_ أستطيع أن أعطيك أسماء بعض الأشخاص الآخرين الذين قابلتهم في الحفل.

_ سوف نصل إلى ذلك حالا، لكن هناك أمر آخر أرغب في السؤال عنه.

انتظر سامح دون أن يتكلم، في حين رفع شريف رأسه عن المفكرة وسأل: ماذا عن السكرتيرة؟ ألم تغادر معك؟

أجاب سامح: لا، لقد غادرت قبل مغادرتي بدقائق تقريبًا.

_ وهل رأيتها أنت وهي تغادر؟

فكر قليلا ثم قال: لا، لم أرها.

رفع شريف حاجبيه بشكل مبالغ به، طريقة أخرى يستخدمها لدى أعصاب "خصومه"، لكن حضور الملامح الجامدة لخصمه والتي لا يعرف ما تخفي وراءها والنبرة الهادئة الواثقة أثارت حفيظته من جديد. وجه نظرة حادة إلى سامح، إلا أنه بدلا من أن ينفجر غضبًا فإنه قرب وجهه أكثر باتجاه سامح أكثر وقال: هل يمكنك أن تحدثني

عن حفل الزفاف بالتفصيل؟ يمكنك أن تأخذ وقتك بالكامل، فنحن لسنا على عجلة من أمرنا على الإطلاق.

_ سامح لا يمكن أن يقتل، لطالما كان رجلاً هادئاً ومنضبطاً، وشخصاً عبقرياً، يعشق السفر والاستكشاف، هل تعلم أنه كان الأول على دفعته في كلية الهندسة في جامعة لويزيانا؟ كان بإمكانه أن يبقى في أميركا ويحقق الكثير هناك ولكنه أثار العودة إلى مصر.

توقفت عن الكلام عندما التقت عيناها بعيني محمود، ثم قالت متدركة: عذراً يا سيدي، يبدو أنني أسهبت في الحديث.

قال محمود: لا عليك، من المهم لي أن أفهم شخصية شقيقك وطبيعة العلاقة التي كانت تجمعهم مع المرحومة.

تهتت نهلة، كان مندليها قد عاد جافاً، قالت متسائلة: هل تظنون حقاً أن سامح قد فعلها؟

_ للأسف يا مدام نهلة، حتى لو كان سامح بعيداً عن الشبهات، كممثل لتنفيذ قانون يجب عليّ أن أخذ جميع الاعتبارات في الحسبان.

قالت نهلة وقد بدا الانفعال على وجهها وإن انعكس بدرجة أقل على صوتها: لكن ماذا عن اللص الذي قام باقتحام الفيلا وسرقة المجوهرات؟ يجب أن تتأكدوا من هذه النقطة على الأقل.....

قال محمود مقاطعاً قبل أن تتجمع مجموعة أخرى من الدموع في عينيها: مدام نهلة، يستحسن أن تهدئي قليلاً، إن كان سامح محقاً في أقواله فيجب أن تكوني على ثقة من أننا سوف نتوصل إلى التأكد

من صحة ذلك، لكننا في هذه المرحلة لا نصدق أو نكذب أي شيء،
إنما نجمع المعلومات ونقوم ببحث جميع الاحتمالات.

هزت نهلة رأسها موافقة، ثم مدت يدها إلى كوب الماء الموجود على
الطاولة الصغيرة الموجودة أمام كرسيها وأخذت منه رشفة كبيرة قبل
أن تعيده إلى مكانه على الطاولة، أخذت نفسًا عميقًا ثم قالت:
حسنًا، كنت قد سألتني عن العلاقة التي كانت بين شقيقي وزوجته
المرحومة، لقد كانت علاقتهما عادية جدًّا، مثل أي زوجين، لقد
اعتدنا على تبادل الزيارة، كما حرصنا على إقامة الاجتماعات
العائلية بين الفينة والأخرى، وكانا دائمًا يبدوان بمظهر الزوجين
السعيدين، كما كانا دائمًا يحرصان على السفر معًا.

سأل محمود: يبدو لي أنهما تأخرا في الإنجاب.

_ صحیح یا سیدی، لقد رزقا بهاني بعد سبع سنوات كاملة من
زواجهما، لقد كان هذا الصغير بمثابة الهدية التي رزقا بها نتيجة
صبرهما وتمسكهما ببعضهما. انسالت دمعة على خدها وهي تقول: لا
أذكر أننا سبق لنا أن فرحنا بمولود في العائلة قدر فرحتنا به.

لم يكن من الصعب على محمود أن يدرك أنها تحمل للصبي مشاعر
خاصة، قال: أمر جميل، لكن طوال هذه السنوات السبع، ألم تثر
بينهما أية خلافات حول مسألة الإنجاب؟

قالت نهلة بأسلوب دفاعي: عدم الإنجاب يا سیدی لا يعني بالضرورة
أن يثير الخلاف بين الأزواج، إنها مشيئة الله ويجب أن نرضى بقضائه.
قال محمود باستغراب ظاهر: من العسير عليّ أن أصدق أنهما لم
يتجادلا حول هذا الأمر أو يفكر أحدهما بالانفصال عن الآخر.

أجابت نهلة بعد لحظات من الصمت: ربما تجادلا حول هذا الامر مرة أو اثنتين، لقد كانت سمية ترغب في الإنجاب، وسامح كان يحاول تأجيل الأمر، لكنها كلها كانت خلافات عادية، لكن الأمر انتهى بحضور هاني إلى الدنيا.

_ لَمَ كان يحاول تأجيل الأمر؟

_ بسبب عقدة كانت لديه منذ صغره، حصلت له حادثة حينما كان يقود دراجة للمرة الأولى بغفلة عن والدينا، بقي من وقتها يكره أن يكون والدًا مسؤولًا، لكنها كانت لا شيء، لقد اكتشف خطأ فكرته منذ اللحظة الأولى التي جاءه فيها هاني.

_ ماذا عن عمله في شركة زوجته؟ لقد علمنا أنه يشغل منصب المدير العام للشركة بعد وفاة حميه وقرار زوجته بالتقاعد المبكر.

_ لطالما كان سامح العقل المدبر للشركة، لقد كسب ثقة المرحوم والد سمية خلال فترة قصيرة، وبعد وفاته تولت سمية إدارة شؤون الشركة، لكن سامح كان المحرك الأساسي لها، على الرغم من أنه واجه بعض المقاومة من جانب هيثم.

_ تقصدين هيثم شهاب، ابن عم المرحومة؟

_ هو بعينه، كان شخصًا مقربًا من عمه إلى حد أنه كان يرغب في تزويجه من سمية، لكن العلاقة الأخوية التي جمعت بينهما حالت دون ذلك، هيثم كان يعتقد على الدوام أنه الأجدر بمنصب مساعد المدير العام من سامح، لكن حينما قررت سمية ترك العمل، كان هذا حلا عادلا لجميع الأطراف، تولى سامح إدارة الشركة، وتولى هيثم منصب مساعد المدير.

إن الرقم الذي طلبته مغلق حاليًا.....

أعاد شريف سماعة الهاتف إلى مكانها وهو يقول: لسوء الحظ، رقم الهاتف الجوال لسكربتيرتك لا زال مغلقًا، وهي الشخص الوحيد على ما يبدو الذي بإمكانه أن يؤكد صحة أقوالك فيما يتعلق بمواعيد دخولك وخروجك من القصر، أما البقية فيبدو لي أنك لم تبقَ برفقتهم سوى دقائق محدودة ولا علم لهم بتحركاتك.

قال سامح، وقد رسم هذه المرة ابتسامة صغيرة على وجهه: هل أنا متهم بشكل رسمي يا حضرة المعاون.

أجاب شريف وهو يبادل ابتسامته بابتسامة باهتة: بالتأكيد لا، نحن فقط نتقصى الحقائق، أو في حالتنا هذه نتبادل أطراف الحديث، لكن يا سيد سامح، وأرجو أن تعذرني في هذا، حتى لو تم توجيه تهمة رسمية، فنحن لنا كل العذر في ذلك.

قال سامح دون أن يحاول إخفاء امتعاضه هذه المرة: حتى مع حقيقة أن هنالك شخصًا مجهولًا اقتحم منزلي وقام بقتل زوجتي وسرقة مجوهراتها، وحقيقة أنني أمتلك حجة غياب قوية.

سكت شريف قليلاً كأنما كان يفكر في ما يرغب في أن يقوله تاليًا، أزاح المفكرة جانبا وشبك ذراعيه على طاولة المكتب، ثم قال بنبرة محايدة يستخدمها للمرة الأولى هذا اليوم: حسنًا يا سيد سامح، قد تعتقد أنني شخص سيء، لكنني في الحقيقة أؤدي واجبي لا أكثر، وأنا كرجل ممثل للقانون مضطر إلى أن أزبح العواطف جانبا وأتعامل مع ما يستجد أمامي من حقائق وأدلة، أنا أقدر الموقف الذي أنت فيه وحنزك الشديد على وفاة زوجتك ولكنني من جهة أخرى ملزم بالبحث عن مرتكب الجريمة.

_ لم أفهم بعد ما الذي ترمي إليه حضرة الضابط.

أخذ شريف نفسًا عميقًا كمن يستعد إلى القاء خطبة أو يتقمص دورا في مشهد مسرحي ثم قال متابعًا: أمامي امرأة مقتولة، واحتمالان، أن يكون شخص ما قد اقتحم الفيلا كما تدعي، سرق المجوهرات وقام بالجريمة، بدون أي شهود على هذه الواقعة عدا أقوالك طبعًا، أما مسألة اقتحام الفيلا من الناحية المادية فإننا مضطرين إلى تأجيل البت فيها إلى حين صدور تقرير المعمل الجنائي الذي من شأنه أن يوضح لنا صحة ذلك من عدمه، فنحن لا نعلم بعد إذا كان ذلك الكسر في زجاج نافذة القبو قد تم حديثًا بفعل فاعل أو هو كسر قديم، بالإضافة إلى العديد من البصمات وعينات الحمض النووي التي بحاجة إلى معاينات وتحاليل وحكاية قد تطول.

ثم نظر فجأة إلى عيني سامح مباشرة وهو يقول: صحيح، نسيت أن أخبرك كذلك بأننا تمكنا من الحصول على عينة من دماء مجهولة بين أظافر يد الضحية، وبمناسبة الحديث عن هذا، أظن أنك سوف تسمح لنا بأخذ عينة من لعابك ودمك، أنت تعلم، لأجل فحص ال DNA وأشياء من هذا القبيل، فحص روتيني يعني.

وجه سامح ظل جامدًا دون أن يبدي أية انفعالات غير محسوبة باستثناء التركيز الشديد فيما يدور أمامه. تابع شريف كلامه وهو يعود بظهره العريض إلى الوراء ليربحه على المقعد: الاحتمال الثاني أن يكون الزوج هو القاتل.

ثم رفع سبابته إلى الأعلى وهو يقول: هذا لا يعني أنني أوجه إليك أية اتهامات بعد، فقط أفكر بصوت عال.

ثم عاد ليشبك يديه على الطاولة من جديد ويتابع حديثه: للسير في هذا الاتجاه من التفكير فإننا يجب أن نبحث في الدوافع التي قد تؤدي بالزوج إلى ارتكاب مثل هذه الجريمة، وهذا قد يأخذ وقتاً أيضاً في التقصي واستجواب الشهود والبحث في الأمور المالية والكشف ربما عن بعض الأسرار الخاصة، والتي أتمنى لمصلحتك ألا يكون هنالك الكثير منها، وإن كان الوقت أقصر بكثير من الوقت الذي يلزم انتظاره للحصول على تقارير المعمل الجنائي. لكن الأمر الذي اختصر الكثير من الوقت والذي يعد بمثابة الضربة الموفقة، هي أن لدينا شاهد على وقوع الجريمة.

التغيير الوحيد الذي طرأ على سامح في هذه اللحظة هو أن عينيه ضاقتا قليلاً، وبدا كأنه يحاول استيعاب ما سمعه للتو، ثم قال مؤكداً أن عقله لم يتمكن من تحليل العبارة الأخيرة: عذراً، لكنني لم أفهم، ماذا تعني بأن هنالك شاهد على وقوع الجريمة؟ تقصد أن هنالك شخصاً شاهد الجريمة وهي ترتكب؟

هز سامح رأسه موافقاً عدة مرات وهو يبتسم، ثم قال مؤكداً: بالتأكيد، هنالك شخص قد شاهد ما حدث وقت ارتكاب الجريمة. ثم قام من مقعده وانحنى برأسه قليلاً مستنداً بكلتا كفيه على الطاولة وهو يقول بصوت تميز بحدة أكثر من المعتاد: ابنك يا سيد سامح، فلذة كبذك شاهدك وأنت تقوم بقتل زوجتك.

ظل فم سامح مفتوحاً لعدة ثوان وهو يحرق في شريف، بدا أنه يعمل جاهداً على استيعاب الأمر، قال أخيراً: ابني شاهدي أقوم بالجريمة؟ هل هذه مزحة من نوع ما.

امتقع وجه شريف على حين غرة وقال بصوت أكثر حدة من أي وقت مضى منذ بدء التحقيق: وهل تظن أننا أحضرناك إلى هنا لكي نقوم بإلقاء الدعابات معك؟

قال سامح وقد خانه الهدوء والثقة اللذان تسلح بهما بعض الشيء: ماذا تريدني أن أعتقد وأنت تقول أن ابني ذا الأعوام الأربعة هو شاهدكم المزعوم؟

انقلب صوت شريف من الحدة إلى الهدوء دون أن يتغير لون وجهه، قال: حسنا، قد يكون كلامك فيه شيء من الصحة ولكن، كما تعلم، أول الغيث قطرة.

ثم قام بالضغط على زر موجود في جهاز أبيض صغير على جانب طاولة المكتب، وعاد ليجلس في مقعده من جديد، مرتاحًا إلى النتيجة التي توصل إليها حتى الآن، لحظات قصيرة قبل أن يقوم أحد مجندي الشرطة بفتح باب الغرفة والوقوف منتصبًا بانتظار الأوامر. في حين قال شريف موجها حديثه إلى سامح: سيد سامح، للأسف نحن مضطرون إلى استضافتك لدينا لعدة أيام.

ردة فعل سامح لم تكن ردة الفعل التي توقعها شريف، فقد قابله بابتسامة وهو يقوم واقفًا استعدادًا للمغادرة مع المجند، قال: شكرا يا حضرة الضابط على وقتك.

قال شريف متسائلا: ما الذي يدفعك إلى الابتسام هكذا؟

أجاب سامح: أبداً يا حضرة الضابط، فقد كنت أتوقع أن توجه إلي أصابع الاتهام منذ اللحظة الأولى التي رأيتني فيها، وها هو ظني لم يخب.

قال سامح لهجة تحمل طابع السخرية: حسنا، ماذا يمكنك أن تقول؟ نحن لا نحب أن نخيب ظن أحد بنا.

خرج سامح من الغرفة بمرافقة المجند، بينما أراح شريف جسده إلى الخلف واضعاً كفيه خلف رأسه وهو يتنفس بارتياح، علامات الرضا الشديد ارتسمت على ملامحه، ثم قال لنفسه بصوت عالٍ: أنا شخص أجيّد عملي حقاً.

كانت نهلة تقف مستندة إلى الحائط، نظراتها موجهة إلى الأرض وهي سارحة في أفكارها، رفعت رأسها بسرعة عندما رأت أخاها يسير في الممر بجانب رجل في زي رسمي، اقتربت منه وهي تهتف باسمه. _ سيكون كل شيء بخير، لا تقلقي.

خرجت عبارته بمنتهى الهدوء والسكينة إلى الدرجة التي أثارت دهشتها من قدرته على الاحتفاظ برباطة جأش يحسد عليها في مثل هذا الموقف الصعب. لكن هذا لم يخفف كثيراً من انفعالاتها، قالت: لا تقلق، سوف أقوم بالاتصال بالأستاذ نجاتي المحامي.

لكن سامح كان مهتماً بأمراً آخر مختلف، قال بصوت عالٍ على الرغم من أن شقيقته كانت تقف بالقرب منه: أخبري هاني أنني سافرت في رحلة عمل إلى الخارج، لا تحضره إلى هنا أبداً، والأهم ألا تذكره أمامه أي شيء عن الذي حدث، لا أريد أن يشعر بالاضطراب، فهو لا يزال في سن صغيرة جداً.

_ يا إلهي، سامح، بدأت دموع نهلة تسيل على خديها بغزارة وهي تراقب شقيقها يختفي خلف الجدران دون أن تكون لديها فكرة إلى متى سيبقى هناك.

الساعة قد قاربت على منتصف الليل، إلا أن المقهى كان لا زال يعج برواده، فالليلة كانت ربيعية هادئة حملت معها نسائم منعشة قل ظهورها في مثل هذا الوقت من السنة، لذلك فقد بدا اقتراح معترز باختيار طاولة على التراس الخارجي اختيارا موفقا لقضاء سهرة خفيفة، خاصة بعد أن رفض شريف عرضه بالذهاب لقضاء السهرة في أحد الكباريات الصاخبة التي اعتاد معترز على الذهاب إليها بحجة أنه يجب أن يستيقظ مبكراً في الصباح التالي لانشغاله بالعمل على جريمة القتل التي وقعت في الليلة الماضية، ويحتاج إلى البقاء في كامل تركيزه.

أخذ معترز شفة طويلة المدى من أنبوب النارجيلة التي بجانبه وهو ينتظر انتهاء شريف من سرد تفاصيل الجريمة التي يحقق بها، قبل أن يتوقف عن الحديث أخيراً ويشغل فمه المرهق من كثرة الحديث في سحب دخان نارجيلته التي كانت لا تزال بكراً.

أخرج معترز الدخان من حلقه في بطء ثم قال أخيراً وهو يراقب فتاتين سارتا من أمامهما إلى أن اختفتا عند ناصية الشارع: هل تعتقد أن النيابة سوف تعتمد على شهادة طفل في الرابعة من عمره لتوجيه اتهام يصل إلى درجة القتل مع سبق الإصرار والترصد؟

نفخ شريف دخانه سريعاً ثم قال: أنا أعرف أن شهادة القاصر في هذه الحال يؤخذ بها على سبيل الاستئناس فقط، لكنها شهادة مدعمة بالعديد من القرائن.

شرد معتز بفكره قليلا، ثم قال: ربما. أخذ نفسا آخر، ثم قال: لكن شهادة الصغير فيها شيء غير مقنع، كيف تسنى له التعرف على والده مع أن الأنوار كانت مطفأة. تمنح شريف معبرا عن اعتراضه، ثم نفخ الدخان من جوفه بسرعة وهو يقول: أنوار المطبخ كانت مضاءة. ولو، ليس كافيًا.

أخذ كلاهما دقيقة انشغلا فيها بسحب الدخان ونفثه، ثم عاد شريف ليتابع بإصرار: لقد كانت الضحية خارجة من المطبخ عندما هاجمها القاتل، أنوار المطبخ كانت منعكسة على البقعة التي وقعت فيها الجريمة إلى الحد الكافي لأن يتعرف الفتى على والده. _ أمر آخر لا زلت لا أفهمه.

ثم وضع أنبوب النارجيلة جانبا ليستخدم كلتا يديه في عمل إشارات متوافقة مع حديثه: الزوج يقوم بخنق زوجته، وهو بحسب شهادة الصغير كان يرتدي ملابس سوداء بالكامل، وعندما ينتهي من جريمته يسمع نداءات الفتى عليه، فينظر إلى الأعلى للحظات، ثم يفر هاربًا إلى قبو المنزل ويخرج من النافذة الصغيرة، أعني لماذا يفعل ذلك؟ لماذا يفر من القبو؟ لا أجد منطقتًا في هذا الأمر.

قال شريف: ربما كان هذا هو الحل الوحيد الذي وجده مناسبًا عندما اكتشف أن الفتى يشاهده، أراد أن يوحي للجميع أن الفتى قد أخطأ في رؤيته لوالده وأن القاتل هو شخص آخر، يقوم بالخروج من نافذة القبو موحيا بأن اللص المزعوم قد دخل وفر من هناك.

ثم عاد ليسحب نفسًا جديدًا من نارجيلته، قال: محاولة تمويه يائسة، الطب الشرعي وجد بقعة دماء صغيرة بين أظافر الضحية، غالبًا

ناتجة عن مقاومة الضحية أثناء ارتكاب الجريمة، على الأغلب أنها توصلت إلى إحداث خدش بقائلها، خدش بسيط للغاية كانت نتيجته بقعة دماء صغيرة وأثرا كافيًا للحصول على عينة من الحمض النووي، إنه واقع لا محالة.

قال معتز وقد عاد للإمساك بخرطومه الملقى على الطاولة: أنا أقول فقط، إذا كانت هذه الأثار سوف تدل عليه، فإنه لن يكون بالذكاء الذي تصفه به، بل مجرد غبي آخر.

استعاد شريف بذاكرته الحديث الذي دار بينه وبين سامح قبل ساعات، قال: لا، على العكس، الرجل ليس سهلا على الإطلاق، لقد حاولت استفزازه ودفعه إلى الغضب حتى يخطئ، لكنه بقي ثابتا كصخرة.

انشغل كلاهما في أفكاره ونارجيلته، مرمين أمامهما شاب يرتدي شورتا قصيرا يقود خلفه كلبًا مكسواً بالفرو، أراد شريف أن يعلق على المشهد، سبقه معتز بمتابعة الحديث من النقطة التي انقطع عندها: ماذا عن حجة الغياب التي يملكها؟ لقد كان منشغلا في حفل أبي ربيع منذ الساعة التاسعة والنصف حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل.

هز شريف كتفيه في لامبالاة، ثم قال: إنه السلاح الوحيد الذي يملكه الزوج، ولا أظن أنه سوف يحسن استخدامه، سوف أقوم بالحديث مع كل شخص تحدث معه الزوج في ذلك الحفل، ابتداءً بسكرتيرته "الأمورة".

قال معتز ساخرًا: لا أظن أنك تعتقد أنه قد يكون ساذجًا إلى درجة أن يكذب بشأن مكان وجوده.

_ لا يا صديقي، الأمر ليس كذلك.

ثم اعتدل في جلسته وقال متابعًا: الفيلا التي حصلت فيها الجريمة تبعد عن فيلا أبي ربيع بما يقارب عشرة إلى خمسة عشر كيلومترًا، بالأحوال العادية فإن الإنسان يمكن أن يقطع في سيارة متوسطة السرعة هذه المسافة في ربع ساعة، عشرين دقيقة مع احتساب المنحنيات والمطبات والإشارات الضوئية المحتملة. قاطعه معتزم من بين الدخان الصاعد من فوهة فمه: ساعة ونصف باحتساب الأزمات المرورية.

قال شريف متابعًا دون أن يقتطع أي وقت للضحك على الدعابة الأخيرة: لن تكون الشوارع مزدحمة عند منتصف الليل، ربما الكباري ولكن ليس بقية الشوارع، الزوج لديه الفرصة لأن يغادر الحفل والعودة إلى الفيلا وارتكاب الجريمة ومن ثم العودة مرة أخرى إلى الحفل في أقل من ساعة، وربما دون أن يشعر أحد بأنه غادر من الأساس.

_ لكنك قلت إن سكرتيرته كانت موجودة معه في الحفل.

_ ليس طوال الوقت، إنه حفل زفاف يحضره المئات، لن ينتبه أحد إلى غياب شخص واحد.

قام شريف بإخراج هاتفه الجوال من جيبه وقام بالعبث في أزراره لبعض الوقت وهو يقول: لقد قمت بالتحري عنها عن طريق الفيس بوك. اسمها نادين فرح، مدير مكتب المدير العام لشركات شهاب الدولية للاستيراد والتصدير.

ثم قام بوضع شاشة هاتفه في مواجهة معتز الذي أخذ يصفر عاليًا وهو ينظر إلى الفتاة الموجودة في الصورة، في حين عاد شريف إلى

العبث بأزرار الهاتف لإغلاق الموقع وهو يقول: صدقني، هذا هو ذات الانطباع الذي ارتسم على وجهي عندما رأيت صورتها.
 _ فعلا إنك محظوظ لعين، تلعب مع الأثرياء والحسناوات وأنا غارق في مستنقع من حثالة المجتمع.

هز رأسه مرتين بجذل، ثم عاد إلى عباب نارجيلته من جديد، قال شريف مستأنفا فكرته الأساسية: للإيقاع به وبجحة غيابه فإنني سأفكر بطريقة مختلفة. سوف أسأل نفس الأسئلة ولكنني سأحاول إثبات أشياء مختلفة.

أخذ معتز عدة لحظات قبل أن يسأل: كيف ذلك؟

قال شريف: في الوقت الذي سيبدو فيه أنني أبحث عن الفترة التي قضاهما الزوج في الحفل، فإنني في الحقيقة سوف أبحث عن الفترة التي غاب فيها الزوج عن الحفل، لن أبحث عن الوقت الذي شوهد فيه، وإنما عن الوقت الذي لم يشاهد فيه.

بدا معتز كأنه يفكر فيما يقوله شريف في حين أنه كان يفكر في أمور أخرى، هز كتفيه في النهاية ورفع صوته عاليًا لينادي على عامل المقهى الذي يدور بين طاولات الزبائن ليقوم بتغيير الجمرات القديمة واستبدالها بجمرات أكثر توهجًا حفاظًا على نضارة الأنفاس. أما شريف فقد نحى نارجيلته جانبًا، ثم اتكأ برأسه إلى الخلف وهو يقول لنفسه: حفل يمتد لما يقارب الأربع ساعات، لقد كان بإمكانه الذهاب لأخذ جولة سباحة في الإسكندرية والعودة من جديد قبل أن ينتهي الحفل.

بدا معتز أكثر يقظة وتركيزًا فجأة، قال متسائلا: ماذا عن الخادمة؟

أجاب شريف دون أن يغير من وضعية جلوسه: بحسب أقوالها، على الأقل ما فهمناه منها، فقد كانت نائمة منذ الساعة الحادية عشرة إلى أن قامت الشرطة بإيقاظها، ولم تشعر بأي شيء.
قال معتز وعيناه مفتوحتان على اتساعهما: وحارس الفيلا في إجازة زواج.

ثم بقي ساكنا لعدة ثوان، ردد فيها عبارة "توقيت مثالي" لعدة مرات، قبل أن يعود لينشغل في سحب الحياة من نارجيلته.

شعرت بوجود حركة في المطبخ، نظرت إلى ساعة الهاتف، كان الوقت قد تعدى منتصف الليل بقليل، لم تكن قد غفت لأكثر من نصف ساعة فقط، تضاءت مرتين ثم قامت من السرير الذي كان فارغاً إلا منها، وسارت بخطوات ثقيلة متخطية غرفتي الأولاد باتجاهها إلى المطبخ، اتكأت على الباب وعقدت يديها على صدرها وهي تراقبه، كان قد وضع ما أبقت له من طعام الغداء بداخل المايكرويف ووقف يراقبه بانتظار انتهاء التوقيت الرقمي، إلا أنه بدا شاردًا، حتى بعد أن أعلن المايكرويف انتهاءه من عملية التسخين إلا أنه لم يلق للأمر بالا.
عند هذا الحد تدخلت، قامت بفتح باب المايكرويف وإخراج الطبق منه، تنبه إلى وجودها لأول مرة منذ حضورها، فأفسح لها المجال لتقوم بإعداد الطبق له ثم جلس إلى طاولة المطبخ الكبيرة التي يجتمعون عليها عادة لتناول الطعام، قامت بوضع الطعام فوق الصينية وأحضرتها ووضعها على الطاولة أمامه، ثم جلست على كرسي مقابل له.

سادت لحظات أخرى من الصمت قبل أن تقول أخيراً: خرجت مبكراً جداً هذا الصباح.

أجاب دون أن يرفع عينيه عن الطبق: قبل الفجر بقليل، لقد حاولت الاتصال بك لكن هاتفك كان غير متاح في الوقت الذي اتصلت به، ثم ارسلت إليك رسالة.

قالت: أجل، لقد قرأت رسالتك، حاولت الاتصال بك أنا أيضاً لكنك لم تجب.

_ أعتذر، لقد انشغلت قليلاً.

ثم قال مستدرغاً: جريمة قتل في الزمالك.

قالت باهتمام: جريمة قتل!

قال وهو لا يزال على وضعيته ذاتها: إنها القضية المهمة الأولى التي أشارك فيها منذ انتقلت إلى المباحث، كان يجب أن أكون في الموعد. ارتسمت على ثغرها ابتسامة واهنة وهي تقول: سوف تبلي بلاء حسنا، أنا متأكدة من ذلك.

لم يجب، إنما اكتفى بإيماءة من رأسه وهو يواظب على العمل الذي يقوم به، أشعرها تجاهله بالقليل من الاستفزاز لكنها قامت بكبته بداخلها فوراً، لم تكن تسعى إلى إثارة شجار جديد. قالت في محاولة لفتح موضوع آخر: الأولاد مشتاقون لك، لقد مضى يومان دون أن يروك، الفتيان احتجا كثيراً بسبب غيابك في يوم العطلة، لقد ذهبنا إلى صلاة الجمعة وحدهما، هل تصدق ذلك؟ طفلانا أصبحا رجلين يمكن الاعتماد عليهما.

قالت عبارتها الأخيرة وهي تضحك بود، ثم قالت متابعة: والصغيرة سألت عنك كثيراً، لقد ظلت تردد كلمة بابا.. بابا طوال النهار.

ثم اختفت ضحكتها فجأة، وأخذت تنظر إليه بعينين ساهمتين، لكنه لم يرفع رأسه ولو للحظة واحدة. قالت: أتعلم؟ أنت تؤدي جيدا مع الولدين، لكنني أحيانا أشعر أنك تتجاهل الصغيرة في أوقات كثيرة. توقفت يده الممسكة بالمعلقة في منتصف الطريق، أراد أن يقول شيئا، إلا أنه امتنع في اللحظة الأخيرة، عاد إلى تناول طعامه في هدوء.

أخذت منال تعبت بغطاء المائدة قليلا وهي تفكر في ما ستقوله لاحقا، تعلم أنها إذا قامت بإغضابه لن يثور أو تنفجر براكينه، لكنه سوف يصبح منغلقا على نفسه أكثر مثل قوقعة صلبة، وهو الأمر الذي كان يغيظها أكثر من أي انفجار، قالت أخيرا بنبرة فيها الكثير من الرقة: بالنسبة إلى ما حدث بالأمس، لم أقصد أن أثور بهذا الشكل.

قال: لا بأس، حدث ما حدث وانتهى الأمر.

يعلم أنها لن تعتذر، لم يسمعها تعتذر من قبل ولن يسمعها الآن، ولن يهتم بسماعها شفويا، محاولتها لاسترضائه كانت أبلغ من أي اعتذار. قالت متابعة: أنا فقط أريدك أن تفتح لي قلبك، أن تعبر لي عما يحدث في داخلك، لا أطيق أن أراك تتألم.

نظر إليها في دهشة صادقة: أنا أتألم؟ لماذا تعتقدين ذلك؟

بدت علامات الاستغراب التي أظهرها حقيقية مما زاد من حيرتها أكثر، ظلت تنظر إليه دون أن تجيب.

مضت لحظات أخرى من الصمت أنهى فيها طعامه، أزاح الطبق بعيدا وهو يقول: الحمد لله.

قامت من مقعدها بسرعة وهي تقول: سأعد لك كوبا من الشاي. مد يده ليمسك بذراعها بلطف.

_ لا داعي للشاي، أنا متعب، سأذهب إلى النوم.

ثم وقف وهو يقول: لكن قبل ذلك، ما رأيك أن أخبرك عن القضية
التي أقوم بالتحقيق فيها؟
نظرت إليه وهي تبتسم.
_ ليس هذا هو الكلام الذي كنت أنتظره، لكنني سأرحب به.

أوقف هيثم شهاب سيارة المرسيدس ذات الطلاء الكحلي الجذاب أمام الباب الرئيسي للشركة، هرول رجل يرتدي قميصًا بلون أزرق فاتح وبنطال كاكي باتجاه السيارة ووقف بمحاذاة باب السائق، انتظر خروج هيثم حتى يقوم بركوب السيارة وقيادتها إلى الساحة الخلفية لمبنى الشركة وركنها في الموقف المخصص للمدير الإداري ونائب المدير العام لمجموعة شركات شهاب. بقي واقفاً في مكانه بقامة ممشوقة ويدين ممدودتين، تلك الوقفة التي اكتسبها من خدمته العسكرية التي أنهاها قبل فترة ليست بالطويلة.

ظل الرجل واقفاً لدقيقة كاملة، وتبعها دقيقة أخرى، لكن هيثم لم يخرج من سيارته.

قرب الرجل رأسه من زجاج السيارة ذي التعتيم الغامق وحاول أن يسترق النظر إلى الداخل، إلا أنه لم يتمكن من رؤية أي شيء، عندها تأرجحت أفكاره ما بين محاولة الطرق على باب السيارة أو حتى فتح الباب، أو الانتظار إلى أن يفتح الباب من الداخل أو يقضي الله أمراً كان مفعولاً. ولأن الخيار الأول كان من الممكن أن يؤدي به إلى عواقب وخيمة، فقد أثار السلامة واختار الانتظار.

داخل السيارة، كان هيثم منشغلاً بتأمل أدق تفاصيل وجهه في المرأة الأمامية، فتح عينه اليمنى على اتساعها ونظر، ثم أعاد الكرة مع العين اليسرى. كلتا حدقتيه كانتا مخضبتان باللون الأحمر المشعر حول بؤبؤين رماديين لامعين، وهالات سوداء خفيفة تحت

الجفنين، في حين كشف وجهه عن ذقن نابطة بعمر يومين، على الرغم من أنه اعتاد على حلاقة ذقنه بشكل شبه يومي، إلا أن شعيرات وجهه الخشنة منحته مظهرًا جذابًا، وبدت متناسقة مع وجهه النحيل ذي الفكين العريضين نسبيًا والبشرة ذات اللون القمحي الفاتح.

كان هيثم في بدايات عقده الرابع، يمتلك جسمًا نحيفًا وذوقًا جيدًا في اختيار الملابس، لذا فإنه على الرغم من افتقاده للطول الفارع والأكتاف العريضة، إلا أن ما كان يمتلكه عدا ذلك منحه الأفضلية ليكون هدفًا ثمينًا للعديد من الفتيات، إذا لم يكن ذلك لوسامته ومظهره المعتنى به، فلحقيقة كونه سليل عائلة ثرية ويشغل منصب نائب المدير العام لإحدى أكبر شركات الاستيراد والتصدير في البلاد. إلا أن الحقيقة التي كان قلة من الناس يعرفونها هي أن هيثم لم يكن يملك أي شيء من حصص الشركة.

كان والد هيثم فتى بذخًا ومستهترا، وحتى عندما تزوج وأنجب ثلاث فتيات وتلاههما ابن واحد، أضحى رجلا بالغًا مستهترا، لم يتغير الكثير، بقي يقدم المتعة على العمل، بعد وفاة جد هيثم آلت ملكية الشركة إلى ابنيه الوحيدين، إلا أن الابن الأصغر منهما قام ببيع كافة أملاكه التي ورثها بما فيها كامل حصته في الشركة إلى شقيقه الأكبر، دخل بعدها في عملية إنفاق بلا حدود.

توفي والد هيثم عندما كان في السابعة عشرة من عمره على في حادث تحطم بعد أن كان يحاول فيه الوصول بسيارته لأعلى سرعة ممكنة على الطريق السريع، تاركًا لزوجته وبناته الثلاث وابنه سيارة مهشمة كان سعرها يبلغ مئات الآلاف قبل الحادث، وثروة صغيرة

لم يسعفه الوقت للقضاء عليها والعديد من الصور التذكارية. ما تركه والد هيثم كان كافيًا لإشباع بطونهم وذكرياتهم، إلا أنه لم يكن كافيًا لإشباع طموحهم، وبالذات ولده الأصغر وفتى العائلة الوحيد. بعد وفاة والده، أثر هيثم على نفسه السلامة والتمرد على إرث والده الهزيل مرتميًا في أحضان عمه.

لم يكن هيثم موفقًا في الظفر بقلب ابنة عمه، الوريثة الوحيدة لأملك والدها بعد وفاة شقيقها الأصغر بمرض نادر وهو في سني شبابه الأولى، كانت المحاولة منذ بدايتها مكتوبًا لها الفشل، ابنة عمه كانت أكبر منه بسنوات، بالإضافة إلى الأجواء الأسرية الأخوية، صدها له أصاب مخطئه في استعادة ثروة والده بالفشل، إلا أنه حظي بثقة عمه للمشاركة في إدارة العمل وحظي بمنصب مرموق في الشركة التي كان والده واحدًا من ملاكها في يوم من الأيام، ومنذ ذلك اليوم وهو يقترب بخطوات بطيئة للغاية.

توفي عمه الذي أصابه المرض بعد وفاة ابنه، وبعدها بسنوات يحالفه الحظ مرة أخرى بدفعه خطوة إلى الأمام عندما قررت سمية ابنه عمه ترك منصبها في الشركة لزوجها والتفرغ للحياة، حينها علق ساخرًا بأن هذه المرأة قد ورثت جينات والده، في حين ورث هو جينات والدها، وأنه ربما كان من الأجدر بهما تبادل الآباء. لكنه لم يتمكن من إخفاء سعادته، فهذا القرار دفعه خطوة أخرى إلى الأمام ليحل محل سامح بمنصب نائب مدير الشركة مع احتفاظه بمنصبه الأصلي كمدير إداري للشركة، في حين تحول سامح ليصبح المدير العام والرجل الأول في الشركة.

والآن، مع مقتل سمية وتوقيف سامح، لقد أصبح الحلم أقرب ما يكون. ولن يعود هنالك أي سقف لطموحه. لكن كان ما زال عليه أن ينتظر ليرى ما ستؤول إليه الأحداث، الأحداث التي سوف يحاول التأثير فيها بلا شك.

فتح "تابلوه" السيارة وتناول حافظة نظارات جلدية فارغة، ووضع النظارة الشمسية ذات العدسات العاكسة التي كان يرتديها في مكانها في الحافظة، ثم أخرج حافظة أخرى وأخرج منها نظارة ثانية ذات لون أسود قاتم وعدستين بحجم كبير قادرتين على إخفاء عينيه وجانب كبير من ملامح وجهه، وتمنحه قدرة أكبر على الظهور بالمظهر الذي يرغب في أن يراه فيه الآخرون.

ارتدى النظارة ذات الحجم الكبير، وألقى على نفسه نظرة أخيرة في المرآة، أخذ نفساً عميقاً، ثم نزل من السيارة. عاجله الرجل بالرداء الأزرق بالتمتمة بعبارات التعازي مما جعله يجفل ويتراجع إلى الخلف بفرع.

_ انتبه يا "بني آدم".

تراجع الرجل خطوتين إلى الخلف وهو يتمتم بعبارات الاعتذار هذه المرة، ناوله هيثم مفتاح السيارة كالمعتاد وهو يقول: السيارة بحاجة إلى غسيل.

_ أوامرك يا بيه. قالها وهو ينظر إلى السيارة التي كانت خالية من الشوائب.

دخل إلى الشركة بخطوات سريعة، تجاوز مكتب الاستقبال ومر من الردهة في الطابق الأرضي في الاتجاه المؤدي إلى المصعد دون أن يبطئ من سرعته أو يتلفت حوله، دلف إلى المصعد قبل أن يتمكن

موظفو الطابق الأرضي المترددين من حسم أمرهم واللحاق به لتقديم التعازي.

صعد به المصعد إلى الطابق الثالث، وهو الطابق الأخير من المبنى، والذي كان يضم دوائر المالية والموارد البشرية والديوان والسكرتارية بالإضافة إلى مكاتب الإدارة العامة.

موظفو هذا الطابق كانوا أكثر سرعة وجرأة من موظفي الطابق الأرضي في الاقتراب منه وتقديم التعازي.

_ سعيكم مشكور... سعيكم مشكور.

أخذ يرددتها باستمرار وهو يواصل تقدمه في الممر الذي تؤدي نهايته إلى مكاتب الإدارة دون أن يتوقف لأي من المعزين. واضطر في طريقه إلى استخدام يديه لإبعاد الساعي العجوز الذي جاء إليه مهرولاً قاطعاً طريق سيره، نقده عبارة سعيكم مشكور باردة دون اعتذار. لم يتوقف إلا حينما خرج من الممر ووصل إلى قاعة بيضاوية الشكل أرضيتها بالكامل من الرخام ذي الألوان البني والرمادي، في نهايتها عدة غرف ذات أبواب خشبية مزخرفة وجميعها كانت مغلقة الأبواب.

أكبر الغرف حجمًا والتي يتصدرها باب مزدوج من خشب الزان كانت في المنتصف أمامه مباشرة وهي غرفة مكتب المدير العام للشركة، وإلى يمينها غرفة أصغر حجمًا شغلتها مديرة مكتبه، أما مكتب هيثم فكان المكتب الأخير إلى اليسار، وغرفة أصغر حجمًا من غرفة مكتب المدير العام، إلا أنها كانت أفخر أثاثًا. في حين أن باقي مساحة القاعة احتوت على طاولتي مكتب وعدد من الكراسي المصنوعة من الألمنيوم فضية اللون والمثبتة إلى الأرض، وإلى يساره تمامًا كاونتر

خشبي داكن اللون كانت تجلس خلفه فتاة قصيرة القامة وترتدي غطاء رأس أبيض ونظارة طبية.

توقف هيثم عن سيره في بداية القاعة، توجهت أنظاره إلى اثنين من مجندي الشرطة يقفان عند باب المكتب الصغير العائد لنادين، في حين أن الفتاة التي كانت تجلس وراء الكاونتر والتي كان رأسها بالكاد يظهر من ورائه، قامت من كرسيها في اللحظة التي لمحته فيها قادمًا ودارت من حول الكاونتر لتسير في اتجاه هيثم بخطوات قصيرة وسريعة في ذات الوقت. كانت أطراف تنورتها السوداء الطويلة تحتك بالأرضية الرخامية لتصدر صوتا أشبه بحفيف الأفاعي والذي كان يزداد علوًا كلما أسرعت في خطاها.

اقتربت منه حتى كادت تلتصق به وقالت بصوت هامس وهي تتلفت حولها على الرغم من خلو القاعة سوى منهن ومن مجندي الشرطة في الطرف البعيد: إنهم بانتظارك منذ وقت مبكر.

قال هيثم مبادلاً إياها همساً بهمس: أين هم الآن؟ كم عددهم؟ قالت: كانوا خمسة من المباحث وعدد من الشرطة، وجهوا أسئلة إلى الجميع، وحاليًا بقي اثنان من المباحث وهذان الشرطيان.

_ وأين هما الآن؟ ينتظران في مكنتي؟

أجابت: في مكتب نادين، لقد كانوا مهتمين بها شخصيًا بالإضافة إليك، سألوها عنها بالاسم.

ثم أضافت متسائلة وقد تغلب عليها الفضول: هل يمكن أن تكون نادين متورطة؟

تجاهل هيثم عبارتها الأخيرة، وقال وهو يوجه نظره باتجاه المجندين الواقفين عند الباب: حسنا، سوف أنتظر انتهاءهم في مكنتي ثم

سأغادر بعدها، أدخلني عليّ أية أوراق بحاجة إلى توقيع بسرعة قبل انتهائهما.

أومأت له موافقة وابتعدت عن طريقه بعد أن أدركت أن المحادثة قد انتهت عند هذا الحد وأنها يجب أن تبحث عن مصدر آخر لاشباع فضولها، في حين سارهيثم عدة خطوات باتجاه غرفة مكتبه، إلا أنه توقف في منتصف الطريق، واستدار ثم سار باتجاه غرفة نادين، توقف المجندان عن الكلام مع بعضهما ونظرا إليه في ترقب، وقف على بعد خطوتين منهما، تنحنح ثم عرف عن نفسه بذات النبرة الجافة التي يخاطب بها موظفيه، قال مضيئاً: بالأمس تلقيت اتصالاً من أحد الأشخاص في المباحث وطلبوا مني الحضور إلى المديرية، إلا أنني اعتذرت واتفقت معهم على اللقاء هنا في الشركة، هل الباشوات موجودين بالداخل؟

أجاب أحدهما: نعم يا بيه، شريف باشا ومحمود باشا بالداخل، مشغولين بعمل رسمي.

_ سأكون بانتظار الباشوات في غرفة مكنتي هناك بالطرف الآخر من القاعة. ثم كرر اسمه بنبرة أكثر بطاً: هيثم شهاب، نائب المدير العام.

التفت وسار باتجاه مكتبه دون أن ينتظر سماع أي رد.

لم يكن فضول هيثم يقل عن فضول سكرتيره، إلا أن فضوله لم يكن بشأن معرفة ما حدث، وإنما بشأن ما سيحدث، ما الذي سيفضي إليه التحقيق؟ وكيف يمكنه أن يستفيد من ذلك؟ كان يعرف السبب الذي جعل من نادين هدفاً مهماً لرجال المباحث،

سامح بالتأكيد هو الهدف الأول بالنسبة إليهم، فهو الحلقة الأضعف والأسهل، ونادين كانت متواجدة معه في حفل أبي ربيع. كل ما عليه فعله الآن هو الجلوس على مقعده المريح، خلع نظارته الشمسية، طلب كوبًا من القهوة المرة، والانتظار.

لم تخيب نادين ظن شريف على الإطلاق، كما لم يسبق لها أن خيبت ظن أي شخص سبق وأن شاهد إحدى صورها ومن ثم شاهدها على أرض الواقع، ما لاحظته شريف وهو ينظر إليها أنها قد غيرت من تسريحة شعرها ليتحول من اللون الأسود الطويل إلى أحمر قان يميل إلى القصر، مع بشرة برونزية فاتحة وعينين لوزيتين فوق أنف وفم صغيرين. على الرغم من أنها لم تكن بحاجة إلى أية مساحيق تجميل لإظهاركم كانت فاتنة إلا أن القليل الذي وضعته من أحمر الشفاه الوردي مع ظلال العين التي من نفس اللون جعلها أكثر ألماً وتوهجًا.

_ أنا لست لبنانية.

نبرة صوتها الناعمة التي جاءت مترافقة مع بحة خفيفة كانت غير مخيبة للظن كذلك.

_ والدي مصري ووالدي لبنانية، وقد انتقلنا إلى العيش في مصر منذ اثنتي عشرة سنة، لقد درست في كلية التجارة في جامعة القاهرة.

_ وكيف كانت علاقتك بالمرحومة؟

اتسمت نبيرة شريف بالجدية المفرطة، جدية كان يهدف فيها إلى إظهار فرض سلطته، وإيصال رسالة مفادها أنه غير متأثر بتاتا بما يراه أمامه، وإن كان في حقيقة الأمر يظهر خلاف ما يبطن، الفكرة التي كانت تدور برأسه في هذه اللحظة هي أنه لو كان معتز في مكانه لأدى يمين الولاء والطاعة، لكنه ضابط شرطة محترف.

نادين أعدت نفسها جيدًا لهذه المواجهة، لأنها كانت تعرف كيف تسيّر الأمور في البلاد، سواء كانت مجرمة أو ضحية، بريئة أو مذنبه أو شاهدة، ففي حضرة ممثل القانون، فأنت معرض للإهانة وسوء المعاملة والعجرفة غير المبررة في أي لحظة ولأتفه الأسباب. لذا يجب أن تكون مستعدة وأن تتسلح بالصبر ورباطة الجأش وألا تبدو خائفة أو مترددة، بالأ تظهر بمظهر من ارتكب فعلا ويحاول إخفاءه، حتى وإن لم تكن قد فعلت ما يجدر بها إخفاؤه.

أجابت: عدا عن أنها كانت رئيستي في العمل لفترة قصيرة، لم تكن تجمع بيننا أي علاقة خاصة خارج إطار العمل، وبعد أن تركت منصبها في الشركة أصبحنا نلتقي بالمصادفة، في الشركة هنا في بعض المرات وأحيانا في الخارج، وتبادلنا الحديث أكثر من مرة.

قال شريف بنبرة أكثر خشونة: غريبة، فبالنسبة إلى شخص تعرفينه جيدا، لا تبدين حزينه جدًا على وفاتها.

نبرته بدت لها توجه اتهامًا بصورة أريكتها، ابتلعت ريقها بصعوبة ثم أجابت بأول شيء خطر على بالها: الحزن بالقلب، ثم أن الحياة أقصر من أن نقضيها في الأحزان.

قال متهكما: كلام جميل يصدر عن سكرتيرة تجاه مديرتها السابقة الميئة للتو.

قالت محتجة: أنا مديرة مكتب، ولست سكرتيرة.
رد عليها بذات النبذة الساخرة: على رأي إخواننا الأمريكان،
"بوتيتوبوتاتو".

رمقته بنظرة عدائية دون أن ترد، ففكر في أنها لا تزال جميلة حتى
حين تغضب، تدخل محمود لكبح جماح رفيقه وقال موجهها سؤالاً
إلى نادين بنبرة تعمد فيها إظهار قدر كبير من الود والمسالمة: بصفتك
مديرة مكتب المهندس سامح لسنوات، وهذا الأمر الذي يمنحك
بالتأكيد الأفضلية على غيرك من موظفي الشركة في الاطلاع على
بعض جوانب الحياة الخاصة لهما، وربما حتى بدرجة أكبر من
بعض أفراد العائلة.

بدا الاهتمام على وجه نادين وهي توجه أنظارها كلية نحو محمود،
وقد وجدت الفرصة لتشجيع ببصرها بعيداً عن الشرطي الشرير في
إيحاء بالتجاهل التام مما منحها الفرصة لاستعادة ما تعتقد أنها
فقدته جراء هذا التعامل العدائي.

كيف يمكنك وصف العلاقة بينهما؟ يعني من مثل، هل كانا على
خلاف مؤخرًا؟ هل سبق وأن تشاجرا؟ أشياء من هذا القبيل.
أجابت بحماسة: إطلاقاً، لقد كان المهندس سامح ومدام سمية الله
يرحمها يعيشان الحياة الزوجية المثالية، محبة واحترام متبادل، لم
يسبق لي أن سمعت أنهما تشاجرا من قبل، بل على العكس من
ذلك.

اعتدلت في جلستها وقالت متابعة وعلى وجهها ابتسامة زادت من
جمالها: الأستاذ سامح لم يكن يخفي حبه الشديد لزوجته، لقد
سبق وأن صرح لي بذلك أكثر من مرة، وفي عيد زواجهما الماضي،

استدعاني الأستاذ سامح إلى مكتبه لأمر عاجل، أخبرني أنه يرغب بأخذ رأيي في أمر مهم، ثم أخرج علبة صغيرة بها خاتم ماسي، وسألني فيما إذا كانت ستجده هدية مناسبة لها، كان أجمل خاتم رأيته في حياتي، عندها قلت له أتمزح معي بالله عليك؟ إنه الهدية المثالية، ستكون حتما امرأة مجنونة إذا لم يعجبها ذلك الخاتم.

تألفت عيناها ببريق مبهج وهي تصف الخاتم، بينما كان شريف يرمقها في ضيق مفتعل، أضافت بصوت فيه الكثير من التأثير الانفعالي المبالغ فيه: صدقني يا سيدي، لقد أحب سامح زوجته كثيراً، لن أتخيل أبداً أن بإمكانه أن يؤذيها.

قال شريف بلهجة تهكمية أصبحت طابعاً معتاداً لدى الفتاة وإن كانت أقل حدة هذه المرة: حكاية ممتعة فعلاً، لكنها لا تهمنا في شيء للأسف، لكن ربما ترغيبين في الهدوء وتدخين سيجارة لأننا نرغب في سماع حكاية محددة.

نظرت إليه في استغراب لأول وهلة، ثم نظرت إلى الاتجاه الذي كان ينظر إليه، كانت حقيبتها التي بجانبها على الكرسي نصف مفتوحة، وعلبة سجائر من نوع مارلبورولايت على استعداد للخروج بانتظار الإذن بذلك. شعرت بالغیظ وقد اعتبرت هذا انتهاكاً آخر، إلا أنها لم تظهره، مدت يدها ببساطة إلى حقيبتها وأخرجت علبة سجائرها وأشعلت سيجارة، فقد كانت حاجتها إلى النيكوتين تفوق حاجتها للتعبير عن الغضب.

_ والآن، أريدك أن تخبرينا عن حفل الزفاف الذي قمت بحضوره برفقة المهندس سامح.

_ تقصد حفل أبي ربيع؟

قام شريف بفتح مفكرته وأعد قلمه للعمل.
_ بالضبط، وبالتفصيل الممل.

حينما خرجت نادين من مكتبها للمرة الأولى منذ ساعتين، كان وجهها شاحبًا ومرهقًا، على الرغم من عدم وجود ما تخشاه على نفسها فعليًا، إلا أنه لم يسبق لها أن تعرضت إلى مثل هذا الضغط النفسي في حياتها وحافظت على هدوءها بهذا القدر الذي استنزف أعصابها وطاقتها على الاحتمال دون أن تنفجر، لو كان طبيها النفسي الذي عالجها في السابق موجودًا لكان فخورا بها جدًا.

لكنها على الرغم من ذلك وأثناء وجودها أمام المحققين فكرت في العديد من الأمور، في كيفية الانتقام من ذلك الضابط المتعجرف الذي لم يسبق لها الالتقاء بأمثاله أو السماع عنهم سوى في الأفلام، قامت بتحديد خياراتها المقبلة، لذا فقد أخذت تفكر في أصدقائها وصديقاتها من أبناء المتنفذين في البلاد وكيف يمكنها استخدامهم لرد الإهانة لهذا الشرطي في حال تمادى فيما يفعله.

فكرت في أنها كانت قريبة جدًا من حدوث الشيء الذي تخشاه أكثر من أي شيء آخر، وهو أن تتعرض للإهانة والإذلال، نادين فتاة حساسة بشكل مفرط وهذه الحساسية كانت تؤذيها، كلمة واحدة تسير في الاتجاه الخاطئ كانت قادرة على إحداث جرح في مشاعرها يفوق الجرح الذي يمكن أن يحدثه منشار كهربائي في وريد رئيسي.

لا زالت تذكر في إحدى المرات، عندما قام أحد أساتذتها في الجامعة بالصراخ عليها أمام بقية الطلاب بسبب تأخرها عن تسليم أحد الأبحاث التي كلفت بها عن موعدها الرسمي، تغيبت عن الحضور

إلى الجامعة وقتها لأسبوع، وكانت على وشك إسقاط الفصل الدراسي بالكامل، لولا أن تدخلت ابنة فهمي أبي ربيع صديقتها المقربة وقامت بالحديث مع والدها، كانت نتيجة هذا التدخل اعتذار وعذر مفتوح للتخلف عن حضور المادة مع علامة امتياز مضمونة.

منذ ذلك الوقت عرفت أن جمالها ليس كافيًا لحمايتها، بل على العكس، جمالها قد يؤدي إلى تأليب عداوات ضدها، الأستاذ الجامعي الذي حاول مغازلتها وقامت بصدده فقام بإفراغ ما في جعبته من أحقاد في قاعة المحاضرات، كان مثالا صغيرًا لما يمكن أن يحدثه لها جمالها من عواقب. كما عرفت أن هنالك معاني أخرى للقوة. السلطة قوة، المال قوة، النفوذ قوة، والتقرب من أصحاب السلطة والمال والنفوذ، قوى لا يستهان بها.

منذ تلك الحادثة في الجامعة وهي أكثر حذرًا وبقظة، وأكثر قدرة على الدفاع عن نفسها، قادرة على الرد على كل من يحاول التعرض لها بأن تسبب له أضعاف ما يمكن أن يسببه لها من ألم. باستثناء مرة واحدة، وجدت بها نفسها عاجزة عن الرد، تلك المرة التي نعتتها فيها سمية بالساقطة وقامت بطردها. على الرغم من تدخل سامح بنفسه لإقناعها بالعدول عن الاستقالة والزيادة التي حصلت عليها على راتبها، إلا أن الإهانة والإذلال العلني سببا لها ألما لا يمكنها احتمالها أو التغاضي عنه.

سمية أصابت وترا حساسا جدًا.

دلفت إلى تواليت السيدات الذي كان فارغًا، وقفت أمام المرأة وقامت برش الماء على وجهها غير عابئة باختفاء القليل الذي

وضعبته من مساحيق التجميل، كانت ترتجف لكن دونما سبب محدد. فهي لم تكن خائفة أو مذعورة، ولم تكن مجروحة أو مهدورة الكرامة، فالضابط الشرير لحسن الحظ لم يوفق في إصابة أي أوتار حساسة على الرغم من محاولته القيام بذلك، لم تكن متوترة، فهي أعدت نفسها جيداً، منذ اللحظة الأولى التي سمعت فيها بخبر الجريمة، قامت بإغلاق جميع هواتفها، أمضت فترة ما بعد عصر البارحة في إحدى مراكز الاستجمام، وفي نهاية اليوم كانت مسترخية تماماً، ومستعدة.

توقف جسمها أخيراً عن الارتجاف الذي لا سبب له بعد أن شعرت بقطرات الماء الباردة وهي تخترق مساماتها وتعيد لها بعضاً من نشاطها وحيويتها، وزال التوتر تماماً. أغمضت عينيها واستمتعت بالهدوء.

_ فهمي أبو ربيع واحد من أكبر رجال الأعمال في مصر، حفل زفاف مثل هذا يحرص جميع من في الوسط على حضوره. رفع شريف رأسه عن مفكرته وهو يقول بنبرة متسائلة: ماذا تقصد بالوسط؟

أجاب هيثم بأسلوب من يقر حقيقة مسلم بها: وسط رجال الأعمال والعائلات الثرية، الطبقة الراقية. قال شريف مستعيراً بعضاً من الأسلوب التهمي الذي استخدمه مع نادين: حقاً، شكراً على التوضيح.

إلا أن نبرته كانت أقل عدائية، في حين قال محمود موجهاً سؤاله إلى هيثم: بيدولي أنك مهتم، لماذا لم تذهب إلى الحفل بدورك؟
أجاب هيثم: بالفعل أنا مهتم، رجل أعمال شاب مثلي يرحب بأي فرصة ممكنة لكي يلتقي بالطبقة البارزة في المجتمع، لكن للأسف كانت لدي ارتباطات أخرى، لقد قضيت عطلة نهاية الأسبوع في الشاليه الذي أتشارك ملكيته مع جماعة من الأصدقاء في مارينا، البحر ممتع في مثل هذا الوقت من السنة قبل الازدحام، ربما يجب أن تجرباً نهاية الأسبوع القادم.

وجه إليه شريف نظرة حادة لكنه لم يتحدث، في حين فكر محمود في أن الرجل الذي يجلس أمامهما على الأغلب لم يتلق دعوة للحفل من الأساس. قال وهو يتلفت حوله في أرجاء المكتب المكتظ بالأثاث والتحف: عليّ أن أثني على ذوقك، لديك مكتب في غاية الفخامة. توقفت عيناه عند لوحة زيتية تظهر فيها امرأة حسناء مع ثعبان ذهبي يحيط بخصرها.

ابتسم هيثم وهو يقول: المظاهر مهمة جدًّا.

_ ذوق مميز فعلاً. تتمم محمود، ثم أبعد عينيه عن الفازة البرتقالية اللامعة ذات الحجم الكبير التي في ركن الغرفة ونظر باتجاه هيثم، قال: بصفتك فردًا من عائلة الضحية، هل لديك فكرة عما إذا كانت ابنة عمك تملك أي أعداء قد يرغبون برؤيتها ميتة؟

أجاب هيثم بنبرة ثابتة وهادئة: بالتأكيد، سامح.

ارتسمت الدهشة على وجه المحققين، استمرت لعدة لحظات، قبل أن يقول محمود متسائلاً: تعتقد أن سامح هو من قام بقتل زوجته؟

أجاب هيثم بنفس اللهجة الواثقة، لهجة تحمل دلالات أكبر بكثير من مجرد التخمين: بالتأكيد، هو من قام بقتل سمية.

كانت العديد من الأفكار والاستنتاجات تحاول إيجاد مكان لها بين أفكار شريف، إلا أنه عند سماعه ما قاله هيثم اختفت جميع هذه الاستنتاجات الجانبية وحلت محلها فكرة واحدة فقط، في حين قال هيثم متابعاً بثقة: في الحقيقة، كفرد مقرب من المرحومة فأنا أرغب في توجيه اتهام رسمي إليه بالقتل، أعني هل يحق لي القيام بذلك؟ كانت أنظاره موجهة إلى محمود بانتظار إجابة منه، لكن الأخير لم يجب، في حين قال شريف: لماذا تعتقد أن سامح هو القاتل، هل تملك دليلاً يمكن أن يدعم هذه الفكرة؟

أجاب هيثم: الأمر بسيط، فسامح وسمية كانا على وشك الانفصال، طلاقهما كان وشيكاً جداً، وهو الأمر الذي سيترك سامح بلا أي ثروة، ربما تعلمان يا سيدي أن سامح لا يملك أي شيء في المجموعة، وأن نقطة القوة الرئيسية التي يستند إليها هي النسب، وإذا انقطع هذا النسب فإن سامح لا يزيد عن كونه موظفًا عاديًا في المجموعة، حتى وإن كان يشغل منصب المدير العام.

ثم أضاف بنبرة فيها المزيد من الثقة المفرطة إلى حد الاستعلاء: لكنه عندها يصبح مديراً عاماً يمكن الاستغناء عنه بسهولة.

قال محمود: لكن تحرياتنا تقول إن سامح يمتلك ثروة لا بأس بها. قال هيثم: سامح لا يمتلك أي شيء حالياً، وحتى لو كان لا زال يمتلك بعض العقارات هنا وهناك فإن هذا بالتأكيد لا يعني أي شيء بالنسبة إلى شخص بمكانه، بدون سمية، السلطة والمنصب والمكانة الاجتماعية المرموقة، كل ذلك سيزول.

قال محمود: مثل فرصة أن تكون مدعوًا إلى حفل زفاف أحد كبار رجال الأعمال في مصر ولكنك لا تتمكن من الذهاب.

توقف هيثم عن الكلام للحظة، نظر إلى وجه محمود، ثم قال متابعًا توضيح فكرته الأخيرة بشيء من الزهو: أنا على سبيل المثال، قمت قبل عدة شهور بشراء فيلا على بعد شارعين فقط من قصر فهمي أبي ربيع، فقط شارعين، أقوم حاليا بتجهيزها وتأثيثها، على الرغم من ذلك، فإن جلوسي هنا في هذا المكتب أهم بالنسبة لي من امتلاك الفيلا، بل حتى أهم من امتلاك قصر أبي ربيع نفسه.

قال شريف: لهذه الدرجة؟

أراح هيثم ظهره على المقعد، وقال وهو يشير بسبابته اليمنى إلى رأسه: هكذا يفكر رجال الأعمال، الثروة بحاجة إلى السلطة والنفوذ لضمان زيادتها، والسلطة والنفوذ بحاجة إلى الثروة للإبقاء عليهما. أخذ شريف يهيمهم بصوت منخفض وهو يهز رأسه، في حين قال محمود متسائلًا: كيف تعرف فيما إذا كانا على وشك الطلاق؟ أجاب هيثم بسرعة: لقد كانا دائمي الشجار في الآونة الأخيرة، بدا جليًا أن علاقتهما على شفير الهاوية، لقد أخبرتني بنفسها أنها تفكر جدًّا في طلب الطلاق.

قال محمود: يبدو أنك كنت مقرَّبًا جدًّا من المرحومة وزوجها.

أجاب هيثم: بالتأكيد، أنت تتحدث عن ابنة عمي الوحيدة، المرحومة بالنسبة لي بمثابة الشقيقة الرابعة.

_ وماذا عن سامح، كيف هي علاقتك به؟

هذه المرة أخذ هيثم بعض الوقت في التفكير، ثم أجاب: حسنًا، لن أكذب في هذا الشأن، أنا لم أكن أستلطفه تمامًا، وأظنه شخصًا

متكبرا ووضيعةً، ولا يملك المهارة أو القدرة اللازمة لإدارة أملاك الأسرة، بالإضافة إلى أن سمية نفسها كانت تظن ذلك، فقد كانت تراودها الشكوك في أن سامح كان يخونها.

ثم قال وقد اتخذت ملامح وجهه طابع الحزن والشفقة: كانت تعلم أن حصولها على الطلاق لن يمر بسهولة، لكنها بالتأكيد لم تتوقع أن يصل به الأمر إلى أن يقوم بقتلها، ربما كان يجب أن نتوقع هذا، من الذي يمكن أن يثق بشخص مثله؟

ظل شريف محتفظاً بلهجته الجافة دون أن يبدو متأثراً بالحزن المفتعل الذي أظهره هيثم: وما رأيك في ادعاء سامح أن شخصاً ما قد اقتحم الفيلا وقام بسرقة صندوق مجوهرات ومبلغ من المال، وقام بقتل المرحومة عندما فوجئ بها مستيقظة أثناء هروبه؟

أجاب هيثم بطريقة من يدفع اتهاماً: لا أصدق أي حرف مما قاله سامح، بصراحة لا أستبعد أن يكون قد قام هو بنفسه بسرقة مجوهرات زوجته ليحاول التمويه على جريمته.

مضت عدة لحظات ساد فيها الصمت، قام شريف بإغلاق مفكرته، ثم وقف المحققان استعداداً للمغادرة ووقف هيثم بدوره، مد يده مصافحاً وهو يقول: سواء تبين أن سامح هو القاتل أم لا، فإنني أتمنى حقا أن يلقي المجرم جزاءه.

قال شريف: تأكد تماماً من أنه سوف ينال جزاءه.

سار هيثم مع المحققين إلى باب الغرفة وقام بفتح الباب لهما وأفسح لهما المجال للخروج، غادر شريف الغرفة أولاً، التفت محمود إلى هيثم ثم قال وهو يبتسم: بإمكانك الآن العودة إلى ارتداء نظارتك، تناسبك تماماً، تضيي عليك مظهرها أكثر حزناً.

لم يملك هيثم أي كلمات للرد، إنما اكتفى بمراقبة الرجلين وهما يسيران باتجاه الممر وخلفهما المجندان بالملابس النظامية. مرا بالمر المؤدي إلى المصعد، كانت غرفة المدير المالي هي الأقرب في صف الغرف إلى القاعة التي تقع فيها مكاتب الإدارة العامة، بقي سمير طاهر المدير المالي مختبئاً خلف باب غرفته وهو يراقب الخطوات التي تسير مبتعدة، لم يتنفس الصعداء إلا عندما اختفت تماماً عن نطاق سمعه.

لم يكن شريف مدخنا شرهًا، في معظم الأحيان كان يكتفي بثلاث أو أربع سجائر في اليوم، إلا في الأحوال التي يشعر فيها بالإحباط الشديد أو الإثارة الشديدة، حينها يتحول إلى قاطرة بخارية لا تكف عن الزفير.

تناول علبة سجائره من على طاولة المكتب وأشعل سيجارته الثالثة في ظرف عشرين دقيقة، السحبة الأولى أخذت منه وقتًا طويلًا، ترك العنان لأنفه وفمه لطرد أول أكسيد الكربون، أخذ وقتًا إضافيًا وهو يتأمل سحابة الدخان التي صنعها وهي تتلاشى في الهواء رويدًا رويدًا، ثم قال في نبرة تحمل القليل من الندم والكثير من السخرية: يبدو أنني كنت قاسيًا معها قليلًا.

ثم وجه نظره إلى محمود الذي كان يجلس على الكرسي المقابل لطاولة مكتبه وقال وهو يقهقه بصوت خشن: زوجتي تهمني دائمًا بأني متحجر القلب، لكنها لورأتني اليوم أعتقد أنها سوف ترقص من الفرح.

أخذ نفخة أخرى لا تقل عمقا عن سابقتها، نفث الدخان بعيدًا ثم راح يراقبه مجددًا قبل أن يقول: ما الذي يمكننا فعله مع بشر هكذا؟ أنت تعرف أن الناس في بلدنا طابعهم التمرد والعصيان، وإذا ما أريتهم بعض اللطف واللين فإنهم ينساقون إلى الكذب والتضليل، لذا فإن الواحد منا يضطر إلى التصرف بهذه الطريقة.

ثم أضاف وهو غارق في الضحك: وإلا فإننا لن نجد من نرسله إلى السجن.

كان محمود في هذه اللحظة منشغلاً بإرسال رسالة نصية عبر هاتفه إلى زوجته، بدا غير مهتم بما يقوله شريف، عندما تأكد من إرسال الرسالة أعاد هاتفه إلى الطاولة ذات الوجه الزجاجي والأرجل الحديدية السوداء بجانب سلسلة المفاتيح وكوب قهوة شبه الفارغ، ثم رفع رأسه لينظر إلى شريف الذي كان لا زال مستغرقاً في الضحك وقال: هيثم كان يفتعل الحزن بشكل واضح.

قطع شريف ضحكته وقال متسائلاً وفمه لا زال يرسم ابتسامة بقيت من آثار ضحكته: ماذا تقصد؟

_ هيثم شهاب، حاول أن يوحى لمن يشاهده أو يتحدث معه بأنه غارق في أحزانه، في حين أنه ليس كذلك على الإطلاق، بل أكاد أجزم بأنه يكاد يطير من الفرح.

قال شريف وهو لا زال يبتسم: أمر طبيعي جداً، هذه الفئة من أصحاب الأموال والثروة لا يحملون أي مشاعر لبعضهم البعض، لكنهم مضطرون إلى الحفاظ على مظهرهم الاجتماعي أمام الآخرين من نفس الفئة.

قال محمود: مع أنك هاجمت الفتاة لنفس السبب.

قال شريف وهو يحرك يده الممسكة بالسيجارة: بل هاجمتها لمجرد استفزازها، بعض الناس يجب أن تقوم بإثارتهم واستفزازهم حتى تتمكن من إخراج ما في صدورهم.

_ لكن في حالة هيثم، فإن هذا يجعله شخصاً غير مؤهل للأخذ بأقواله.

قال شريف معترضًا: بالعكس يا صديقي، هذا سوف يجعل منه شاهد نيابة فعلا أمام المحكمة، فهو يملك الحافز لذلك. ثم قام بإطفاء سيجارته التي انتهى عمرها بسرعة في مطفأة السجائر المعدنية الصغيرة الموجودة على طاولة المكتب وهو يقول: بالإضافة إلى أنني لن أعول كثيرا على ما يمكن أن يفصح عنه أي شخص سواء هيثم أو غيره دون وجود البراهين والقرائن التي تدعم ذلك.

وجه محمود إليه نظرة خالية من أي تعبير، إلا أن شريف بدا أنه أساء فهم هذه النظرة فقال مستدرًا: لا يا صديقي، لا تكن سيء الظن بي، لست كغيري من رؤساء المباحث الذين يوجهون أصابع الاتهام إلى أول شخص يقع بين أيديهم، أنا فقط شخص واقعي. ثم استدرك قائلا: لست كغيري من رؤساء المباحث المؤقتين أعني.

قال محمود متجاهلا للملاحظة: الرجل ليس مغرورًا فقط، يبدو مصابًا بنوع من جنون العظمة أو النرجسية.

قال شريف دون اهتمام: لا أعلم، بدا لي مجرد شخص صغير يحاول أن يرتدي ملابس الكبار، هم يبدو هكذا.

ثم قال متابعًا حديثه من نقطة مختلفة: المهم أنني قد حصلت على الشك الذي كنت بحاجة إليه، هناك فترة تمتد ما بين الساعة الثانية عشرة والساعة الواحدة وخمسين دقيقة. نادين متأكدة أنها لم تشاهد سامح أو تشك فيما إذا كانت قد شاهدته أم لا، الأشخاص الستة الآخرين الذين أعطانا سامح أسماءهم والذين صادفهم في الحفل لم يؤكدوا كذلك فيما إذا كانوا قد شاهدوه خلال هذه الفترة.

أخرج سيجارة أخرى وقام بإشعالها وهو يقول: لذا أستطيع أن أؤكد لك أن سامح لم يكن موجودًا طوال الحفل.
قال محمود: لكننا لم نقم باستجواب باقي الضيوف.
وقع شريف في نوبة ضحك فجائية، لكنه قطعها بسرعة وهو يقول: هل تتوقع أن نقوم باستجواب ما يزيد عن سبعمائة شخص عدا الحراس والعاملين في القصر، ناهيك عن أن قسمًا كبيرًا منهم هم من الأشخاص الذين لا يسمح بالاقتراب منهم.
قال محمود بنبرة بطيئة: لا يسمح بالاقتراب منهم.
قال شريف موضحًا: وزراء سابقين، نواب، مسؤولين ذوي مناصب عليا في الحكومة، رجال أعمال محليين وأجانب، سمعت أن المحافظ نفسه كان في الحفل، ربما يمكنك أن تقوم باستجوابه بنفسك.

قال محمود وهو يبتسم: شكرا على التوضيح، لم أكن أسأل على فكرة، كنت فقط أفكر بصوت عال.
قال شريف: ظننت أنك لا تعيش في هذه البلد، حتى أن مضيف الحفل فهمي أبو ربيع سيكون من الصعب الوصول إليه أو إلى أي من طاقمه، لا داعي لإقلاق راحته هو وضيوفه المهمون طالما أننا نملك العديد من الخيوط دون الحاجة إليهم، خاصة وأننا لن نتمكن من الحصول منهم على أي شيء ذي أهمية، كما أن الرجل على علاقة مباشرة مع وزير الداخلية.
قال محمود: حسنا، لكن لا ضير من المحاولة قدر الإمكان.

قال شريف وهو يبعد سيجارته عن فمه: حسنا يا حضرة المعاون
المجتهد، بهذه الطريقة في التفكير، أتمنى لك مستقبلا مشرقا.

كان محسن أيوب رئيس قطاع مباحث غرب القاهرة رجلا في أواخر
الأربعينات، إلا أنه على الرغم مما كان يمتاز به من قوة البنية وخفة
الحركة كان يبدو أكبر من عمره بعشر سنوات على الأقل، وهو الأمر
الذي لم يكن كله سيئا، فقد أكسبه هذا المظهر هيبه أكبر بين
مرؤوسيه أو حتى من يفوقونه في الرتبة. برأس أصلع من المقدمة
وإن كان شعره الذي يتخلله البياض غزيرا في المؤخرة، كما كان
يملك شاربا كثا تغلب فيه اللون الأبيض على الشعيرات السوداء
القليلة المتبقية، وجهه عريضة يتخللها خطان رفيعان في المنتصف.
على الرغم من شدته وصرامته في التعامل مع مرؤوسيه وخاصة
صغار القوم منهم، بالإضافة إلى اهتمامه الشديد بالتقيد بالأنظمة
والرسميات، إلا أنه كان يتجنب استخدام الأسماء أو الألقاب
الرسمية ويفضل أن يخاطب محدثه دائما بكلمة "يا ابني" حتى وإن
كان محدثه قريبا منه في العمر أو يفوقه عمرا مثل حال الساعي
الخاص لمكتبه. بدا أن آخر العنقود لديه قد أخرجت بعض الرقة
التي كانت دفينة أكثر بقاع قلبه عمقا، والتي أضحت أمرا ملحوظا
بين صغار الشأن من مرؤوسيه الذين استبشروا بذلك خيرا، وبدأوا
يعتادون على استقبال ابتسامة متواضعة أو عبارة مجاملة عابرة
من آن لآخر، حتى أن عبارة يا ابني المعتادة أصبحت أكثر تكرارا.

كان محسن جالساً على كرسي كبير الحجم من الجلد الأملس، وهو الكرسي الذي كان مخصصاً له في قاعة الاجتماعات في المديرية، وهي غرفة كبيرة الحجم أكثر من غيرها من الغرف الأخرى في المبنى، احتوت على جهاز عرض إلكتروني ولوح بلاستيكي أبيض كبير الحجم مثبت على الحائط وقد وضع على الرف الملحق به ممحاة وعدد من الأقلام الملونة، بالإضافة إلى صفيين من الكراسي المعدنية صغيرة الحجم بمساند غير مريحة.

وفي الجهة الأخرى من القاعة كانت توجد طاولة اجتماعات دائرية الحجم شكلت قطعة الأثاث الأكثر فخامة في القاعة والمصنوعة من خشب أسود ثقيل الوزن وسطح مبطن بطبقة خفيفة من المطاط ذات ملمس مريح. حيث كان محسن جالساً على مقعده المفضل، وجلس قبالة على نفس الطاولة شريف ومحمود وأنور الضابط الآخر الأقل رتبة وهو الضلع المكمل لفريق المباحث الذي يعمل على جريمة قتل سمية شهاب. استمع محسن إلى ملخص بأخر مستجدات القضية والانطباعات الأولية التي قدمها المحقق الرئيسي فيها، ألقى نظرة سريعة على ملاحظات وملفات القضية.

سأل بلهجة من يرغب في الحصول على تأكيد جازم: إذاً تعتقد أن الزوج قد وجد الوقت الكافي لكي يتسلل من الحفل ويعود إلى الفيلا ويقوم بقتل زوجته ثم يتسلل عائداً إلى الحفل من جديد.

أجاب شريف بثقة مطلقة: إنها نظرية قابلة للتطبيق، التحريات أفادت بأن الحفل قد حضره ما يقارب السبعمئة شخص، وقد امتد لقراءة الأربع ساعات، باحتساب المسافة وحركة المرور الاعتيادية بين الفيلا التي وقعت فيها الجريمة والقصر الذي أقيم به

الحفل فإن المتهم كان بحاجة إلى تسعين دقيقة على الأكثر ليقوم بذلك.

قال محسن محتجا: يا ابني لا تصف أي شخص بأنه متهم دون أن يكون هناك اتهام رسمي بحقه من النيابة. قال شريف وهو يبتسم: عذرا يا سيدي، أقصد المشتبه به.

سادت لحظة من الصمت تخللها تصفح محسن لمجموعة الأوراق الموجودة أمامه. ثم قال دون أن يرفع عينه: ماذا نعرف عن ظروف الحفل والأشخاص الموجودين فيه؟ ثم أردف قائلا: عدا ما تعرفه كل القاهرة.

قال أنور: لم نتمكن بعد من الحصول على القائمة الكاملة بأسماء المدعويين، لكننا عرفنا أن فهمي أبو ربيع كان قد تعاقد مع فريق عمل يتبع شركة أمن خاصة للحراسة وتنظيم دخول المدعويين والتأكد من حصولهم على بطاقات دعوة ومنع المصورين والمتطفلين، وقد أرسلنا في استدعاء الأفراد الذين يعملون في الشركة وكانوا على البوابة، وقد حضر أربعة أشخاص، لكنني لم أحصل على أية معلومات مؤكدة عما إذا كان المشتبه به قد غادر الحفل قبل انتهائه، إذ لم يتمكن أي منهم من التعرف على صورة المشتبه به أو رؤيته سواء عند دخوله أو خروجه، كذلك الحال بالنسبة إلى سيارة المشتبه به بالتحديد وإنما أفاد ثلاثة منهم بأنهم تذكروا وجود ثلاث أو أربع سيارات دفع رباعي من نفس نوع ولون سيارة المشتبه به وهي تدخل من بوابة القصر وتغادر عند انتهاء الحفل، لكن لم يتذكر أحد منهم فيما إذا شاهد إحدى هذه السيارات وهي تغادر أو تدخل في منتصف الحفل، ولم يؤكد أي

منهم كذلك فيما إذا كانت السيارات التي من ذات نوع سيارة المشتبه به قد بقيت متوقفة داخل القصر طوال فترة الحفل. قال محسن وهو ينظر إلى شريف بابتسامة صغيرة: هذا لا يدعم النظرية المطروحة كثيرا على ما يبدو.

قال شريف وهو يرد على ابتسامة محسن بابتسامة أكثر: لكنه لا ينفيها أيضًا، وهذا هو كل ما نحتاج إليه، الشك المنطقي.

قال أنور مستدركا: من الممكن استجواب الطاقم الأمني المقيم في القصر فهم بالتأكيد يملكون معلومات أكثر، لقد أرسلنا لهم بلاغا للحضور إلى المديرية لأخذ أقوالهم وتلقاه السكرتير الخاص لأبي ربيع، لكن لم يحضر أحد حتى الآن.

قال محمود: يمكنني الذهاب غدا، ربما أتمكن من الوصول إلى فهمي أبو ربيع والتحدث معه ومع حراسه.

قال محسن وهو يقلب في الملف الذي أمامه: لا داعي لذلك، الرجل واحد من أهم رجال البلد، ولديه ملف نظيف، ولا داعي لإثارة الجلبة حوله دون داعٍ، حاليا لدينا ما يكفيننا حول هذه القضية. لدينا أقوال الفتى الصغير، بالإضافة إلى أن تقرير المعمل الجنائي يمكن أن يعطينا الدليل الحاسم الذي نبحث عنه دون حاجة إلى البحث في أمور جانبية.

نظر شريف إلى محمود نظرة ذات معنى وهو يبتسم، توقف محسن أمام إحدى الصور التي كان ينظر إليها، قال متسائلا: هاتف الضحية، لم تعثروا عليه؟

قال أنور: ليس بعد يا سيدي، ليس له أثر في أي مكان.

قال محمود مقاطعًا: كذلك الحال بالنسبة لصندوق المجوهرات.

قال محسن متسائلاً: هل نعلم على وجه اليقين أن صندوق المجوهرات هذا موجود من الأساس؟

قال محمود: لقد أكد اثنان من الشهود صحة وجوده، شقيقة المشتبه به بالإضافة إلى الخادمة، وهناك صور عديدة له.

قال أنور: لقد أرسلنا الكلاب للبحث في المحيط الخارجي للفيلا في حال أن المشتبه به قام بدفنه أو إخفائه في حديقة الفيلا، لكننا لم نوفق للعثور على شيء.

قال محسن موجهاً حديثه إلى أنور: لا مانع يا ابني من التحري أكثر حول صندوق المجوهرات، أرسل تميمًا بمواصفات الصندوق إلى المراكز الأمنية وكبار تجار الذهب.

_ حاضريا سيدي. كان قد فعل ذلك مسبقا.

استكمل محسن آخر الأوراق الموجودة أمامه، قبل أن يقول في النهاية وهو يريح رأسه إلى الخلف: عمل جيد للغاية الآن، يمكنكم أن تناموا مطمئنين إلى حين صدور تقرير المعمل الجنائي.

كان محسن جالسًا خلف طاولة مكتبه في المديرية وهو يتأمل كومة التقارير التي أمامه، لكن دون أن يمد يده إلى أي منها، فقد وصل إلى مكتبه للتو والنهار لا زال في أوله، فليستمتع بشرب قهوته أولاً. سمع دقات على باب مكتبه، لكن الطارق لم يكن ساعي مكتبه العجوز وإنما كان أحد ضباط المباحث. قال محسن بلهجة جادة وإن كان يقصد منها المزاح: لقد سررت عندما سمعت طارقاً على الباب وظننت أن فنجان القهوة قد وصل، لكن خاب ظني.

رسم محمود على شفتيه ابتسامة مجاملة دون أن يعلق، جلس على الكرسي المقابل لمكتب رئيس القطاع وهو يقول: عفوا يا سيدي، كنت أرغب في الحصول على الإذن لاتخاذ إجراء معين يتعلق بقضية سمية شهاب، ربما يكون هنالك خيط جديد يحسم مسألة مغادرة المشتبه به الحفل قبل انتهائه من عدمه.

قال محسن متجاهلاً عبارته الأخيرة: عيناك حمراوان، يبدو أنك لم تنم جيداً الليلة؟

أجاب محمود: على العكس، لقد حظيت بقسط جيد من النوم، المهم أنني كنت مررت اليوم صباحاً من أمام قصر فهمي أبو ربيع وتوقفت عند البوابة قليلاً.

لم يتمكن محسن من تجاهله هذه المرة.

_ لماذا مررت من هناك؟ هل تسكن في الجاردن سيتي؟

ابتسم محمود وهو يقول: مدينة نصر.

_ ظننت أنني كنت واضحة بهذا الخصوص بالأمس.

قال محمود: بالتأكيد فعلت يا سيدي وبكل وضوح، لكنني مع ذلك فكرت في إلقاء نظرة فقط، وقد وجدت شيئاً مثيراً للاهتمام.
عقد محسن ذراعيه على طاولة المكتب وسأل بهدوء: وما هو الشيء المثير للاهتمام؟

قال محمود ببعض الحماس: كاميرات مراقبة عند بوابة القصر.

قال محسن: بالتأكيد سوف تكون هناك كاميرات مراقبة، قصر بهذا الحجم لا بد من تأمين مداخله ومخارجه جيداً، حتى الأكشاك الصغيرة أصبحت تقوم بتركيب كاميرات مراقبة.

تابع محمود بحماسة أكبر هذه المرة: إذا تمكنا من الحصول على شريط المراقبة سوف نتمكن من التأكد من فيما إذا كان سامح قد غادر الحفل في موعد ارتكاب الجريمة، بهذه الطريقة فإننا سوف نتأكد من حجة غياب سامح وبذات الوقت سيبقى أبو ربيع وضيوفه في منأى عن التحقيقات. إلا إذا كان هذا الأمر أيضاً خارج نطاق الصلاحيات.

قال محسن بحدة: يا ابني، لا يوجد أي شيء اسمه خارج نطاق الصلاحيات عند تطبيق القانون، القانون يطبق على الجميع دون استثناء.

إلا أن محسن نفسه بدا غير مقتنع جداً بعبارة الرنانة، قال مضيفاً بلهجة أكثر هدوءاً: ربما نواجه بعض الصعوبات عندما يتعلق الأمر بأحد الكبار، لكن في النهاية فإن القانون لا بد أن يطبق، يجب أن تكون مدركاً للفرق هنا، أن تقوم باستجواب سبعمائة شخص من كبار القوم من أجل التأكد من معلومة غير منتجة فيه إهدار للوقت

والجهد دون إنتاجية، لكن بالمقابل، لو كان أبوربيع أو أي من ضيوفه متورطاً بالقضية، تأكد من أنني كنت سألقي القبض عليه بنفسى، حتى لو كان رئيس الجمهورية بنفسه. كان الانفعال قد تمكن منه. قال محمود وعلى وجهه ابتسامة غامضة: إذاً يمكننا الحصول على الإذن.

قال محسن: بالتأكيد يمكننا الحصول على الإذن، ففي النهاية الفكرة ليست سيئة على الإطلاق، حتى وإن كنت متأكدًا من أنها لن تؤدي إلى شيء.

دق باب الغرفة من جديد، دخل الساعي العجوز حاملاً صينية عليها فنجان القهوة الخاص بمحسن ومعه كوب ماء، شرع في وضع الفنجان على طاولة مكتب محسن وهو يقول معلناً: تفضل القهوة يا باشا.

إلا أن ردة الفعل التي قابلها كانت غير متوقعة. إذ صرخ فيه الأخير: ساعة يا بني آدم حتى تقوم بإحضار فنجان من القهوة، هل قمت بالسفر إلى البرازيل لإحضار البن من هناك.

تراجع العجوز مرتببًا وهو يتمتم بكلمات الاعتذار، وكل ما يدور في ذهنه هو التفكير في الوجه الذي "اصطبح به" لهذا اليوم.

استأذن محمود بالمغادرة، إلا أنه قبل أن يخطو إلى خارج غرفة المكتب استدأر من جديد وقال موجهًا كلامه للرئيس: لا أظن أن بإمكاننا إلقاء القبض عليه في حال كان متهمًا في جريمة.

أخذ محسن رشفة من فنجان القهوة ثم أعاده إلى الصينية وهو يقول: من الذي لا تعتقد أنه يمكننا القبض عليه؟

قال محمود: رئيس الجمهورية، أليس متمتعًا بحصانة قضائية؟

أخذ الساعي العجوز ينظر إلى محمود في جزع.
يالها من "اصطباحة" شؤم. هذه المرة قالها الساعي بصوت عال دون
أن يكتفي بالتفكير بها.

التعامل مع الأطفال كان من الأمور المعقدة بالنسبة إلى حسام نجيب
وكيل نيابة قصر النيل، لقد كان يفضل أن يتعامل مع المدمنين على
المخدرات، مع البلطجية، مع اللصوص والنصابين والقتلة وشهود
الزور والأشخاص المساكين وحثالة الأرض حتى، لكن ليس مع
الأطفال، هو نفسه متزوج ولديه طفل وحيد، لكنه كان يمثل بالنسبة
إليه العالم بأكمله.

لذلك فقد كان يخشى أطفال الآخرين، لأنه ببساطة يتعاطف معهم،
الأطفال قادرون على إظهاره أمام الآخرين بمظهر الرجل الضعيف،
وهو المظهر الذي لن يرغب على الإطلاق بأن يظهره على الملأ، ليس
بعد أن أصبح وكيلًا للنيابة.

هذا الصباح كان في غرفة مكتبه امرأتان، إحداهما نهلة فهيم عمه
الطفل الذي يفترض به أخذ أقواله، والأخرى موظفة في الشؤون
الاجتماعية والأسرة، بالإضافة إلى هاني الصغير الذي كانت روايته
للواقعة تظهره أكبر عمرًا من سنواته الأربع.

استيقظت في الليل لأذهب إلى الحمام، وخرجت من الغرفة لأنه لا
يوجد حمام في غرفتي، يجب أن أسير في الممر عشر خطوات حتى
أصل إلى الحمام. دوري تقول إن المسافة اثنتا عشرة خطوة لكنني
عدتها جيدًا، عشر خطوات.

قال وكيل النيابة مقاطعاً بلهجة فيها الكثير من التعاطف الذي نادراً ما يظهره للأشخاص اللذين يقوم بالتحقيق معهم في العادة: وبعد أن خرجت من الحمام، ماذا حصل؟ ما الذي رأيته أو سمعته؟ قال الصغير: أول شيء لم أر من هناك، لكنني سمعت صوت شيء ينكسر، وشعرت بالخوف، لكن بابا يقول لي إنني صرت رجلاً صغيراً ولا يجب أن أخاف، ثم مشيت قريباً من الدرج ونظرت من فوق إلى الأسفل، ورأيت بابا وماما تحت في الأسفل. ماما كانت نائمة على الأرض عند باب المطبخ، أنا اندهشت عندما رأيتهما نائمة هناك، وبابا أيضاً كان يشعر بالدهشة، رأيته كان يحاول إيقاظها لكنها لم تكن تريد أن تستيقظ.

قال وكيل النيابة: هل أنت متأكد يا صغير من أن الذي رأيته هو والدك؟

قال الفتى بحماس: أجل، أنا رأيت بابا يحاول أن يوقظ ماما.

كرر وكيل النيابة سؤاله بصورة أكثر وضوحاً: كيف تعرف أنه والدك بالتحديد وليس شخصاً آخر، هل رأيت وجه والدك؟ بدا السؤال مربكاً بعض الشيء للفتى الذي أخذ يفكر قليلاً، ثم عاد ليكرر: أنا رأيته، رأيت بابا يحاول أن يوقظ ماما من النوم على الأرض.

وجه وكيل النيابة نظرة إلى موظفة الشؤون الاجتماعية التي أوامأت له بما معناه أن هناك المزيد، في حين كانت نهلة تنظر إلى الصغير بعينين يملؤهما الحزن، لم تزح بصرها عنه للحظة واحدة.

عاد وكيل النيابة لينظر إلى الفتى المرتبك، ثم ابتسم في وجهه بدون مبالغة وهو يسأله: براقويا هاني، أحسنت صنعًا للغاية الآن، أكمل، ماذا حصل بعد ذلك؟

قال الفتى: ثم ناديت على بابا.

قال وكيل النيابة: ناديت على والدك؟

أومأ الصغير برأسه موافقا وهو يقول: ناديته كثيرا، كنت أريد أن أخبره أن يحضر غطاء ليغطي به ماما، فالأرض تكون باردة في الليل وقد تصاب بالمرض عندما تستيقظ، لقد نمت مرة بدون غطاء ومرضت وشعرت بشعور سيء.

قال وكيل النيابة محاولا إعادة الفتى إلى المسار الصحيح: يا صغير،

عندما ناديت على والدك، هل أجاب عليك؟

_ لا، لم يجب عليّ، ربما لم يسمعي جيدا، كان مشغولا في إيقاظ ماما، وعندما لم تستيقظ تركها وسار إلى باب القبو وفتحه ونزل إلى الأسفل، بقيت واقفا أنتظر لكنه تأخر في الأسفل.

_ حسنا أيها الصغير، لقد أبليت حسنا، قل لي الآن، هل رأيت والدك بعد ذلك؟

_ لا، لقد ذهب إلى القبو ولم يرجع مرة ثانية، عندما تأخر نزلت أنا وحاولت أن أوقظ ماما.

انقلبت ملامح وجهي وكيل النيابة وكاتب المحضر، وأخذت نهلة ترتجف وهي واقفة في مكانها لكن دون أن تنطق بحرف واحد، على الرغم من أنها سمعت الرواية من قبل، لكنها كانت ترتجف في كل مرة. موظفة الشؤون الاجتماعية كانت الشخص الوحيد في الغرفة الذي تمكن من إخفاء مشاعره وإن جزئيا.

لم يلاحظ الصغير أي شيء غريب، وبقي يتابع قصته: قمت بهزها كثيرا لكنها لم تستيقظ، ثم وقفت عند باب القبو وناديت على بابا مرة أخرى لكنه لم يرد، كنت أريد أن أنزل إلى الأسفل لأبحث عنه لكنني أخاف من النزول إلى القبو في الليل، وكنت أشعر بالنعاس وأتئأب، ثم خطرت لي فكرة، ركضت إلى الأعلى وأحضرت غطاءً من غرفتي وقمت بتغطية ماما به وقبلتها على رأسها ثم صعدت إلى غرفتي ونمت، لكن للأسف ماما مرضت مع أنني قمت بتغطيتها وجاء الأطباء في الصباح ليعالجوها.

نزلت دمعة ساخنة على خد نهلة لكنها قامت بمسحها بسرعة قبل أن يشعر الصغير بأي شيء، في حين بلع وكيل النيابة ريقه ثم قال: حسنا يا صغير، أحسنت صنعاً، يمكنك الذهاب الآن.

ثم أشار إلى موظفة الشؤون الاجتماعية التي قامت بالإمساك بيده وإخراجه من الغرفة بسرعة قبل أن يتمكن من توجيه أي سؤال، أما نهلة فقد ترددت قليلاً في الخروج من الغرفة، اقتربت من مكتب وكيل النيابة وقالت بصوت يحمل الكثير من الرجاء: يا سيدي، أخي سامح بريء، لا يمكن أن يكون قد قتلها.

لكن وكيل النيابة كان قد استنفد رصيده من التعاطف لهذا اليوم، لذا فقد عاد وجهه ليتخذ مظهر الجدية المبالغ فيها وقال بصوت حاد: لو سمحت، نحن نعرف عملنا جيداً.

أومأت موافقة دون أن تعقب، استدارت وسارت باتجاه باب الغرفة، كان محامي سامح قد أخبرها أن احتمالات الإفراج عنه ستكون ضئيلة للغاية، حتى وإن لم يتم تحريك الشكوى الجنائية بحقه، إلا أن شهادة ابنه ضده تجعل من وجود سامح خلف القضبان أكثر

أمانا بالنسبة إلى الطفل حتى لا يحاول التأثير على أقواله لاحقا أثناء المحاكمة باستخدام سلطته كأب، أو الأسوأ من ذلك، ربما يقوم بتدبير أمر ما للتخلص منه. كانت تعلم أن هذه الفكرة كانت سخيفة للغاية، سامح لا يمكن أن يؤدي ابنه إطلاقا، لكن حتى هي تم أخذ تعهد منها بعدم الخوض في موضوع الجريمة أمام الصغير بأي شكل من الأشكال وإلا سوف يؤخذ الصغير من عهدها ويتم إيداعه في أحد الملاجئ، بالإضافة إلى اعتبارها شريكة في الجرم في حال ثبوته على سامح، على الرغم من أن هذا التهديد المبطن بالرسومية يبدو أجوف، إلا أن فكرة أخذ الصغير منها كانت مخيفة بحد ذاتها. لكن في النهاية فإن هذه هي طريقة الشرطة في التفكير.

يا الله، إنها مجرد حجة واهية ليضعوا شخصا بريئا في السجن.

على قلتها وندرتها، إلا أنني على الرغم من ذلك لم أعد أذكر عدد المرات التي شعرت فيها بالسعادة.

أخي كان يقول إنني قبل أن أتزوج كنت مثل العصافير التي طردتها والدتي عن البلكونة قبل أن تبني عشها، حرة وخفيفة، أنظر إلى المرأة وأقول في نفسي: فيما كنت أفكر؟ أضرب حوض المغسلة بقبضة يدي، يؤلمني رسغي ولكني لا أهتم، لأن في داخلي ألم أكبر، أتساءل من جديد: فيم كنت أفكر؟ أسمع صوت ابنتي الصغيرة وهي تطرق باب الحمام باحثة عني، فأرجئ غضبي وألمي إلى حين. أرسم أفضل ابتسامة ممكنة، ثم أمحوها وأرسم ابتسامة أفضل منها بكثير، صغيرتي تستحق الأفضل، أفتح الباب وأخذها بين أحضاني.

_ أسفة يا والدتي، لن أتمكن من الحضور إلى الغداء اليوم.

_ لماذا يا ابنتي؟ هل أنت مشغولة؟

_ شيء ما طرأ في العمل ولن أتمكن من الخروج مبكرًا اليوم.

أمي تشعر بأن شيئًا ما ليس على ما يرام، أن طامة كبرى حلت أو نزلت لعنة من السماء، تسألني فأتهرب من الإجابة، أمي شعرت بالكثير من مكالمة هاتفية، فكيف إذا ما رأت الكدمات التي على وجهي.

أتصل بالمكتب وأعتذر عن الحضور اليوم، أقول إنني أشعر بوعكة صحية، زميلتي في العمل لا تطرح الكثير من الأسئلة مثل أمي، تتمنى لي الشفاء العاجل وتنهى المكالمة بهدوء.

من جديد أكتم مشاعري في نفسي، أحتموها بكفي يدي لأمنع عنها النور والهواء، ثم أظل أعصرها وأعصرها حتى تذوب وتختفي تمامًا، وأختفي أنا معها.

أيام قليلة مضت والدنيا في سلام، أصبحت أعرف كيف يشعر الجنود وقت الحرب، عندما يمرون بالحالة التي يطلق عليها اسم الهدنة. الوقت القصير القصير الذي يتفق فيه الطرفان على وقف القتال فيما بينهما، ثم عند الضربة التالية، يدركون أن الحرب لم تنته وأن الألم لم يتوقف، صوت المدافع الذي تناسوه لأيام قليلة يصبح أكثر رعبًا، وقع الضربات يصبح أشد تأثيرًا على نفوسهم، إن فراغ الأيام القليلة التي قضوها بدون قتال ما كانت سوى وهم وخداع.

أنا عشت هذا الوهم، ولا زلت أعيشه. وفي كل مرة تكون الضربة أشد قسوة.

الجنود في الحرب يملكون نعمة الرد على الضربات التي يتلقونها، وأنا لا أملكها، يملكون رحمة الموت عند أي ضربة، وأنا لا زلت أنتظرها.

ضرباته كداء ينتشر من مكان إلى آخر، أثار ضرباته التي بين الضلوع والتي كنت أخفيها تحت ملابسني قد وجدت طريقها إلى وجهي، فكيف لي أن أخفيها، اتصلت بوالدتي لأعتذر عن زيارتها اليوم، واتصلت بالمكتب لأخبرهم بأنني لن أتمكن من الحضور إلى العمل، والسبب وعكة صحية.

إذا لم يكن لخصمك نمط معين، كيف يمكن أن تتوقع موعد الضربة التالية؟ لا خيار لك سوى أن تتلقاها، راغبًا أو مكرها.

أسأل نفسي من جديد فيم كنت أفكر؟ ثم أنظر إلى عيني ابنتي الصغيرة من جديد، وأقول في نفسي، لا ندم.

كنا فيما مضى زوجًا وزوجة، متى قررنا أن نصبح جلدًا وصحية؟

القسه الثاني

فتح عينيه على اتساعهما، أنفاسه تخرج سريعة متلاحقة ثم أصبحت تسير بوتيرة أكثر هدوءًا، كانت الغرفة غارقة في ظلام دامس، بينما النعاس غادره بلا استئذان، وسرعان ما عاد إليه إدراكه بالكامل، لم يكن الأمر غريبًا عليه، لقد كان كابوسًا آخر، أمر أصبح مألوفًا في الشهور الأخيرة.

مد يده اليسرى إلى قلب الظلام ليتحسس بها الفراغ إلى جانبه، ثم وصلت أصابعه إلى سطح من الخشب المصقول، تحركت كفه لتمسح المكان إلى أن وجدت ضالتها، قبضت يده على هاتفه الجوال، قرّب الشاشة المضيئة مثل صرار الليل من وجهه ونظر إلى الساعة الواحدة وخمسون دقيقة.

أعاد الهاتف إلى موضعه مجددًا وبقي يحدق في الظلام.

لكن أفكاره لم تكن لتمنحه وقتًا طويلًا لينعم بهذا الهدوء، كانت كوابيسه بمثابة الناقوس الذي يدق في عقله ليذكره كلما اقترب من أن ينسى. قد ينسى في يوم، أو يومين، أسبوع إن كان محظوظًا، لكنه لن ينسى للأبد، ليس بعد.

دقيقة واحدة مرت، دقيقة من الهدوء الذي لم يتخلله سوى صوت الأنفاس المنتظمة لزوجته النائمة، دقيقة كانت كافية لتعود بأفكاره إلى الماضي القريب، وكانت كافية أيضًا لإشعال نار الغضب في داخله من جديد.

قام من سريره بهدوء وتناول هاتفه ثم تلمس طريقه إلى خارج الغرفة، سار في الممر باتجاه الصالة وجلس على أول مقعد وجده أمامه. بحث في سجل الأرقام في هاتفه إلى أن وصل إلى الرقم المطلوب ثم ضغط على زر الاتصال.

وضع سماعة الهاتف على أذنه وأخذ يستمع إلى الرنات الواحدة تلو الأخرى، انتهت جميع الرنات المتاحة دون أن يتلقى أي إجابة. نظر إلى ساعة الهاتف من جديد، كانت تشير إلى الواحدة وست وخمسين دقيقة.

استرخى على مقعده وانتظر، خمسة دقائق أخرى، ثم عاود الكرة من جديد، ومن جديد لم يتلقَ أية إجابة.

رغم أن الوقت كان متأخراً، إلا أنه فكر في أن حمدي القصير لا يمكن أن يكون نائماً، فأمثاله يفضلون حياة الليل، حينما تنام عيون الناس، يجد السكرارى والحشاشون واللصوص ومدمنو المخدرات والشياطين أماكنهم في هذا العالم.

اقتنع بفكرته الأخيرة، ثم كرر المحاولة للمرة الثالثة، لكنها كانت كسابقها.

اشتدت قبضته على الهاتف وهو يتخيل أمامه حمدي القصير يجلس بين مجموعة من المدمنين ويقوم بالنظر إلى اسم المتصل ويلقي بهاتفه بعيداً متجاهلاً الرد. تمنى لو كان القصير موجوداً أمامه في هذه اللحظة، ليترك أثراً من قبضته على وجهه ويدفعه إلى التقاط أسنانه القذرة من الأرض، أو ربما يقوم بما هو أفضل من ذلك، يترك ثقباً يزين به جبهته.

لكنه سرعان ما تغلب على غضبه المكتوم وعادت أفكاره إلى انتظام سيرها. الانتقام من حمدي القصير ليس هو ما يسعى إليه، فالقصير بالنهاية ليس غريمه، ولكنه الطريق الذي يمكن أن يوصله إلى غريمه. عاد لينظر إلى شاشة هاتفه، قام بفتح خانة الرسائل وبدأ في النقر على الحروف، حرص على أن تكون رسالته واضحة ومحددة الكلمات، وتحمل الكثير من عبارات التهديد، ليس تهديدًا ضمنيًا كما فعل عندما ذهب لرؤيته بأسيوط. ليمنحه مهلة أخيرة، مهلة واحدة فقط، وبعدها لن يلوم القصير إلا نفسه.

ضغط على زر الإرسال، ثم عاد إلى غرفة النوم، دخل الغرفة على رؤوس أصابعه واستلقى على السرير.

_ محمود، أنت مستيقظ؟ جاء صوتها رخيماً، قادمًا من عالم آخر. أجاب: سأنام بعد لحظات، عودي إلى النوم.

على الرغم من حرصه على أن تخرج الكلمات من فمه بنبرته المعتادة، إلا أنها شعرت بوجود شيء خاطئ، شيء ما يزعجه، هي متأكدة من ذلك، لا يوجد شخص في العالم قادر على استشعار الضيق في صوته غيرها هي، الأمر الذي كان كافيًا لإيقاظ بقية حواسها الخاملة.

_ محمود، ما الذي يقلق منامك؟

أجاب من جديد: لا شيء، لا تشغلي بالك.

قالت بإصرار: بل هنالك ما يقلقك، أخبرني ماذا هناك؟

كان يعرف أنها لن تستسلم بسهولة، لكنه لم يكن يملك أي إجابة مرضية، لذا فقد أثار الصمت. لكن صمته لم يزعجها على الإطلاق، هي أيضًا تعرف أنها على الأغلب لن تتمكن من الحصول على أي شيء منه، هذا هو الحال منذ شهور عديدة، وإن ظنت أنها تملك فكرة

جيدة عما يشغل باله هذه الأيام، لكنه كان بحاجة إلى دفعة بسيطة.
قالت: لا زالت القضية تؤرقك؟

كانت منال محقة في ما وصلت إليه، القضية شغلت باله كثيرا في الأيام الماضية، لكن ليس الليلة، إلا أن القضية شكلت بالنسبة لمحمود مخرجاً مثاليا. أجب: لا زلت أشعر بعدم الاقتناع بشأن المسار الذي ذهبت إليه التحقيقات.

قالت: هذا بسبب شريط المراقبة؟

_ بالطبع هذا جزء من كل، لقد شاهدت التسجيل ثلاث مرات، سيارة التويوتا السوداء ذات الدفع الرباعي التي يملكها سامح فهميم لم تغادر بوابة القصر منذ دخولها إلا بعد انتهاء الحفل، وعلى فرض أننا لم نتمكن من تحديد السيارة بدقة، فإن السيارات الثلاث الأخرى التي من نفس النوع لم تغادر كذلك حتى نهاية الحفل.

فكرت قليلا قبل أن تقول: ربما يكون استخدم سيارة أخرى؟

قال: فكرت في هذا الاحتمال، لكن المشكلة تتمثل في التسجيلات نفسها، فأى من الكاميرات الثلاث لا تظهر أي لقطة واضحة لوجوه الركاب، فالكاميرا الرئيسية مثبتة في أعلى البوابة بزواوية رؤية عمودية إلى الأسفل، تمكّنك من رؤية سقف السيارة من أعلى وهي تدخل أو تخرج من بوابة القصر ومن الصعب رؤية ما في داخل السيارة، حتى اللقطة الوحيدة التي يمكن فيها من رؤية السائق من الأعلى فهي لا تظهر الوجوه بوضوح. أما الكاميرات الثانية والثالثة فقد وضعت كل واحدة منهما على كل جانب من جوانب البوابة وقد وجهت إحدهما إلى اليمين والأخرى إلى اليسار في الاتجاه المعاكس، لكن المشكلة في كل منهما أن الشاشة موجهة بشكل أساسي لمراقبة أسوار القصر

خوفا من قيام شخص بتسلقها، ولا تظهر إلا جزءاً قليلاً من الشارع، وهو الجزء الأقرب من السور، وبالتالي فإنه يمكن بالكاد رؤية جزء من السيارة وبقليل من الحظ يمكن رؤية لوحة التسجيل في حال كان السائق يميل ليسير قريباً من الرصيف المحاذي لسور القصر. قالت: الأمر الذي يعيدك إلى نقطة البداية.

قال: بالضبط، فأنا لم أتمكن من دحض حجة الغياب التي يملكها سامح بشكل حاسم، ولكنني كذلك لست متأكدًا من صحتها، وهكذا تبقى كل الاحتمالات واردة. لكنني على أية حال أرسلت الأقراص المدمجة التي تحتوي على التسجيل إلى القسم الفني، ربما يمكنهم التوصل إلى فعل شيء.

قالت: أتعلم؟ لقد أصبحت أكثر قناعة بأن الزوج بريء. ابتسم وهو يقول: يبدو أننا نفكر بنفس الطريقة، لأنني أيضًا بدأت أميل لذلك.

أزاحت الغطاء عنها واستندت إلى مرفقها الأيسر وقالت وهي توجه نظرها إليه دون أن تتمكن من رؤية ملامحه بوضوح: ليس من العدالة أن يتم الزج بشخص في السجن دون وجود دليل قوي على إدانته.

قال موضحًا: إنه ليس مسجونًا، هذا يسمى حبسًا على ذمة التحقيق ولا يعني الإدانة.

_ مع ذلك يبقى أمرا مؤسفا.

فكر في أن هنالك الكثير من الأمور التي تجري والتي يمكن أن تشعر بالأسف حيالها ولكن ليس هذا الأمر، ما هذا إلا نقطة في بحر. قال:

النيابة لم تجد حلاً آخر سوى التوقيف، خاصة في ظل أقوال الفتى الصغير التي جاءت ضد مصلحة والده.

قالت بحزن واضح: الصغير المسكين، إنه الشخص الوحيد الذي يكسر الفؤاد في هذا الأمر كله.

تذكر محمود نهلة عمه الصغير وهي تذرف دموعها لأجله.

عادت لتستلقي على ظهرها فوق السرير وتنظر إلى السقف المعتم مثلما كان يفعل، قالت: أتعلم شيئاً؟ أتمنى أن يكون الوالد بريئاً، لمصلحة الفتى الصغير.

قال: أما أنا فأتمنى أن نتمكن من القبض على القاتل الحقيقي، مهما كانت هويته.

غادر محمود الغرفة بخطوات سريعة ومتوترة حالما رأى الاسم المكتوب على شاشة الهاتف. كان المتصل أحد الأشخاص من ماضيه القريب، وجد مكانا هادئا ليتحدث ثم ضغط على زر الإجابة قبل أن يفقد الاتصال، جاءت كلمات الترحيب الصادرة من سليمان سريعة ومقتضبة، على الرغم من الصداقة التي كانت تجمع بينهما عندما كانا زميلين في مكافحة المخدرات، أدرك محمود من أسلوبه في الحديث أنه لا يحمل أخبارًا جيدة. انتظر انتهاء عبارات المقدمة إلى أن وصل سليمان إلى مربيط الفرس.

_ لقد جاء حمدي القصير إلى القسم هذا اليوم وأخبر الرئيس أنك قمت بتهديده بالقيام بكشف أمره كمخبر لنا.

لم يرد محمود، واكتفى بالانتظار، تابع سليمان الحديث: لقد طلب مني الرئيس أن أتحدث معك بهذا الخصوص، لقد كان مزعجًا جدًا، ولا يفهم لماذا تحاول أن تهدم ما قمت ببنائه، أعني حمدي القصير، أنت قمت بتجنيده بنفسك يا رجل، وقد حققنا الكثير منذ ذلك الوقت، لقد حصلت على ترقية.

ثم أضاف بنبرة حانية: محمود، ما الذي تفعله بالله عليك؟ قال محمود أخيرا: ربما هذا يمنحك فكرة عن مدى جديتي في إيجاد السيف.

سادت لحظات أخرى من الصمت، بدا أن سليمان يحاول استيعاب ما سمعه، ثم قال: يا صديقي، لن أقول إنني أفهم ما مررت به فأنا

لم يسبق لي أن كنت في موقف مماثل، لكنها حادثة، قضاء وقدر، في هذا العمل هذا وارد الحدوث لأي منا و....
 قاطعه محمود: أنا لا أفهم ما الذي تعنيه، أنا غير مهتم إطلاقاً بما حدث بالطريقة التي تعتقدها.
 قال سليمان: إذاً ما المشكلة؟
 _ لا توجد مشكلة.

فكر سليمان، تردد قليلاً، ثم قال: هل أنت خائف حقاً من أن يأتي السيف لينتقم منك كما يقول القصير، لأنني أستطيع أن أؤكد لك أن هذا أمر بعيد المنال، فالس.....

قاطعه محمود من جديد وهو يكتم غضبه المتسارع خلف أنفاسه المتلاهثة: توقف، هذا أمر خاطئ جداً.

قال سليمان بانفعال ظاهر على صوته: إذاً ما الذي ترمي إليه من هذا كله؟ أنا حقاً لا أفهم.

قال محمود بلهجة جادة: سليمان، استمع إليّ، أنا لن أترك هذا الأمر، السيف يجب أن يكون خلف القضبان، وأنا المسؤول عن ذلك، هل فهمت الآن، أنا من تركه يفلت في المرة الأولى، وأنا من سيعثر عليه.

جاء صوت سليمان من الطرف الآخر أكثر حدة: يا رجل افهمني، كيف ستفعل ذلك وأنت لم تعد تعمل معنا بعد الآن؟ بل أنت لم تعد تعمل في المحافظة نفسها.

قال محمود: هذا أمر عائد إليّ، في حال رغبت أنت أو غيرك في مساعدتي فليكن، وفي حال لم ترغبوا في ذلك فسأقوم بالأمر على طريقي.

سادت هذه المرة فترة أطول من الصمت، في النهاية تكلم سليمان بعد أن استعاد رباطة جأشه: اسمع يا صديقي، كنت قد حضّرت أمراً قبل أن أقوم بمهاافتك، وسأخبرك إذاً ما الذي سنقوم بعمله، سوف أتابع مسألة السيف مع حمدي القصير بنفسي، وسأحاول إقناع الرئيس بأن حمدي القصير يخفي شيئاً، أمهلني بعض الوقت، وأنا سأعود لمكالمتك مرة أخرى، دع المسألة لي وابق بعيداً. لم يجب محمود، فعاد سليمان ليستحثه: محمود، هل نحن متفقون؟

أجاب محمود: حسناً، متفقون، لكنني لن أنتظر الكثير من الوقت، لذا تذكر هذا جيداً.

شك رئيس القطاع يديه فوق طاولة مكتبه، نظر إلى محمود وشريف اللذين كانا لا يزالان واقفين، كان في جلسته هذه جامداً كتمثال، لثوان عديدة لم يتحرك فيه أي شيء باستثناء مقلتي عينيه. اعتبر شريف أن عدم دعوته لهما بالجلوس يعد دلالة على مزاج حاد. قاما بالجلوس على أية حال، فعدم دعوته لهما بالجلوس لم تكن تعني أن يظلا واقفين للأبد، إلا أن أحدهما لم يسأل بعد عن السبب الذي طلبهما فيه للحضور إلى المديرية، أثار شريف الانتظار. أما محمود فلم يكن ذهنه حاضراً بعد ليتوقع أي شيء، إلا أن حواسه كلها تنهت فجأة بعد سماعه للعبارة الأولى التي نطق بها محسن.

_ لقد وصل تقرير المعمل الجنائي بخصوص قضية سمية شهاب.

رفع شريف رأسه ونظر إلى محسن دون أن يعرف ما الذي يمكنه أن يتوقعه، في حين كان محمود أقدر منه على الربط بين النقاط.

قال محسن: عينات الـ DNA المأخوذة من مسرح الجريمة بالإضافة إلى عينة الدم المجهولة بين أظافر الضحية لدى مقارنتها مع العينات المأخوذة من سامح فهيم، تبين أنها غير مطابقة.

اختلفت ردود الفعل الصادرة عن كلا المحققين، ما بين المفاجأة التامة والتوقع، لكن كليهما لم ينطق بأي كلمة بعد.

تابع محسن: بالإضافة إلى أنه قد تم العثور على بصمة مفردة في غرفة النوم، تحديداً على الخزانة في المكان الذي يفترض أن القاتل قد قام بسرقة صندوق المجوهرات منه، وبصمة أخرى مشابهة فوق طاولة معدنية صغيرة كانت موجودة بجانب الضحية، بصمة لا تعود لسامح ولا للضحية ولا لأي من قاطني الفيلا.

أزاح الملف الموجود أمامه جانباً، ثم قال: تعلمان ما الذي يعنيه هذا؟ أننا سوف نبدأ من جديد، سنعيد فتح القضية من نقطة الصفر، فسامح فهيم لم يعد مشتبهاً به بعد الآن، ويجب أن نبحث عن شخص آخر نقدمه للنيابة، ويجب أن يكون الشخص الصحيح هذه المرة.

قال شريف بنبرة دفاعية: لكن ماذا عن شهادة الطفل؟ لا بد من أنه سيتم أخذها بعين الاعتبار.

هز محسن رأسه نافيا وأضاف: شهادة الطفل لا تعني أي شيء، المكان كان مظلماً ومن الوارد أن الطفل قد تصور أن الشخص الذي رآه هو والده، خاصة وأنه لم يتحدث معه، وقام بالفرار من القبو، والآن

لدينا ما هو أهم بكثير من شهادة طفل غير معتد بها، لدينا أدلة شرعية.

قال شريف: لا تقلق يا سيدي، سوف نعمل بكل طاقتنا، نحن لم نقصر من الأساس.

قال محسن وقد استنتج ما يفكر فيه شريف: يا ابني ليس هناك شخص ملوم فيما حدث، لكن هنالك الكثير مما عليّ شخصياً التعامل معه. الصحافة لن تسكت، فالقتيلة واحدة من الوجوه البارزة في المجتمع، ومما زاد الطين بلة أن زوجها تم النج به في الحبس والتشهير به في الصحف، والآن بعد الإفراج عنه فإن كل الأنظار ستكون منصبة علينا، لن نحتمل أي إخفاق آخر.

قال شريف: لا تشغل بالك يا باشا، إن شاء الله لن يكون هناك أي إخفاق.

_ وكيل النيابة أصدر قرارًا بالإفراج فوراً عن سامح فهيم، ومنذ هذه اللحظة سوف تنهال المكالمات عليّ من كل حذب وصبوب، لن أستبعد أن يقوم وزير الداخلية بالاتصال بي بنفسه، هذا طبعاً عدا الصحافة، وعليّ أن أتعامل مع هذا كله.

زفر بعمق، ثم قال: بصمة في مكان الجريمة، هذا الشخص إما أنه غبي جداً أو مهمل جداً.

قال محمود: لا هذا ولا ذاك، معتد بنفسه جداً هو الوصف الأدق.

قال محسن: أكره هذا النوع من المجرمين الذين لا يحسبون حساباً لأحد، لكنني أفضل التعامل معهم.

فكر محمود قليلاً، ثم قال: أو ربما سوء مصنعية.

نظر إليه الرجلان في استفهام، تابع: قفاز قديم أوردىء الجودة، تمزق عند أحد الأطراف دون أن ينتبه القاتل لذلك.

قال محسن: أيًا كان الأمر سأكون سعيدًا بأي نتيجة، خلاصة الأمر، هنالك فرضيتان لا ثالث لهما، وسوف نقوم بالعمل على كليهما معًا.

الفرضية "أ"، أن شخصًا مجهولًا اقتحم الفيلا وقام بسرقة المجوهرات والنقود من الطابق العلوي وأثناء محاولته التسلسل للهروب فوجئ بالقتيلة فتحرك وفقا لخاطر وولد اللحظة وقام بقتلها خوفا من أن تقوم بالصراخ وكشف أمره، ثم فر هاربًا من نافذة القبو وهي المكان الذي يفترض أنه قد تسلل منه إلى الفيلا.

والفرضية "ب"، أن الشخص الذي اقتحم الفيلا لم يكن يقصد السرقة وإنما كان يرمي إلى ارتكاب جريمة قتل، وأن السرقة كانت مجرد تغطية على هذا الأمر، وفي هذه الحال فإننا يجب أن نفترض أن هنالك شخصًا قريبًا من الضحية ويملك الدافع الكافي لرؤيتها ميتة وهو من قام بالاتفاق مع القاتل لتنفيذ الجريمة، آخذين بعين الاعتبار أن جميع الأشخاص المقربين من الضحية يمتلكون حجة غياب قوية، ما لم يكن هنالك شخص يغيب عن أنظارنا لهذه اللحظة وهو من قام بتنفيذ الجريمة وحده، لكن في النتيجة فإن الضحية هي المستهدفة من الأساس وليس المجوهرات.

قال شريف: إذًا يا سيدي، وفقا للفرضية "ب" فإن سامح ليس مستبعدًا تمامًا عن الشبهات، فتحرياتنا أثبتت أن سامح كان يعاني من ضائقة مالية ومدين للعديد من البنوك، وأن العقارات التي يملكها شخصيًا قد تم عرض معظمها للبيع، يحتمل أن يكون متورطًا.

كانت ملاحظة متسرعة أخرى، رغب محسن في أن يصرخ في وجهه، لكنه قال بهدوء: الجميع في هذا السياق يمكن اعتبارهم مشتبهًا بهم على قدم المساواة، وليس سامح وحده.

ثم تابع موجّهًا حديثه إلى شريف تحديداً: لن تقترب من سامح مرة أخرى، ولن تستدعيه إلى هنا بأي شكل من الأشكال، وفي حال احتجنا إليه فبال تأكيد لن تقوم أنت بالتواصل معه، سوف نترك هذه المهمة لمحمود.

قال محمود، كأن سماع اسمه كان بمثابة إعطائه الدور ليتكلم: يمكننا التركيز على المسروقات بشكل أكبر، فسوف تشكل أثراً جيداً للوصول إلى القاتل في حال كان هدفه هو السرقة.

قال محسن: ما الذي لدينا عن المسروقات حتى الآن؟

أجاب محمود: للأسف لم نعثر على أي شيء، لكننا سوف نكتشف البحث أكثر، ومع وجود تقرير المعمل الجنائي فقد أصبح من الأسهل تحديد الجاني في حال كان أحد الأشخاص المسجلين لدى المراكز الأمنية من أصحاب السوابق في اللصوصية.

قال محسن: حسناً، هذا يبدو مشجعاً. سوف تقوم يا شريف بالعمل وفقاً للفرضية الأولى، يجب أن تتم بمتابعة أقسام الشرطة والتنسيق معها من أجل تكثيف التحريات حول أصحاب السوابق في حوادث السرقة التي من نفس النوع، والعمل على مقارنة البصمات والعينات مع قاعدة البيانات الموجودة لديهم. وأريد فريقاً من الطب الشرعي إذا استلزم الأمر، وأريدك أن تقوم بالأمر بنفسك ولا توكله إلى أحد المعاوين لديك.

أما محمود فسوف يعمل وفقا للفرضية الثانية، ستستمر في البحث عن الشخص المحتمل أن يملك شيئا ضد المجني عليها يدفعه إلى القيام بقتلها أو استنجار شخص ليقوم بذلك، هكذا سيكون لدينا خيارات أكبر.

كان شريف حانقا كفاية لأنه منح لرئيس القطاع سبباً مباشراً للتدخل بعمل يفترض أن يستقل هو ومعاونوه به، لكن الخطأ الذي ارتكبه كان غير قابل للتغاضي عنه، قال: لا تقلق يا سيدي، كل شيء سيكون تحت السيطرة.

قال محسن موجهاً كلامه إلى شريف من جديد: الأهم يا ابني أن تكون قناعاتك تحت السيطرة، أنا أعلم أنك لا تزال تؤمن في داخلك بأن سامح متورط في الجريمة، لكنني أريدك أن تقوم بإعادة النظر في القضية بحياد وموضوعية دون إقامة افتراضات مسبقة. أنت واحد من أكفأ المحققين الذين عملت معهم، لكنك تعتمد على حدسك أكثر من اللازم.

قال شريف وهو يهز رأسه متفهماً: مفهوم يا سيدي، سأكون عند حسن الظن.

كان هيثم يقف أمام مرآة حمام ذات حجم كبير وإطار ذهبي لامع وهو يقوم بحلاقة ذقنه التي نبتت كثيرا في الأيام القليلة الماضية. لقد انتهت أيام العزاء، وانتهى من تجهيز الديكورات ومن تأنيث جزء من الطابق العلوي للفيلا التي قام بشراؤها وانتقل أخيرا إلى العيش فيها، بأقساط ميسرة للغاية وعلى عشرين سنة كاملة، وإن كان

يخطط لأن يقوم بسداد كامل الثمن بفترة أقل بكثير من ذلك، بإمكانه الآن أن يمنح نفسه زيادة على راتبه، ولم لا؟ ربما يزيده إلى الضعف.

أعاد تنظيم الأمور في الشركة بسرعة قياسية ونصب نفسه على الجميع بصفته الزعيم الجديد والشخص الأمر الناهي، ومهيئاً نفسه لمرحلة ما بعد سامح وسمية، مرحلة هيثم بيه المدير العام لمجموعة شركات شهاب، وبالقليل من الدهاء والكثير من التخطيط، يمكنه أن يصبح مالك الشركة وتعود الحقوق إلى أصحابها مجددًا.

رنين جرس هاتفه الجوال أيقظه من شروده، ظل يستمع إلى نغمة الرنين القادم من الغرفة المجاورة وهو مستمر في إتمام ما يقوم به، إلى أن توقف تمامًا.

أنهى النصف الأيمن من وجهه ونقل شفرة الحلاقة إلى النصف الأيسر، انطلقت نغمة الرنين من جديد، ظل يستمع إليها دون اكتراث، ثم فكر في أنه ربما يجب عليه أن يقوم بإحضار خادمة للاعتناء بنظافة الفيلا بشكل منتظم بدلا من الاستعانة بوكالات تنظيف بين الفينة والأخرى، وربما بإمكان الخادمة أن تقوم بإحضار هاتفه إليه في حال رن هاتفه وهو منشغل في حلاقة ذقنه.

المرّة الثالثة التي سمع فيها رنين الهاتف جعلته يشعر ببعض التوتر، حدسه الداخلي تدخل هذه المرّة ليتغلب على عدم اكتراثه وينبئه بوجود أمر سيء، وضع شفرة الحلاقة جانبًا وخرج من الحمام واتجه نحو الغرفة المجاورة بذقن نصف حليقة، وقام بالرد على الهاتف قبل توقفه عن الرنين.

_ هيثم، أنت مشغول؟

أجاب هيثم بابتسامة على شفتيه: لست مشغولاً الآن.

قالت نادين من على الطرف الآخر من الهاتف: أنا أعتذر لك مقدماً
لأنني أحمل لك خبراً سيئاً.

مد يده اليسرى على رقبتيه وقام بإزالة بعض من معجون الحلاق
الذي سقط من ذقنه، قال: لا يوجد ما لا يمكن لهيثم شهاب
احتماله، ماذا هناك؟

_ سامح فهميم، لقد قامت النيابة بإخلاء سبيله.

_ أخلي سبيله؟ تقصدين بكفالة؟

قالت موضحة: أخلي سبيله دون أن توجه إليه أي تهم.

قال هيثم بغضب واضح: كيف يمكن أن يحصل هذا؟ لقد أكد لي
المحامي أن موقفه صعب للغاية وأن ابنه شاهده وهو يقوم
بالجريمة.

بقيت نادين محافظة على هدوئها دون أن تنقاد إلى نبرته التي علت
فجأة: سمعت أن البصمات والعينات التي أخذتها المباحث من مسرح
الجريمة لا تعود إلى سامح، إنما لشخص مجهول.

قال هيثم متسائلاً: القاتل ترك بصمات في مسرح الجريمة؟

_ ليس بصمات فقط، دم وشعر وعينات DNA، بقي أن يترك لافتة
باسمه وعنوانه، رغبت في أن تسمع هذا مني قبل أن تسمعه من أحد
آخر لأنني أعرف أنك ستكون غاضباً جداً.

قال هيثم وهو يحاول أن يتحلى بالهدوء على الرغم من خيبة الأمل
الشديدة: شكراً يا نادين، أقدر لك هذا.

_ حسناً، سأتركك وشأنك الآن لتفكر فيما عليك فعله.

أغلق هيثم الهاتف وقام بإلقاء نفسه على السرير، لقد كان خبيراً
سيئاً حقاً، خبيراً من الممكن أن يهدد ما خطط له. أخذ يضرب السرير
بقبضتي يديه وهو يردد كلمة غبي لأكثر من مرة، ثم رسم على محياه
ابتسامة ساخرة وهو يقول لنفسه: يا لها من فرحة لم تتم.

وجد بوابة الفيلا مفتوحة على امتدادها، قاد سيارته إلى الداخل دون استئذان وأوقفها تقريبا في نفس المكان الذي أوقفها فيه في المرة الأولى، في الفجر الذي حصلت فيه الجريمة. على بعد أمتار منه كان هنالك شاب متوسط الطول ببشرة سمراء غامقة وملامح ريفية، يرتدي جلبابًا بنيًا وقد عكف على غسل سيارة صاحب الفيلا التي كانت تقف في مساحة خاصة أمام باب الفيلا الداخلي، ألقى الشاب الخرطوم الذي كان يستخدمه لرش الماء على السيارة فوق حوض ترابي تسكنه عدد من الشجيرات الصغيرة وهرول باتجاه الضيف القادم وهو يمسح كفيه المبلولين بثنايا جلبابه.

_ محمود طلعت، مباحث قصر النيل.

قالها وهو يقوم بفتح باب السيارة ويدلف منها إلى الخارج، في حين رد الشاب بابتسامة ترحيب عريضة اعتاد على إظهارها للضيوف الذين يشعرونه بالقلق: أهلا وسهلا جنابك، تفضل.

قال محمود وهو يوجه بصره بين الشاب بالجلباب البني وسيارة التويوتا السوداء ذات الدفع الرباعي التي تقف على بعد عدة أمتار خلفه: السيد سامح موجود كما أفترض؟

قال الشاب: موجود جنابك، سوف أبلغه بقدوم جنابك حالا.

_ انتظر قليلا.

قالها محمود وهو يمस्क بساعد الشاب قبل أن ينطلق مبتعدًا،
وقف الأخير ينتظر في ترقب.

قال محمود: اسمك رجب، أليس كذلك؟

كان رجب في العشرينات من العمر، على الرغم من ميله نسبيًا إلى
النحافة إلا أنه كان يمتلك ذراعين ضخمين لفتا انتباه محمود حينما
أمسك به. أجاب والحيرة بادية على وجهه وصوته: في خدمة جنابك.
قال محمود بصوت مطمئن: يا رجب، كنت أرغب في أن أوجه إليك
بعض الأسئلة، بخصوص الجريمة.

قال رجب: تحت أمر جنابك، مع أنني كنت قد ذهبت إلى المركز قبل
أيام وقاموا بأخذ أقوالي كلها، كما قاموا بأخذ بصماتي ووضعوا شيئًا
يشبه القطن في فمي، لأخذ عينة لعاب كما قالوا لي، وقام أحدهم
بكشط ورقة على خدي، أنا جنابك في الوقت الذي حصل فيه ما
حصل كنت في إجازة زواج، قمت بقضاءها عند أهلي في المنيا.
_ آه صحيح، ألف مبروك.

قالها محمود وهو يبتسم، الأمر الذي بث الارتياح في نفس رجب للمرة
الأولى منذ وقوفه مع رجل المباحث الغريب.
_ ربنا يبارك فيك يا جناب الباشا.

سأله محمود وهو لا يزال يبتسم: ما سر استخدامك لهذه الكلمة؟

سأل رجب: أي كلمة جنابك؟

_ هذه الكلمة، جنابك، لست عالما باللغة ولكنها تبدو لي كلمة عتيقة
بعض الشيء.

أجاب رجب بمنتهى العفوية: أظن أنني ورثتها عن المرحوم والدي،
والدي الله يرحمه كان يتولى العناية بهذا المكان، واستلمت أنا المهمة

منذ سنتين بعد وفاته مباشرة، لكنني معتاد على هذا المكان والمكان أيضاً معتاد على وجودي فيه، أنا آتي إلى هنا مع والدي منذ كنت طفلاً صغيراً.

قال محمود: رائع، أظنك تعرف كل شاردة وواردة تحصل في الفيلا. أجب رجب ببعض الحذر: يعني، القليل من هذا وذاك.

قال محمود: حسناً، لا بأس بذلك القليل.

إلا أن رجب فهم التلميح، استجمع شجاعته وقال: لكن لا يمكنني أن أخوض بما يحدث داخل أسوار الفيلا جنابك، هذه أسرار أنا مؤتمن عليها.

هز محمود رأسه متفهماً، لكنه في حقيقة الأمر لم يكن كذلك. سأله:

قل لي يا رجب، ما هو رأيك بما حدث؟

قال رجب وقد داهمه الحزن فجأة: ما حصل مأساة يا جناب الباشا، السيدة سمية رحمها الله كانت امرأة طيبة ومنقفة. ولا تستحق ما حدث معها، منه لله الذي كان السبب.

قال محمود: ومن تعتقد أنه فعل هذا؟

أجاب: اللصوص بالتأكيد يا جناب الباشا.

قال محمود: أنت محق تماماً، وأنا أتفق معك في ذلك، ولكن اللص الذي يتمكن من التسلسل إلى الفيلا في الوقت الذي يكون فيه الحارس غائبا في إجازة، وصاحب الفيلا مدعوًا إلى حفل ساهر، وبنفس الوقت يعلم بوجود صندوق مجوهرات في غرفة النوم، ويتوصل إلى طريقة للدخول إلى الفيلا عن طريق شباك تهوية صغير يقع في مكان غير ظاهر يؤدي إلى قبو الفيلا، ويكون جاهزا بالمعدات اللازمة ليفتح باب القبو الذي يكون مغلقاً دائماً. مثل هذا اللص الساحر بالتأكيد

يعرف الكثير عن ساكني الفيلا وعاداتهم، وعن موجودات الفيلا ومدخلها، والذي ربما كان خطأه الوحيد هو عدم توقع خروج الضحية لمرافقة زوجها إلى الحفل. ربما اللص نفسه، وربما أن هنالك شخصاً ما قام باعطائه جميع الإرشادات اللازمة، شخص معتاد على المكان والمكان معتاد عليه، ولكنه حرص على أن يكون بعيداً عن الأنظار وقت حدوث الجريمة.

ثم سدد نظرة مباشرة إلى عيني رجب وهو يقول: ألا تظن ذلك؟
بقي رجب صامتا للحظات، لم يعجبه قيام المحقق باستخدام تعبيراته الخاصة، خرجت الكلمات من فمه دون أن يشعر: من هو هذا الشخص؟

قال محمود: هذا هو سؤال المليون دولار، ألا تظن ذلك؟
ثم ربت على كتف رجب مرتين وهو يقول: سوف نتحدث لاحقاً، لا زال للحديث بيننا بقية.

قال رجب متابعا محمود بعينيه وهو يتجه إلى باب الفيلا دون أن يتحرك ليعلم من في الداخل بقدوم الضيف كما هي العادة:
الذي تراه مناسباً جنابك.

مد سامح يده إلى محمود وصافحه بحرارة كأنه يصافح صديقا قديماً، الأمر الذي فاجأ محمود للغاية كونهما لم يلتقيا سوى مرة واحدة من قبل، لكنه أدرك أنه الآن يقف أمام رجل مختلف تماماً عن ذلك الشخص الذي كان عليه في المرة الأولى، رجل ذكي واجتماعي

وسهل المعشر، لكن مسحة الحزن التي اكتسى وجهه بها كانت ظاهرة للعيان.

جلسا في الصالة التي في الردهة، لاحت من محمود التفاتة باتجاه البقعة التي كانت تستلقي فيها جثة صاحبة المكان. لكنها كانت خالية تماما، ونظيفة.

قال سامح بعد أن انتهى محمود من تفقد المكان بعينه: نحاول أن نتعامل مع ما حدث بشكل طبيعي قدر الإمكان، من أجل الفتى الصغير، حتى لا يشعر بأي شيء، على الأقل إلى حين القيام ببيع الفيلا والرحيل إلى الأبد.

_ تنوي بيع الفيلا؟

أوماً سامح برأسه موافقا، قال بعد برهة: في الحقيقة لازال الأمر في طور التفكير، لم أتخذ قراراً نهائياً بعد بشأن كل شيء، نحن بحاجة إلى الوقت، لا أريد أن يكون هذا القرار بدافع العاطفة والحزن، يجب أن أفكر بالأمر جيداً وأدرسه من كافة الجوانب.

قال محمود: أنا أفهم تماماً، لقد عانيتما أنت والصغير بما فيه الكفاية.

أطلق سامح تهيدة، قال وهو يدير رأسه لينظر إلى المكان الذي قتلت فيه زوجته ويتأمله للحظة: كان من الصعب علي جداً أن أتغيب عن حضور الجنازة، الأمر برمته كان لا يصدق.

شعر محمود في هذه اللحظة بأنه يتوجب عليه قول شيء ما. قال: سوف نقوم بالقبض على الشخص الذي فعل ذلك، نحن نقوم بتتبع عدد من الخيوط وبالتأكيد سوف نتوصل إلى شيء ما.

قال سامح وهو يبتسم: أنا متأكد من أنكم ستفعلون ذلك.

إلا أن ابتسامته كانت مصطنعة، وعبارته كانت تفتقر إلى الصدق، أدرك محمود أنه لم يكن متأكدًا على الإطلاق، بل على العكس، شعر بأن سامح يؤمن في داخله بأنهم لن يتمكنوا من الإمساك بالقاتل أبدًا.

قال محمود: كنت أرغب في أن أحصل على القائمة التي تحتفظ بها والتي توجد بها تفصيلات لقطع المجوهرات المسروقة، القائمة التي بحثت عنها في غرفة مكتبك في اليوم الأول ولم تقم بإيجادها، إضافة إلى كافة الصور التي لديك.

_ نعم، لقد وجدتها بالأمس فقط.

_ لقد حضرت لأخذها بنفسني، تماما كما وعدتك بأنني سوف أفعل.

قطب سامح حاجبيه، بدا أنه لم يتذكر أن المحقق قطع على نفسه مثل هذا الوعد سابقا، إلا أنه قال: شكرا لك حضرة المحقق، سوف أحضرها من المكتب حالا.

توجه سامح إلى غرفة مكتبه، في حين عاد محمود ليتجول ببصره في أنحاء المكان، سمع صوت خطوات قادمة من الأعلى، استقرت عيناه على نهلة وهي تنزل السلالم وهي تمسك بيد هاني الصغير.

قالت وهي تقترب منه: شكرا لحضورك يا سيدي.

لم تكن تعلم بالتحديد السبب الذي استدعى حضوره، إلا أنها كانت تبدو ممتنة لحضوره بالرغم من ذلك.

تقدم الفتى الصغير ومد يده مصافحًا محمود كأنه ضيف معتاد، رفع كفه إلى الأعلى وهوى بها بقوة على كف محمود، ثم انسحب ليجلس على الأريكة المقابلة، وأخذ ينقر بأصابعه فوق جهاز آي باد أزرق صغير الحجم. كان يرتدي تي شيرت كحلي اللون خاص بأحد

فرق كرة السلة الأمريكية، وقبعة من نفس النوع عليها صورة لطائر ما. جلست نهلة بجانب الصغير.

قال محمود مخاطبًا الصغير وقد لفتت الملابس انتباهه: قبعة جميلة أيها الصغير.

رفع الفتى عينه عن شاشة الأبياد وقال وهو يبتسم: إنها قبعة فريق أوريانز، أنا وأبي اشترينا نفس القبعات.

قالت نهلة موضحة: يقصد فريق كرة سلة نيو أورليانز، لقد أخذه سامح لحضور مباراة في كرة السلة الأمريكية في آخر مرة كانوا فيها في الولايات المتحدة، وقاما بشراء هذا الزي لكليهما لحضور المباراة، سامح يعشق كرة السلة منذ أيام دراسته للهندسة في جامعة لويزيانا.

قال الفتى مضيئًا في حماس: هل تعلم أن الطائر على القبعة والقميص اسمه بجعة.

قال محمود: لا، لم أكن أعلم.

قال الصغير: يوجد هناك الكثير من البجعات، كنت أضع لها الطعام أحيانًا.

ثم عاد لينشغل في الجهاز الذي بين يديه وكأن شيئًا لم يكن. في حين توجه محمود بكلامه إلى نهلة، سألها باهتمام صادق: كيف هي معنوياتهما الآن؟

_ الحمد لله، سامح لا زال حزينًا بالتأكيد، لكنه سوف يتجاوز الأمر في النهاية.

ثم أضافت وهي ترنو إلى الصغير بعينين حانيتين: وهذا الفتى الشجاع سيكون بخير كذلك.

راقب محمود سامح وهو يخرج من المكتب ويسير باتجاه الصلاة، قال: ربما أشعريا سيدتي بأني بحاجة إلى الإجابة عن بعض الأسئلة، تعلمين كيف هو عمل الشرطة.

قالت متفهمة: بإمكانك الاتصال بي في أي وقت، لن أتوانى عن تقديم أية مساعدة ممكنة.

اقترب سامح من محمود وناولته مجموعة من الأوراق والصور، تناولها منه محمود وهو يتهيأ للوقوف.

_ سوف أنصرف الآن وأترككم لشؤونكم.

_ إلى أين يا حضرة المعاون، لم تشرب شيئاً بعد، الخادمة تقوم بإعداد القهوة حالياً بينما نحن نتحدث.

لم يتمكن محمود من التأكد فيما إذا كان سامح صادقاً حقاً في عرضه أم أنه قال ما قاله من باب المجاملة والأدب، لكنه لم يكن ينوي المكوث أكثر بكل الأحوال، قال: لدي عمل ينبغي إنجازه، ربما نقوم بذلك في وقت آخر.

قال سامح وعلى وجهه ابتسامة عريضة: أنا أتطلع إلى ذلك.

مرة أخرى لم ينجح محمود في معرفة ما إذا كان سامح صادقاً أم لا، في حين قالت نهلة وهي تقف قبالة: اسمح لي بالقول يا سيدي، أنت رجل طيب، من الصعب التصديق بأن هناك رجل شرطة حسن التعامل مثلك، أنت الشرطي الوحيد في هذه المحنة الذي لم يتعامل معنا كمتهمين، لذلك، أشكرك كثيراً.

إلا أن محمود لم يشعر بالغبطة جراء هذا المديح، شعر فقط بالأسف الشديد. قال: أنا متأكد من أنه لا زال هناك الكثير من الرجال الطيبين.

قال سامح وهو يبتسم بمرارة: للأسف، ظنك في غير محله.
هذه المرة بدا صادقاً تماماً.

كان رجب الحارس عند خروج محمود من باب الفيلا يقف في الطرف الأبعد من الحديقة منشغلاً بسقاية إحدى الشجيرات، إلا أنه كان يهدف إلى الابتعاد عن طريق رجل المباحث، رآه خارجاً بطرف عينه ثم أبقى أنظاره معلقة أمامه دون أن ينظر إلى الخلف مرة واحدة، التفت محمود إلى اليسار وسار باتجاه سيارته.

سيارة فولكس بيتل حديثة ذات لون أقرب إلى الأرجواني وقفت في المكان الفارغ بجانب سيارته، خرجت منها فتاة ذات شعر أحمر وترتدي بزة سوداء ضيقة وتحته قميص حريري أبيض، وتضع نظارة شمسية سوداء عدساتها دائرية، وبين يديها ملف شفاف بداخله مجموعة من الأوراق.

لم يبد أنها عرفتة للوهلة الأولى، إلا أنها في منتصف الطريق توقفت فجأة وقد بدا عليها بعض الارتباك، إلا أنها استدركت الأمر بسرعة وتابعت السير كأن شيئاً لم يكن، كان في نيّتها تجاهله ومتابعة السير لكنه استوقفها. تظاهرت نادين في البداية بأنها لم تتعرف عليه، ثم سرعان ما تذكرت.

_ سيارة جميلة، هل أنت من اختار لها هذا اللون؟

بدا رجل المباحث لطيفاً جداً على نحو مثير للشكوك، هكذا فكرت، قالت مجيبة: لقد كان لونها أسود عندما اشتريتها، وأنا أكره اللون الأسود، لذا اخترت لها لوناً أكثر حيوية.

لاحظت أن محمود ينظر إلى ملابسها فقالت معلقة: لا أردتي اللون الأسود إلا في الأوقات التي تناسب ذلك، لكنه ليس لوني المعتاد.
 _ أنا متأكد من ذلك. قالها وهو يفكر في الشعر الأحمر.
 _ لكنني لا أعتقد أنه سبق لي أن شاهدت سيارة بمثل هذا اللون.
 كانت قد بدأت تشعر بالضيق، لكنها كانت ناجحة في إخفائه، بل الأكثر من ذلك، في التظاهر بالمرح: لقد كان هذا لون ملابس أول دمية أتذكر أنني حصلت عليها في حياتي، بقي اللون في ذهني منذ ذلك الحين وأصبح من ألواني المفضلة.
 _ أمر لطيف حقًا.

لم تكن نادين ترتدي حذاءً بكعبٍ عالٍ، لكنه لاحظ أنها تتمتع بطول فارغ، كانت أطول منه ببوصة أو اثنتين، وتملك جسمًا رياضيًا. حاول أن يسترق النظر إلى الأوراق التي تحملها بين يديها وقد أسندتها إلى صدرها، لكن انعكاس الشمس على الغطاء الشفاف للملف لم يمكنه من قراءة ما تحويه الورقة الظاهرة أمامه، تمكن من تمييز الكثير من الأرقام. قال معلقًا: يبدو أن هنالك الكثير من العمل المتراكم.
 _ أحاول أن أحضر له الأوراق التي تحتوي على أعمال الشركة المهمة حتى يتمكن من الاطلاع على ما فاته عندما كان ضيقًا لديكم. قالت عبارتها مشددة على الكلمة الأخيرة بنبرة اتهامية.

سألها بأسلوب حرص على أن يبدو تلقائيًا: هل أنت معتادة على إحضار العمل إلى الفيلا؟

لكن تلقائيتها لم تفلح، فترة المجاملات والأسلوب الودي انتهت بالنسبة إليها، قالت بنبرة حادة: في الأوقات التي أضطر فيها إلى ذلك ويكون الأمر عاجلاً، وعلى فكرة، أنا أقوم بذلك منذ أن كانت

المرحومة تعمل في الشركة وهذا الأمر كان مألوفاً لها. هل هناك أمر آخر أياها المحقق؟

ابتسم، ثم ابتعد عن طريقها. كانت قد سارت مبتعدة عنه بعدة خطوات عندما استوقفها مجدداً.
_ صحيح، ماذا حل بتلك الدمية؟

التفتت إليه مستفهمة، قال موضحاً: الدمية الأولى التي حصلت عليها وأنت صغيرة، لا زلتِ تحتفظين بها؟

كان الغضب قد بدأ يشتعل في داخلها، لكنه لم يجد طريقه إلى الخروج. قالت: صديقة لي في المدرسة قالت لي إنها دمية سخيفة، وإن مظهري يشبه الدمية في سخافته، لذلك قمت بتحطيمها بالمطرقة حتى تفتت إلى قطع صغيرة. صغيرة جداً.

_ صديقتك أم الدمية؟

نظرت إليه بغضب، قالت وهي تكشف عن أنيابها: الدمية بالتأكيد.

الفيلا التي اشتراها هيثم شهاب تقع على أطراف الجاردن سيتي، كانت مساحة هذا البناء والعديد من الأبنية التي من حوله عبارة عن صحراء قاحلة قبل سنوات قليلة جداً، والآن أصبحت امتداداً لأحد أرقى الأحياء في البلاد.

لاحظ محمود أنها كانت تبدو أشبه بمكان مهجور من الخارج، لم تكن الأسوار مكتملة بعد، ولم تكن توجد هنالك بوابة خارجية، أما المساحة الملحقة بالبناء فقد كانت صغيرة الحجم، تقسمها من المنتصف طريق مرصوفة، أحد نصفها عبارة عن مساحة ترابية لا زالت مزروعة حديثاً، وقد نبتت بعض الزروع والشجيرات صغيرة الحجم في معظمها، لكن دون وجود لأية أشجار مكتملة النمو بعد، أما النصف الآخر فقد كان يحتوي على بناء حديث صغير الحجم وغير مكتمل، الأمر الذي دفع محمود إلى التفكير في أولويات هيثم، تجهيز الفيلا من الداخل أولاً، ومن ثم التفكير في الملحقات، كانت أشبه بقصر في منتصف خرابة.

إلا أن الطريق المرصوفة الممتدة من الخارج إلى الباب الداخلي للبناء كانت مكتملة ونظيفة شأنها كشأن العقار الرئيسي، وفي نهايتها كانت هنالك مساحة صغيرة مرصوفة حديثاً كذلك، وقد اصطفت فيها سيارتان متجاورتان، تمكن محمود من التعرف على إحدى السيارتين، المرسيديس التي يملكها هيثم شهاب.

ركن محمود سيارته خلف سيارة المرسيديس، ثم خرج منها وأخذ يتفحص المساحة التي حوله، سارتارًا المساحة المرصوفة خلف ظهره ليدوس فوق التراب باتجاه أحد طرفي المساحة الأمامية حيث كان هنالك بناء لا يزيد حجمه عن مساحة غرفتين، إلا أنه لم يكن مدهونا بعد مثل السور المحيط بالمكان، ولم يكن عليه أية أبواب أو شبابيك أو آثار للحياة بعد.

بجانب البناء الصغير كان يوجد صفان من الطوب وبعض أدوات البناء، عربة قديمة من الصفيح ومجرفتان بالإضافة إلى كومة كبيرة من التراب الأبيض وعدة أكياس من الأسمنت.

لاحظ محمود كومة من الوحل في طريقه دفعته إلى تغيير رأيه في الاقتراب أكثر، استدار وأخذ يسير في الاتجاه الآخر حيث المساحة المخصصة للزرع، هذه المرة تمكن من الاقتراب أكثر. كانت الأرض محروثة بعناية في نظام متسق، باستثناء مساحة صغيرة منها، لاحظ وجود نظام ري أوتوماتيكي يغطي كامل المساحة المزروعة حديثًا.

سمع صوتا خلف ظهره يتحدث بصوت عال: أية خدمة يا أستاذ؟ كان هيثم يقف عند باب الفيلا، وإلى جانبه رجل أقصر منه ويرتدي نظارة طبية، لم يتعرف هيثم على محمود للوهلة الأولى، لكنه عرفه عندما بدأت خطواته تقترب باتجاههما.

_ حضرة الضابط، أهلا.

جاء ترحيبه بلهجة جافة لم يحاول إخفاءها، كان لا يزال يشعر بالغيظ منذ أن سمع بخبر خروج سامح من السجن قبل يومين وقد توجه تفكيره باللوم إلى تقصير الشرطة في أداء واجباتها.

تابع قائلاً وهو يصافح محمود: أنت محظوظ لأنني لا أحمل معي مسدسي وإلا لكنت أطلقت عليك الرصاص لتعديك على ممتلكات الغير.

قال عبارته الأخيرة قاصداً المزاح، لكن محمود فكر في أنه لم يكن يمزح قط، في حين أن الرجل الآخر بدا خائفاً.

قال محمود: ربما يجدر بك وضع بوابة وبعض الأقفال أولاً قبل أن تبدأ في إطلاق الرصاص على الناس.

شعر هيثم بأن رجل المباحث يسخر منه، فقال محتجاً: البوابة سوف يتم تركيبها خلال يومين، أنت ترى بنفسك أن أعمال المقاولات لم تنته بعد، لقد غادر العمال منذ قليل، لو بكرت قليلاً لشاهدتهم بأعينك.

رفع محمود كتفيه إلى الأعلى ثم خفضهما مجدداً للدلالة على عدم اهتمامه، ثم صوب نظره مبالغته باتجاه الرجل الآخر الذي نظر إلى الأسفل لتجنب التقاء عينيه بعيني المحقق.

_ أنت تعمل في شركات شهاب، أليس كذلك؟

أجاب الرجل وعلى وجهه شيء شبيه بالابتسامة: سمير طاهر، المدير المالي للمجموعة.

_ صحيح، لقد تذكرتك، لقد قرأت إفادتك، ألسنت أنت الذي ذكرت أنك لا تعرف أي شيء عن رؤسائك في العمل يتعدى حدود المكتب ولم يسبق لك أن التقيت بأي منهم خارج الشركة؟

ظهرت قطرة عرق كبيرة على الجبين الأيمن لسمير، تابع محمود: الأمر الذي يجعلني في غاية الدهشة أن أراك تلتقي بأحد رؤسائك في العمل خارج حدود الشركة.

نظر حوله، بالغ في الضغط على الرجل، قال: ما لم يكن هذا المكان تابعاً للشركة.

لم يجب سمير، لكن قطرة العرق الكبيرة قد انحدرت لتصل إلى أسفل ذقنه دون أن يحاول مسحها.

تدخل هيثم ليمسك بزمام الحديث، قال بجلافة: لم تخبرني يا حضرة الضابط بسبب هذه الزيارة المفاجئة.

_ لا شيء مهم، كنت فقط أرغب في أن أطرح عليك سؤالاً أو اثنين. قال هيثم وقد ظهر بعض الاستعلاء في صوته: كان يمكنك الاتصال قبل مجيئك، لكي أرتب لاستقبالك بشكل لائق على الأقل.

_ كنت ماراً قريباً من هنا على أية حال، ووجدت الفرصة مواتية لكي أشاهد الفيلا الجديدة.

ثم قال مضيئاً وهو يصوب بصره باتجاه كومة من الخردوات التي كانت متراكمة أمام البناء الصغير غير المنتهي: فقد تولد لدي انطباع في مكتبك بالشركة بأنك تمتلك ذوقاً جيداً لذا رغبت في أن أشاهد ذلك بنفسني.

قال هيثم وهو يكتم غيظه بالكاد: ربما يمكنك المجيء في وقت لاحق عندما أنتهي من أعمال المقاولات، سأقوم بإقامة حفل لهذه المناسبة، يمكنك أن تعتبر نفسك مدعوًا إليه منذ الآن.

_ سأحضر بالتأكيد، لكن لنرجئ الحديث في هذا إلى وقت آخر، لدي فقط سؤالان وسأمضي في طريقي.

قال هيثم وهو يفسح المجال لمحمود للدخول: لندخل لنحدث في الداخل.

قال محمود دون أن يتحرك من مكانه: لا داعي لذلك، لن آخذ الكثير من وقتك، أردت فقط أن أعرف ما إذا كنت على استعداد للحضور إلى مقر المديرية ليقوم الخبير الجنائي بأخذ بصمات يدك وبعض العينات الأخرى، مجرد إجراء روتيني لا أكثر.

قال هيثم وهو يصك على أسنانه: هل أنا متهم الآن، لم تتمكنوا من إثبات التهمة على سامح وتبحثون عن أي شخص آخر ليحمل القضية.

_ لا شيء من ذلك على الإطلاق، قلت لك إنه مجرد إجراء روتيني لا أكثر، في حال وجود أي آثار في مسرح الجريمة ونحن نفعل ذلك مع الجميع، خاصة مع عدم وجود أي شخص محدد، لقد فعلنا ذلك مع البستاني الذي يعمل لدى المهندس سامح، ربما يمكنك أن تكلمه لتتأكد.

_ لن أكلّم البستاني.

قال محمود وهو ينظر إلى قبضة يد هيثم التي تكورت بشكل لا إرادي: إذا، ما لم يكن لديك اعتراض على هذا الإجراء، عندها سأضطر إلى إحضار إذن من النيابة للقيام بذلك، لكني فكرت في أن أطلب منك ذلك بصورة ودية.

تمكن هيثم من السيطرة على أعصابه، عادت قبضة يده لترخي إلى جانبه. قال: بالتأكيد يا حضرة الضابط، لم لا؟ فأنا ليس لدي ما أخفيه، نحن دائمًا في خدمة العدالة وممثلها.

_ وربما يمكنك أيضًا أن تترك بيانات الأشخاص الذين كنت موجودًا معهم في الشاليه في وقت حدوث الجريمة.

عض هيثم على أسنانه من جديد، ثم قال: بالتأكد، إنهما صديقان قديمان لي، وقد قضينا الليلة بأكملها معًا، يمكنكم الاتصال بهما للتأكد.

قال محمود: لا أعتقد أننا سوف نحتاج إلى ذلك في الوقت الحالي، لكن طالما أنك ستذهب إلى القسم يمكنك أن تترك بياناتهما على سبيل الاحتياط.

مط هيثم شفتيه، قال: حسنا، سأفعل ذلك في الغد، أية أوامر أخرى؟

ظل سمير ساكنا تمامًا طوال ذلك الوقت، تدبر أمر أن يبقى غير مرئي، إلى أن وجد الفرصة أخيرًا ليتحدث مستغلا لحظة سكوت طالبت قليلا: اسمحوا لي بالانصراف.

التفت إليه محمود وتأمله كأنه يراه لأول مرة. قال: أتعلم؟ لا زلت أشعر بالدهشة جراء مشاهدتك هنا.

ثم أضاف بلهجة بطيئة: مع رئيسك في العمل، وخارج حدود مكان العمل. كان وترًا أحب العزف عليه.

فتح سمير فمه ليتكلم، لكن هيثم تدخل مقاطعًا من جديد: لقد كان يقوم بإحضار بعض الأوراق المهمة لكي أقوم بتوقيعها، فأنا كنت منشغلا بالعزاء والآن منشغل بتجهيز الفيلا ولم أجد الوقت الكافي للذهاب إلى الشركة سوى في مرات قليلة.

قال محمود وهو يرفع حاجبيه إلى الأعلى: صحيح، أليس هذا شيئًا مألوفًا هذه الأيام، قيام الموظفين بإحضار العمل إلى منازل المدراء، أم أن اليوم هو يوم إحضار العمل إلى المنازل؟

ثم أضاف متسائلاً وهو ينظر إلى يدي سمير الخاليتين إلا من هاتفه الجوال: لماذا لا تحمل معك ملف أوراق شفاف أنت أيضاً؟
نظر إليه كلاهما في دهشة، قال سمير متسائلاً: عذراً يا سيدي لم أفهم، لماذا يجب عليّ أن أحمل ملفاً شفافاً؟
قال محمود: لا عليك بهذا الأمر، المهم، ربما نحتاج إليك لتقوم بتشريفنا بزيارة أنت أيضاً.
قال سمير دون أن يهتم بإخفاء توتره بعد حدوث ما كان يخشاه منذ البداية: لماذا يا سيدي؟ أنا قلت كل ما لديّ لزملائك عندما حضرتكم في الشركة.

_ لا بأس، يمكنك أن تعيد ما قلته مرة أخرى.

اكتفى سمير بالصمت دون أن يعقب، خشي أن تسوء الأمور بشكل أكبر مما كانت عليه، في حين توجه محمود بكلامه إلى هيثم: أنا مضطر إلى الانصراف الآن.

قال هيثم ببرود: شرفتنا بحضورك يا حضرة الضابط.

قال محمود وهو يشير إلى المنطقة المزروعة من الساحة: بالمناسبة، شخص ما كان يعبث في حديقتك، توجد مساحة تبدو مهملة وغير محروثة بشكل جيد.

ثم استدار وأخذ يسير باتجاه سيارته، في حين قال هيثم باستعلاء: على فكرة، لقد لاحظت هذا الأمر منذ أيام، هل تعلم ماذا فعلت بشأن ذلك؟

لم يتوقف محمود أو يستدير، فقال متابعاً بصوت أعلى: قمت بطرد البستاني واقتطاع نصف أجره، ولم ألتفت إلى توسلاته وادعائه بأنه لم يرتكب أي شيء خاطئ.

شعر هيثم بعدها ببعض الارتياح بعد انتهاء عبارته الأخيرة، في حين قام محمود بفتح باب سيارته وهو يقول لنفسه: ياله من بستاني سعيد الحظ.

ظل سمير صامتا وهو يقوم بمسح عرقه بظهر يده ويراقب سيارة محمود وهي تمضي مبتعدة إلى أن اختفت عن الأنظار، ثم قال أخيراً وقد بدا أكثر اضطراباً مما كان عليه في حضور رجل المباحث: ما العمل الآن؟ هذا الرجل يبدو أنه سوف يضعنا في دماغه.

نظر إليه هيثم بشيء من الازدراء دون أن يتكلم، الأمر الذي زاد من توتره إلى حد الارتعاش، فقال متابعاً: الشرطة لن تهدأ حتى تقوم بقلب كل شيء رأساً على عقب، يجب أن تفعل شيئاً.

قال هيثم بنفاد صبر: أيها الأبله، لا أصدق مدى صغر عقلك، لن يصيبنا أي شيء ما لم تكشفنا بجبنك وخوفك.

ثم دلف إلى داخل الصالة، لم تكن الأرضية مفروشة بالسجاد بعد، وقد خلت معظم المساحة من الأثاث، اتجه نحو طاولة مستطيلة كبيرة الحجم وتناول علبة سجائر موضوعة على الطاولة، قام بإشعال سيجارة ثم ألقى بالعلبة بعيداً لتسقط على الأرض.

الثقة التامة التي كان يتحدث بها هيثم أشعرت سمير ببعض الارتياح على الرغم من الشتائم التي تلقاها، تناول سمير العلبة من على الأرض وقام بإشعال سيجارة لنفسه ووضع العلبة فوق الطاولة وهو يقول وقد بدا أقل توتراً: لا أفهم سر برود أعصابك.

رد عليه هيثم: وأنا لا أفهم سبب خوفك الشديد وكأن الشرطة قادمة لاعتقالك في التو واللحظة. الشرطة لديها بصمات وعينات DNA

الخاصة بالقاتل، وبالتالي فإنها لن تقوم برمي الاتهامات هكذا جزافاً، هذه مجرد ألعاب ذهنية.

قام سمير بأخذ عدة رشقات سريعة من فوهة سيجارته، ثم قال: لكن ماذا لو فكروا في..... قاطعه بحزم: لن يفكروا.

_ لكنه بدا مهتماً جداً بالتحقيق معي.

_ وما الذي تخشاه؟ في أسوأ الأحوال سوف يطلبون منك ما طلبه الضابط مني للتو، ويقومون بأخذ عينات من بصماتك وحمضك النووي، وعندما يجدون أن النتيجة سلبية سوف يتركوك وشأنك، ليس ضابط الشرطة هو الشخص الذي يجب علينا أن نخشاه، إنما الخطر الأكبر هو ذلك الداهية اللعين سامح.

ألقي عقب السيجارة على الأرض على الرغم من وجود منفضة سجائر فوق الطاولة، وداس عليها بشدة وهو يقول: لكنني متأكد من أنني سوف أجد له حلاً.

هز سمير رأسه موافقاً، غير أنه لم يكن يكثر بالتفكير فيما يمكن أن يحدث في المستقبل، كل ما كان يهيمه الآن هو الخروج من هذه الورطة.

قال هيثم ملقياً الوصية الأخيرة على سمير: المهم، في حال كان الضابط صادقاً في كلامه، وقاموا باستدعائك من جديد، إياك أن تشعر بالخوف، هم لن يسألوك عن أي شيء يتعدى الجريمة، ولكن إذا ما شعروا بخوفك سوف يقومون بتحطيمك، إنهم يملكون حاسة شم قوية، هل تفهمني؟ قوية جداً، ويمكنهم أن يشموا رائحة الخوف

في عرقك، لا تجعلني أندم لأنني قمت بالاستعانة بك من الأساس، هل تفهمني جيداً؟

أجاب سمير وقد استعاد أخيراً البقية الباقية من رباطة الجأش: أفهمك جيداً يا كنج، يمكنك الاعتماد عليّ صدقاً.

إلا أن هيثم كان يخامرهُ الشك، سمير كان شخصاً سهل الانقياد ويمكنه أن يسيطر عليه بسهولة، تابع متميز ولن يفكر في مخالفة الأوامر، لكن الجانب الضعيف والمهزوز بدأ في الظهور فور أن اشتتم رائحة الخطر، حتى وإن كان هذا الخطر مجرد رائحة لا أكثر.

إلا أن خاطراً آخر لاح له، وفكر فيه بجدية، انتظر سمير سماع ما سيقوله هيثم لاحقاً بعد أن لاحظ التغيير الغريب الذي طرأ على قسماته، بالنهاية قال هيثم بعد أن عاد من أفكاره: أتعلم شيئاً؟ شيء لم يسبق لي أن أخبرتك فيه من قبل، ولكنني فكرت فيه كثيراً في مراحل عديدة من حياتي.

سأل سمير بترقب: ما هو ذلك؟

_ في حال حدث ما هو محظور ودخلت السجن، فإنني سأقتل نفسي قبل حدوث ذلك.

ثم قال مؤكداً وهو يحدق في سمير بعينين مخيفتين: سأقتل نفسي، ولكنني قبل ذلك سأقتل جميع من تسبب لي بالأذى.

نظر إليه سمير في رعب حقيقي، ليس مما قاله بقدر الهيئة التي ارتسمت عليه وهو يتكلم، لم يدر ما يجب عليه قوله بالتحديد، فتح فمه ليتكلم لكن لم تصدر عنه أية عبارات.

قال هيثم: حسناً، يمكنك الانصراف الآن، لدي موعد مهم ويجب أن أتأنيق جيداً.

قال سمير وهو يتحرك بسرعة كبيرة: أجل، بالتأكيد، سوف أغادر الآن، فورًا.

غادر سمير المكان وأغلق الباب خلفه، بقي هيثم ينظر إلى الباب المغلق قبل أن ينفجر ضاحكًا.

حسنًا، كانت هناك احتمالية في أن يقوم هذا الغبي بإفساد كل شيء، سواء أمام الشرطة أو أمام سامح، لكن في حال حدوث ذلك، فإن هذا الغبي وحده هو من سيتحمل كل اللوم.

أفيق من شرودي على صوت الطيببة وهي تقول لي إن كل شيء على مايرام، لا توجد أية كسور في العضد، مجرد رضوض، أشاهدها وهي تقوم بلف الشاش حول معصم ولدي الأكبر، وأرغب في أن أسألها عما إذا كان بإمكانها أن تعالج الشرخ الذي ظهر في حياتي وقصمها إلى نصفين، ثم انقسم كل نصف منهما إلى نصفين آخرين، رويدا رويدا، تتحول حياتي إلى ذرات صغيرة، قريبًا سأختفي، فهل سينتهي الألم؟ أنظر إلى وجه ابني الأكبر، وأحاول أن أستمد منه الشجاعة.

حدث ما كنت أخشاه، لقد تفشى الداء ليصل إلى أولادي.

تسألني والدتي عما حصل مع ولدي، أجيبها بنفس الإجابة التي أجبت فيها الطيببة، لقد سقط وهو يقفز عن السلالم بهور، تؤنبه، يتقبل تأنيبها بصدور حب وهو ينظر إليّ وبتسم، يتدخل والدي للدفاع عنه، الفتى من حقه أن يلعب وأن يقفز، وهذه الحوادث واردة، الفتى سيصبح أكثر خشونة عندما يكبر، أبادل ابتسامة ابني بابتسامة مماثلة، إذا كان قادرًا على أن يحفظ السرفسأكون أنا أيضًا قادرة، بطلي الصغير، لست نادمة.

_ أين زوجك المحترم؟ لماذا لم يحمي بك بأخذه إلى الطبيب بنفسه؟

خرجت الكلمات من عيني قبل لساني، زوجي، الرجل الكبير الذي تقع على عاتقه مسؤولية حماية زوجته وأبنائه ودفع كل مكروه عنهم، غارق في غيبوبة تحت تأثير الكحول والمخدرات، على عنقه عبق نساء أخريات، في جوفه سم زعاف، وبين يديه آثار دماء عائلته التي أريقت

على البلاط، في النهاية سوف يستيقظ ويذهب إلى عمله مثل أي رجل عادي، من دون حتى أن يتذكر شيئاً مما حدث.

_ زوجي خرج في مأمورية مستعجلة.

مرة أخرى أكذب، أكذب وأكذب حتى أصبح الكذب هو الشيء الحقيقي الوحيد الذي أحيأ فيه، لكن حبال الكذب قصيرة، كل كذبة ولها نهاية، فكيف ستكون نهايتي؟
ليته لا يستيقظ أبداً.

ابني الكبير ينسى أنه قد أصبح رجلاً لدقائق، يجري في الصالة مع إخوته، تهرهم والدتي ويتدخل والدي ليمنعها، أذهب إلى البلكونة لأنظر إلى حوض الورود وأخفي دموعي خلف عيبرها.

تنظر إليّ الطبيبة في شك، لا أعلم إذا كانت قد استنتجت أنني أخفي شيئاً، أو أن طبيعة الإصابة لا تتناسب مع ما قلته عن سقوط طفل عن الدرج، لكنها تكتفي بربط معصمه دون أن تتدخل أكثر، فالأمر لا يعنينا، نظرة الشك زرعت في نفسي الأمل لبارقة قصيرة، الأمل في أن هنالك شخصاً يهتم، شخصاً قد يهتم.

لقد حدث الصدام الذي كنت أخشاه، طفلي الصغير نبتت في داخله رجولة قبل أوانها، تدخل ليدفع عني رفسات والده العمياء، فنال نصيبه منها.

أختي فتحية الوحيدة التي تعلم بأن زوجي يعتدي علي بالضرب، لجأت إليها في لحظة يأس فتدخلت لتخفف عني جزءاً من آلامي، احترمت خصوصيتي العارية والبقية الباقية من كرامتي المنتهكة، لكنها ألحت عليّ مراراً بأن أنقل الأمر إلى والدي وأخي، رفضت بشدة، ألحت عليّ من جديد، أخبرتها بأن الموت علي أهون من أن أنظر في

وجه أبي وأمي وهما يهزان رأسهما أسفاً على حالي ولسان حالهما يقول: ألم نقل لك إن هذا ما سيحدث؟ قدمنا لك النصيحة ولكنك تحديث قرارنا ووافقنا عليه، وقفت في منتصف الصالة، هنا بالتحديد، حيث كنا جميعنا نجلس، وأعلنت لنا بنبرة فيها عناد وإصرار لم نعهده منك من قبل، وقلت إنك لن تتزوجي شخصاً غيره، ولو كلفك الأمر العزوف عن الزواج العمر كله، بأنك صاحبة القرار والمسؤولة عن تحمل تبعاته.

أتذكر تلك الليلة بتفاصيلها، الليلة التي أعلنت فيها الحب على العلن، شهقت والدتي ونظرتي أبي في غضب، توردت وجنتا شقيقتي التي تصغرنى، أما أخي فقد طأطأ رأسه في أسف ثم غادر البيت متحسراً.

أخبروني بأنه شخص سيء السمعة فقلت لهم إنه سوف يتغير، أخبروني بأنه سادي وقاسي القلب فقلت لهم بل هو مخلص ومتفاني في عمله، أخبروني بأننا عائلة بسيطة ولا نقدر على رد بطشه إذا بطش فأخبرتهم بأنه سيكون الزوج العطوف والأب الحاني وفرد الأسرة الجديد. أخبروني بأني سأندم، فقلت لا ندم. تهتت أمي في يأس وهز والدي رأسه وهو يقول بصوت لا يعبر عما في قلبه: على بركة الله.

أكاد ألمح الأسمى والحسرة في عيونهم وهم ينظرون إليّ وأنا راقدة في الكفن الذي نسجت خيوطه بنفسى، لا يملكون الجرأة ليقولوها لي، لكني سأقولها لنفسى: أنا الملامة، أنا الملامة.

أنا من تزوجت ضابط شرطة سادي وسيء السمعة.

كانت بداية أسبوع بطيئة، استيقظ محمود في موعد استيقاظه المعتاد، سبق المنبه بدقيقة واحدة فقط، لذا فقد تمكن من تجنّب نفسه عبء اليقظة المفاجئة.

قام بإغلاق المنبه قبل أن يرن بثوان، مجنبًا زوجته عناء استيقاظ مبكر في يوم عطلة مدرسية، سار إلى خارج الغرفة بخطوات هادئة، ودلف إلى الحمام وألقى نفسه بين أحضان المياه الباردة لعدة دقائق. استفاق تمامًا.

كان الازدحام المروري هذا الصباح في أقل أشكاله المخيفة، فائدة أخرى للذهاب إلى العمل في يوم السبت، حيث طلاب المدارس والجامعات لا زالوا متدثرين تحت الأغطية.

في الساعة التالية كان جالسًا على مكتبه وأمامه كومة من الأوراق التي جمعت على مدار الأيام الماضية، أنور دخل المكتب بعده بدقائق، كان متحمسًا.

_ المجني عليها تملك مجموعة مجوهرات متميزة للغاية، أصدرت نشرة بأوصاف مفصلة وتم توزيعها على نطاق واسع، كما قمت بعرض الصور على مجموعة من أشهر محلات الصاغة في الزمالك، وعرضتها على أحد الخبراء المسجلين لدينا، أتعلم كم قدروا لي قيمة هذه المجوهرات؟

توقف قليلا عن الكلام لإضفاء بعض الإثارة عما سوف يكشفه لاحقًا، لكن ملامح محمود بقيت دون تغيير، قال متابعًا: مليون ونصف دولار.

_أوه، مبلغ كبير.

كان هذا مرضيًا جدًا بالنسبة إلى أنور، الذي قال متابعًا: تخيل، صندوق يحتوي مجوهرات بقيمة مليون ونصف دولار موجود في دولا ب المنزل، هنالك خاتم يصل ثمنه وحده إلى أكثر من مائة ألف جنيه، الخاتم وحده يستحق أن تقتل لأجله.

كان أنور قد قال عبارته الأخيرة على سبيل المزاح، إلا أنها أثارت اهتمام محمود، تناول صورة خاتم يحمل ألماسة بيضاء نقشت على شكل وردة متفتحة وحولها إطار من البلاطين مرصع بماسات صغيرة. قال أنور متابعًا كلامه: معظم هذه القطع قد تم شراؤها من الخارج، يبدو أن المرحومة كانت تملك هواية باهضة الثمن.

قال محمود معلقًا: لقد كانت مهتمة بالكثير من الأمور في السنوات الأخيرة التي أعقبت تركها إدارة شركة والدها، على الأقل هذا يمكن أن يسهل تتبعها في حال فكر السارق ببيعها، سوف يجعل التعرف عليها أكثر سهولة.

ثم قال مشيرًا إلى الخاتم: هذا الخاتم قام زوجها بإحضاره لها بمناسبة عيد زواجهما.

_هل تفكر في شيء معين بخصوص الخاتم؟

قال محمود وهو ينظر إلى بقية الصور: لا توجد لدي فكرة معينة، لكنني عندما نظرت إلى الخاتم تذكرت مديرة مكتب سامح وهي تتحدث عنه.

قال أنور بحماس: تقصد اللبنانية الفاتنة.

قال محمود: إنها مصرية وليست لبنانية، لقد كانت تتحدث عن الخاتم بطريقة شعرت معها بأنها تتمنى لو كانت قد حصلت عليه بنفسها.

أنور قد فهم التلميح، أطرق في أفكاره قليلا، ثم قال: لا يا رجل، أستبعد ذلك تمامًا، لن تقوم بذلك.

قال محمود: لم لا؟ لقد بدا أنها كانت تشعر بالغيرة بعض الشيء، كما أن في داخلها بركائنًا خامدًا، يكفمها عود ثقاب صغير حتى تنفجر بمن حولها.

عاد أنور ليفكر من جديد، لكن هذا الاتجاه كان مسدودًا، فقال مجددًا: أستبعد ذلك.

كان محمود يفكر أكثر في هيثم. إلا أن البصمة التي وجدت في غرفة النوم لم تكن مطابقة، لذلك فقد صرف النظر عن إجراء مقارنة الحمض النووي الخاص بهيثم، لكنه لم يكن يستبعد تورطه.

لكن كليهما بالإضافة إلى سامح لديهم حجة غياب قوية.

سؤال آخر كان يحيره في المرة الأولى، ولأن ازدادت حيرته منذ أن أخبره أنور بقيمة المجوهرات التي اختفت.

أخذ محمود يفكر بصوت عالٍ: ما الذي يفعله صندوق مجوهرات بقيمة مليون ونصف في خزانة غرفة النوم، مثل هذه الأشياء الباهضة الثمن يجب أن تحفظ في خزائن حديدية أو في البنوك.

قال أنور: بعض الناس يهملون في الحفاظ على أموالهم.

_ حتى لو كانوا متعلقين بها إلى الحد الذي يرغبون فيه بلمسها كل ليلة.

_خاصة لو كانوا كذلك.

هز محمود رأسه متشككًا. لكنه لم يكن يملك أية إجابة. كل هذه الأسئلة أجزاء من كل. يجب عليه أولاً أن يقوم بجمع هذه الأجزاء معًا. كان مقتنعًا أكثر بأن الفرضية "ب" هي الأقرب للتصديق، لكن يبقى الوصول إلى القاتل هو الهدف الأبرز. بعدها يمكن الوصول إلى الشخص الذي دفعه للقيام بذلك. هناك شخص مجهول قام بذلك، بالاتفاق مع واحد من الأشخاص الذي كانوا ضمن دائرة علاقات الضحية.

ولكن الأمر حدث بأسرع مما يتوقع.

أطل شريف برأسه إلى داخل الغرفة، وقال موجهاً حديثه إلى محمود دون أن يفكر حتى في إلقاء التحية: محمود، يجب أن نغادر الآن إلى قسم شرطة الشرايية، معتر في انتظارنا هناك.

قام محمود بتناول هاتفه والوقوف بدون أن يسأل، فهو لم يكن بحاجة إلى أن يسأل، ملامح شريف قدمت له فكرة عن أهمية الأمر الذي هما بصدد القيام به، إلا أن أنور كان فضوليًا أكثر، قال: وعليكم السلام يا باشا، ما الشيء المهم الذي يدفعك إلى أن تنسى إلقاء التحية.

قال شريف، كرئيس دولة يقوم بالإعلان عن انتهاء حرب عالمية: لقد عرفنا هوية القاتل.

قال معتر من خلف طاولة مكتبته: رمضان علي تيسير الشهر برمضان تينة، ثلاث وثلاثون سنة، هجام ولص بيوت محترف، محكوم مرتين

بجناية السرقة مع الاقتحام، إحداهما عندما كان لا يزال حدثاً، بالإضافة إلى أنه تم القبض عليه بتهمة محاولة الشروع في القتل بعدما حاول قتل امرأة لسرقة أساورها الذهبية عندما كان عمره خمساً وعشرين سنة، لكن نتيجة لتنازل المرأة عن الشكوى فقد تم تخفيف الحكم بحقه إلى خمس سنوات مع الشغل، ومنذ خروجه من السجن لم يتم توقيفه في أي جرائم أخرى، لكن تم استدعاؤه للاشتباه به في عدة جرائم، جميعها سرقات مختلفة لم يتم اتهامه بأي منها، مع وجود العديد من لصوص المنازل المسجلين لدينا، ما الذي يجعل هذا الشخص مميزاً؟ حسناً، بالرجوع إلى تهمة الشروع بالقتل التي خرج منها بحكم مخفف، لك أن تحزر الطريقة التي حاول بها قتل المرأة لكي يسلب مصاغها.

قال محمود مستجيباً: حاول قتلها بالخنق.

قال معتر بصوت عال وهو يفرقع بأصابع يده اليمنى: تمامًا.

قال شريف وهو لا يقل إثارة عن صديقه: عندما تمت مقارنة العينات المأخوذة من فيلا شهاب مع قاعدة بيانات المجرمين السابقين، البصمة الجزئية جاءت نتيجتها مطابقة.

ثم عاد مستريحاً على كرسيه وهو يقول: أسبوع كامل من التعب وقلة النوم لم تذهب هدراً بعد كل شيء.

قال محمود: حسناً، وماذا عن ال DNA.

قال شريف: سوف تأخذ وقتاً أطول للحصول على النتائج، لدينا الآن ما يكفي لتوجيه التهمة إليه، لذلك فقد أرجأنا ذلك إلى ما بعد القبض عليه، أولويتنا حالياً هي إلقاء القبض عليه.

فتح باب الغرفة وأطل منها مراد مساعد مأمور القسم وقال موجهاً حديثه إلى معتز: نحن جاهزين يا باشا.
قام الثلاثة من أماكنهم وانطلقوا إلى الخارج.

سيارتان تابعتان لقسم الشرطة، وسيارتان تابعتان للقوات الخاصة، لم يكن مشهداً منبئاً بالخير لأي شخص يصادف وقوفه بالقرب من المكان الذي تتجه إليه هذه السيارات الغاضبة.
أدرك البائع العجوز هذه الحقيقة وهو يراقب السيارات تمر بمحاذاته بسرعة جنونية على الرغم من ضيق حجم الشارع، مروا قريباً جداً منه. وتوقفت السيارات جميعها في نهاية الشارع. على الرغم من أن أقرب هذه السيارات منه قد وقفت بعيداً عنه بمائتي متر على الأقل، لكن هيات أن تكون المسافة تعني الأمان. بسرعة وحيوية شاب في العشرين، قام بوضع الغطاء فوق بسطة الكعك، ثم قام بجرعته المتهاكلة التي لم تسرعجلاتها الرفيعة بهذه السرعة منذ أمد بعيد، انطلق بها صاحبها مهرولاً إلى أقرب زقاق يمكن أن يصل إليه.

كان منزل عائلة تينة يقع في منتصف شارع ضيق، وقد تراصت المنازل القديمة ذات الارتفاع المنخفض بجانب بعضها البعض على كلا طرفي الشارع، أطلت امرأة من نافذة الطابق الأرضي لأحد هذه المنازل، قريباً من المكان الذي كان يقفل فيه العجوز بعربته، وصرخت في طفلين كانا يلعبان عند باب المنزل وقد توقفا عن اللعب وأخذتا يتابعان السيارات التي مرت بهما، لم تقبل المرأة أن يتم

تجاهلها أكثر من ذلك، فتحت الباب ومدت ساعديها الممتلئين وسحبت كلا الطفلين من ياقة التي شيرت لكل منهما وجرتهما إلى الداخل، ثم أغلقت الباب خلفها بعنف في وجه الخطر المرتقب. النوافذ البعيدة بقيت مفتوحة وأطل منها سكانها بحذر، في حين أن النوافذ الأقرب أغلق بعضها بالمتاريس، والبعض الآخر ترك فيها فتحة صغيرة كافية للتلصص.

في داخل أحد هذه المنازل جلست امرأة كبيرة في السن على الحصير في الغرفة التي تقع على الطابق الثاني وبقيت منشغلة في تقليب كومة من حبات العدس الموجودة في طبق معدني كبير لفصل الحبات التالفة عن بقية المجموعة، الأصوات المنذرة القادمة من الخارج لم تتمكن من تشتيت تركيزها، ابنتها الشابة أخذت تسترق النظر بحذر من النافذة إلى ما يحدث في الأسفل وهي تضع كلتا يديها على حافة النافذة في وضعية الاستعداد للابتعاد في حال بدأ الرصاص بالتطاير. قالت المرأة الكبيرة في السن دون أن تتوقف عما تقوم به: لمن هم قادمون هذه المرة؟

قالت الفتاة وحي تحاول أن ترفع عنقها إلى الأعلى قليلا حتى تتمكن من الحصول على رؤية أكثر وضوحًا: لقد وقفوا أمام منزل عائلة تينة.

تهددت المرأة وهي تقول متسائلة: لمن جاؤوا هذه المرة؟ لرمضان أم لصبري؟

قالت الفتاة: لا أعلم، لم يدخلوا بعد، لكنهم هذه المرة كثير، يبدو أن المسألة أكبر من مجرد سرقة أو حشيش، مأمور الشرطة بنفسه موجود بينهم.

قالت المرأة بسخرية: يا بلهاء، وأنت من أين لك أن تعرفي مأمور القسم؟

قالت الفتاة متحدية: أعرفه، لقد رأيته من قبل، صديقتي نوسة أشارت إليه في يوم من الأيام عندما كنا في السوق، والدها يعمل أمين شرطة في القسم ولن تكذب علي.

وضعت المرأة كومة أخرى من كيس العدس الموجود بجانبها في الطبق وهي تتمتم: يا لك من بلهاء.

قال الفتاة: يبدو أنهم قاموا بإغلاق الشارع من كلتا الجهتين بالسيارات.

بقيت المرأة تعمل في صمت.

_ هاهم يستعدون للاقتحام، لن يتمكن من الهرب.

عادت المرأة لتعلق من جديد: إنهم يهربون، إنهم دائماً يهربون. سواء كانوا من الحكومة أم من اللصوص، دائماً يفلتون من العقاب.

بقي شريف ومحمود واقفين أمام الباب، ووقف مراد بعيداً قليلاً عنهما وعينه مصوبة باتجاه إحدى زوايا المنزل العلوية التي كانت ظاهرة له، في حين أعطى معترز الإشارة بالدخول إلى المنزل، تقدم أحد أفراد القوة الخاصة وقام برفس الباب الحديدي الضيق بقدمه فانفتح على مصراعيه.

دخل معترز ومن خلفه بقية أفراد الفرقة، وجدوا أنفسهم في ممر غير مسقوف يفصل بين الباب الخارجي والباب الداخلي، وفي نهايته درج يقود إلى الأعلى. قام رجل القوات الخاصة برفس الباب الداخلي

للمنزل ودخل معتز ومعه ثلاثة إلى الداخل، وجدوا أنفسهم في غرفة قليلة الأثاث، وإلى يمينهم جلست امرأتان إحداهما كبيرة في السن جدًا والأخرى أصغر سنًا وقد أحاطا بذراعيهما ثلاثة أطفال صغار، أبقى الجميع عيونهم منخفضة باستثناء المرأة المسنة التي وجهت إليهم نظرات نارية تبعثها بوابل من الأدعية الغاضبة.

كان مراد في الخارج يحرك عينيه في محاولة لإيجاد زاوية رؤيا أفضل لما يمكنه رؤيته من سطح المنزل، إلى أن عرف أين يجب عليه أن ينظر عندما وجد النقطة المناسبة التي توقع أن شخصًا يمكنه أن يقفز منها إلى سطح البيت المجاور، بقي ينظر في ترقب وهو يقبض بيديه على مسدسه.

قالت الفتاة وهي لا تزال تراقب ما يحدث في الخارج من فتحة النافذة: لقد كسروا الباب ودخلوا، ومعهم أسلحة. كانت المرأة كبيرة السن لا تزال مستمرة في عملها الدقيق بتصفية حبات العدس، قالت الفتاة متابعة: لا أعلم ما الذي يحدث في الداخل، لا زالوا.....

فجأة أطلقت الفتاة صرخة عليية وهوت بجسدها إلى الأسفل بعيدًا عن النافذة، أتبع ذلك صوت رصاصية، فزعت المرأة وتركت ما بيدها وهي تنظر إلى الفتاة وتتمتم بالمعذوات. ثم سمعتا صوت أقدام تجري فوقهم.

جری شریف ومحمود باتجاه مراد الذي كان لا زال ينظر إلى المكان الذي أطلق عليه الرصاص، قام أحد رجال القوة الخاصة الذين في الخارج بالتحدث عبر اللاسلكي ليخبر من في الداخل بأن الهدف قد فر من فوق السطح إلى السطوح المجاورة، في حين صرخ محمود في وجه مراد: لماذا أطلقت الرصاص؟

قال مراد: ما الذي كان علي فعله؟ لقد كان يهرب.

قال محمود وهو لا يزال يصرخ: هل هذا يعني أن تحاول قتله؟

نظر إليه مراد في دهشة دون أن يتوقف عن الجري، ثم قال مرة أخرى: لقد حاول الهرب.

وصل معتمز إلى سطح المنزل وهو لا يكف عن إطلاق الشتائم، تبعه أحد رجال القوة الخاصة الثلاثة الذين كانوا معه، واستمر الاثنان الآخران في تفتيش الغرف في الأسفل.

وقف معتمز في منتصف السطح وأخذ يتلفت حوله، حدد الجهة الأقرب للقفز، اقترب من الحافة وأخذ ينظر يمناً ويسرة في الاتجاهات التي من الممكن أن يفر إليها تينة، رآه على بعد ثلاثة منازل، بدون الكثير من التفكير قفز إلى سطح المنزل المجاور ثم قرب اللاسلكي من فمه وأبلغ البقية بالمستجدات دون أن يتوقف عن الجري.

قالت الفتاة: لقد كان يصوب المسدس باتجاهي، لقد أطلق الرصاص علي.

قالت المرأة: ما الذي تهذين به أيها المخبولة؟ لقد كان يطلق النار على الفتى الهارب، لقد قفز من فوق سطح البيت إلى السطح المجاورة.

قالت الفتاة مصرة: بل أرادوا أن يقتلوني، لا يريدون أن يتركوا شهوداً على انتهاكاتهم لحقوق الإنسان.

ضحكت المرأة بصوت عالٍ ثم قالت دون أن تتوقف عن الضحك: حقوق إنسان، هل تعتيرن نفسك إنساناً له حقوق؟

ثم سمعنا وقع أقدام أخرى تدب في الأعلى، قالت المرأة معلقة: ها هم الشرطة يجرون في أثره.

قالت الفتاة: مهما يكن ما فعله، أتمنى ألا يتمكنوا من الإمساك به.

_ كما تشائين أيها المخبولة.

وصل شريف ومحمود ومراد إلى نهاية الشارع الضيق ليجدوا أنفسهم في مفترق طرق، ساروا بخطوات سريعة في الاتجاه الذي ينتهي به صف المباني التي يمكن أن تقع في طريق تينة للهروب وأعينهم جميعاً مصوبة إلى الأعلى، قال محمود: يجب أن نقوم بتطويق المربع السكني بأكمله.

قام رجل من القوات الخاصة بالتحدث عبر اللاسلكي، ثم قام بإعطاء الأوامر للأفراد الآخرين الموجودين معه ليقوموا بالإحاطة بالمربع السكني من الاتجاهات الأربعة، في حين استمر شريف ومحمود بالسير مع الشارع. أما مراد فقد لمح أحد الأزقة الضيقة التي تفصل بين

المنازل بشكل طولي، كان أكثر الموجودين دراسة بخبايا هذه المنطقة، ويعرف كافة المسالك التي يمكن أن يفر منها الرجل الهارب.

دلف إلى داخل الزقاق الضيق الذي بلغ عرضه مترًا واحدًا، الزقاق لم يكن نافذاً بخط مستقيم إنما كان يحتوي على عدة منعطفات، ظل يسير فيه بحذر وهو يمسك بالمسدس في وضعية الاستعداد، إلى إن وصل إلى نهاية الممر الذي كان يؤدي إلى شارع جانبي، سمع صوتاً قادمًا من الأعلى، فالتصق بالحائط ومسدسه بين يديه.

على بعد أمتار قليلة، شاهد شخصًا متعلقًا بأحد أسياخ البناء الحديدية البارزة من حائط علوي لأحد البيوت، ثم أفلت ليرتقي فوق سور المنزل على بعد مترين من الأرض، ثم قفز إلى الأسفل، وأخذ يوجه نظره إلى الشارع الجانبي الذي ينتهي إليه الزقاق بحذر دون أن ينتبه إلى رجل الشرطة الذي كان يتربص به من خلفه.

صوب مراد سلاحه باتجاه ظهر الرجل، وصرخ: رمضان تينة، توقف مكانك وإلا أطلقت النار.

وقف الرجل جامدًا في مكانه، رفع يديه بصورة تلقائية دون أن ينظر إلى الخلف.

_ انزل على ركبتيك.

نفذ الرجل الأوامر دون أن يلتفت، جلس على ركبتيه ووضع يديه خلف رأسه، إلا أن مراد بقي مصوبًا فوهة السلاح باتجاه مؤخرة رأسه، بدا أنه سوف يضغط على الزناد في أية لحظة دون أن ترمش له عين. التفت الرجل أخيرًا إلى الخلف، في اللحظة التي كانت فيها الرصاصة على وشك الانطلاق.

قال مراد عندما رأى وجه الشاب: أه، إنه أنت.

نظر إليه الشاب لبرهة، ثم عاد لينظر أمامه.
ظهر محمود وشريف من الجهة المقابلة للزقاق وسارا باتجاههما،
أعاد مراد سلاحه إلى مكانه ثم أخرج الأصفاد واقترب من الشاب
لتقييد يديه. أطل عليه رأس معتز من فوق سطح المنزل الذي قفز
منه الشاب قبل قليل، قال: عمل جيد حضرة الملازم.
قال مراد: لكفي أظن أننا ارتكبنا خطأ بسيطاً.
قال معتز وهو يحاول الوصول إلى السور أسفل منه بمساعدة من
رجل القوة الخاصة الذي اشترك معه في المطاردة فوق الأسطح: ماذا
تعني؟
تقدم شريف من الشاب وهو يرفع يده اليمنى إلى الأعلى استعداداً
لتوجيه الصفعة. قال مراد بصوت عال ليسمعه الجميع: هذا ليس
رمضان تينة الذي تبحثون عنه، هذا زوج شقيقته.
توقفت يد شريف في الهواء لعدة لحظات وهو ينظر إلى الشاب
الواقف أمامه، ثم قال: لا فرق، هو أو نسيبه.
ثم هوى بيده على وجه الرجل، لم يقم الأخير بإبداء أي احتجاج، فقد
كان يشعر بالارتياح عندما عرف أنه لم يكن الشخص المطلوب، لن
يمنع حتى في تلقي صفعة أخرى.

وجد صبري تينة نفسه في غرفة الاستجواب الصغيرة جدًا ذات السقف العالي والمحاطة بجدران لامعة ورمادية اللون. كانت الغرفة جيدة الإضاءة، في حين أن قطع الأثاث الوحيدة في الغرفة عبارة عن طاولة معدنية مربعة وكريسيين وضع كل واحد منهما على طرفين متقابلين من الطاولة، جلس تينة على الكرسي المواجه لباب الغرفة والذي أجلسه فيه رجل الشرطة الذي اقتاده إلى الغرفة وتركه دون أن يقوم بفك قيوده، بينما بقي الكرسي المقابل له فارغًا.

على الرغم من مرور أكثر من نصف ساعة على تركه وحيدًا في الغرفة، وعلى الرغم من تيقنه التام بأنهم في هذه اللحظة يقومون بمراقبته من خلف تلك المرأة الكبيرة التي احتلت مساحة كبيرة على الحائط من يساره، إلا أن صبري تينة لم يكن يشعر بالقلق، إنما شعر بالملل فقط. لدقائق أخذ ينقر بأصابعه على السطح المعدني لطاولة بالتوافق مع دندناته لأغنية شعبية شهيرة، ثم أخذ دقائق أخرى في السير في أرجاء الغرفة الصغيرة جدًا ذهابًا وإيابًا وهو يعد خطواته.

في المحصلة كان مرتاحا نسبيًا، ولم يلم نفسه كثيرًا بسبب استعجاله في الفرار عندما شعر بوجود رجال الشرطة، فحتى لو بقي جالسًا في غرفته في الطابق العلوي من المنزل فقد كانوا سيأخذونه على أية حال، بل سيأخذونه حتى ولو كان ميتًا سريريًا وقام المستشفى

باحضاره إلى المنزل ليقضي آخر أيامه بين أهله، كانوا سيحضرونه لاستجوابه مع سريره وأجهزة التنفس.

على الأقل فإن الغرفة لم تكن سيئة، والحرارة فيها مناسبة، لقد جرب من قبل ما هو أسوأ.

كان ينظر إلى الكاميرا الصغيرة المعلقة فوق الباب ويتساءل في نفسه فيما إذا كانت تعمل حقًا أم أنها فقط لمجرد إضافة المزيد من الرهبة، عندما فتح الشرطي الذي أحضره باب الغرفة وأفسح الطريق لضابط المباحث للدخول قبل أن يقوم بإغلاق الباب خلفهما من جديد. كان ذات الضابط الذي قام بصفعه عندما أمسكوا به، بدأ صبري يفكر فيما إذا كان حظه قد بدأ ينفد.

خطا شريف خطوتين إلى داخل الغرفة ووقف في الاتجاه المقابل من الطاولة وهو يوجه لصبري نظرة حادة لم يتمكن الأخير من تفسير الغاية منها تمامًا، ثم قام بسحب الكرسي الفارغ إلى الخلف قليلا وجلس. رفع كف يده اليمنى وأخذ يقلبها أمام صبري بطريقة استعراضية ثم قال: أنت تتذكر هذه طبعًا.

أومأ صبري موافقا وهو يقول: طبعًا يا باشا أتذكرها، لم يمض الكثير من الوقت لنسيانها، مع أنني لست الشخص المقصود بها.

أخذ شريف يقهقه باستهزاء ثم قال: يبقى أخوزوجتك أيضًا، يمكنك أن تتحمل عنه بعض الصفعات، لا يوجد حساب بين الأنساء.

قال صبري محتجًا: لا يا باشا، اسمح لي، إنه رجل بالغ عاقل ويمكنه بدلي بصوته الانتخابي في مجلس الشعب، ويمكنه تحمل نتائج أفعاله وحده.

رفع شريف أحد حاجبيه إلى الأعلى: حقا؟ وما هي أفعاله التي يجب عليه أن يتحمل نتائجها بنفسه.

قال صبري بتخوف: أيًا كان ما قام به وجعلكم تحضرون بأنفسكم إلى المنزل للقبض عليه.

قرب شريف رأسه أكثر من صبري وسأله: وأنت لا تعرف ما الذي قام به شقيق زوجتك؟

_ أيا ما قام به يا باشا لا علاقة لي به، أنا أساسًا لا أتفق مع رمضان في الكثير من الأمور التي يرتكها، برأيي إن الكسب من السرقة مال حرام وأنا أحرص على الابتعاد عن الكسب الحرام لذلك فأنا لا أوافق على ما يفعله.

أخذ شريف يقهقه بصوت عال، بقي صبري يراقبه في دهشة إلى أن انتهى، ثم قال أخيرا وقد تغيرت ملامحه كليًا: دمك خفيف يا ولد، وهل الاتجار بالمخدرات والحشيش عمل شريف يا "روح أمك"؟

ظهرت معالم الارتباك على صبري للمرة الأولى منذ حضور المحقق، قال مدافعًا عن نفسه: إتهام باطل يا باشا، أقسم لك إنني لم أتاجر في حياتي بهذه الأشياء، ربما أقوم بتدخين سيجارة حشيش بين الفينة والأخرى مثلي مثل غيري، لكن أن أتاجر بها، لا يا باشا، مستحيل.

قال شريف بسخرية واضحة: مقنع فعلا، هل تصدق أنني اقتنعت بكلامك؟

تظاهر صبري بالارتياح وهو يقول: الإنسان حسن النية والصادق مع نفسه يجعل من السهل على الآخرين تصديقه.

شعر شريف بالاستفزاز، كور قبضته وقربها من فمه وهو يمدد بصوت منخفض، إلا أنه بقي محافظا على هدوئه الظاهري. قال:

"ماشى يا صادق"، على أية حال نحن لسنا هنا من أجلك أنت ونواياك الحسنة، رمضان هو نجم الشباك لهذا اليوم.

مد صبري يديه فوق الطاولة ونظر إلى عيني شريف مباشرة. قال: وأنا تحت أمرك يا باشا.

رد على نظرتة الواثقة بنظرة متشككة، ثم قال: حسنا، طالما نحن متفقون، فليكن. أين رمضان؟

أجاب بسرعة: ليس لدي أي فكرة.

اندفعت يد شريف كالصاروخ لتلطم وجه صبري الذي لم يتسن له الوقت لتفادي اللطمة، اكتفى بوضع يديه على خده الأيسر وهو يتدمر، ثم وجه نظرة خاطفة باتجاه المرأة التي بجانبه ثم أخذ يتأوه بشكل مبالغ فيه، ثقته ذهب أدراج الرياح.

قال شريف متحدياً: هذه المرة أنت المقصود بها.

قال صبري وهو لا يزال يضع يده على خده: لماذا فعلت هذا يا باشا؟ هل هذا جزاء من يبدي رغبته بالتعاون؟

قال شريف وهو يزمجر غاضباً: تبدي رغبتك في التعاون يا ابن الكلب"، وهل تظن أنك تملك الحق في أن ترغب أو لا ترغب؟ سوف نخبرنا بما نريده غصباً عنك، هل تفهم؟

اللهجة الحادة، والعينان اللتان يتطاير منهما الشرر، جعلتا صبري يتنبأ باقتراب فوران بركان آخر، لذلك فقد اتخذ كل الاحتياطات اللازمة هذه المرة، أبعاد رأسه إلى الخلف لأبعد نقطة ممكنة، ورفع يديه المكبلتين قريباً من وجهه، واستخدم أفضل لهجة استجداء موجودة لديه.

_ يا باشا وأنا لم أقصر، أنا مستعد لأقول كل ما أعرفه، لكنني لا أعرف أين هو رمضان، أقسم لك إنني لا أعرف.

قال شريف: أتعلم؟ ربما إننا أخطأنا في إحضارك إلى هنا، ربما كان من الأفضل أن نقوم باستضافة "الست الوالدة" بدلا منك، أو ربما أم الأولاد.

أبعد صبري يديه عن وجهه واتخذ مظهرا جادا بعيدا عن التظاهر. قال: لماذا هذا الأسلوب؟ لقد قلت لك إنني مستعد لقول كل شيء أعرفه، وأنا لا أعرف أين هو رمضان، لكنني أعرف بأنه يختبئ من الشرطة.

سأل شريف: هو أخبرك بأنه يختبئ من الشرطة؟

_ لا يا باشا، هو لم يخبرني بأي شيء، هو أساسا غائب عن المنزل منذ ثلاثة أسابيع، وفي العادة لا يغيب عن المنزل كل هذه المدة إلا إذا كان واقعا في مشكلة مع الحكومة، نحن معتادون على غياباته المفاجئة منذ أن كان مراهقا، في البداية كنا نقوم بالبحث عنه في كل مكان، والدته دخلت المستشفى مرتين جراء ذلك، لكن مع الوقت أصبح الأمر معتادا، خاصة عندما سجن لخمس سنوات بسبب قيامه بضرب المرأة العجوز، كان هذا تجاوزا لكل الحدود.

كان شريف قد أسند كوعه الأيمن إلى الطاولة وأمسك ذقنه وهو يستمع إلى صبري بنفاد صبر، سأله بعد أن انتهى: وهل تعرف ما الذي قام به رمضان هذه المرة؟

هز صبري رأسه موافقا، لكن شريف ظل ينظر إليه دون أن يتكلم، فقال: لقد قام بسرقة منزل حسني صاحب قهوة السعادة في الحي المجاور لنا. وهو مخفف منذ يوم السرقة، لكننا تفاهمنا مع المعلم

حسني، وقمنا بدفع الثلاثمائة جنيه التي قام بسرقتها من المنزل وقام بالذهاب إلى المركز وسحب الشكوى بنفسه، لكن يبدو أن معتز باشا يرغب في تأديبه قليلاً.

غير شريف من وضعيته هذه المرة، تراجع بجسده إلى الخلف وعقد ذراعيه على وسطه وهو يقول: وحضرتك كيف عرفت أنه من قام بسرقة الشخص الذي تتحدث عنه.

قال صبري وهو يشعر بأن الضابط يستخف بذكائه: يا باشا، رمضان مختلف عن المنزل منذ اليوم الذي حصلت فيه السرقة، يعني "ولا مؤاخذة" المسألة لا تحتاج إلى شخص عبقرى ليستنتج ذلك.

ما حدث لاحقاً كان عبارة عن فورة بركان أخرى، لكن دون أي أذى جسدي هذه المرة، فقد وقف شريف بسرعة تاركاً كرسيه ينقلب على الأرض وضرب الطاولة بكف يده بقوة محدثاً دويًا عاليًا جعل صبري ينكمش على كرسيه وهو يخفي وجهه بين يديه، صرخ فيه: أيها المعتوه، هل تظن أننا سنقوم بإحضار القوات الخاصة وكسر باب المنزل ومطاردتك فوق الأسطح وإطلاق الرصاص عليك وإحضارك إلى مديرية الشرطة للاستجواب من أجل سرقة ثلاثمائة جنيه؟

قال صبري وهو يبعد يديه عن وجهه بحذر شديد: على مهلك يا باشا، خذ الأمور بروية، أنا فقط ظننت أن هنالك خلأفاً شخصياً بين رمضان وبين سيادة المأمور، لكن إذا لم يكن الأمر كذلك فأنا أعتذر عن تسرعني في استنتاج الأمور، لذا ربما لو تكلمت يا باشا يمكنك أن تخبرني بما فعله بالضبط حتى لا أتفوه بكلمة خاطئة أخرى وأثير غضب سيادتك.

أخذ شريف نفساً عميقاً وهو يحاول أن يخفف من وطأة عفاريتة، إلا أن الغضب لم يفارق نظراته النافذة، وضع كلتا يديه على الطاولة وأسند جسده عليهما وقال بنبرة غامضة وهو ينظر إلى صبري: رمضان متهم بجريمة قتل.

ابتلع صبري ريقه بالكاد، قال بصوت متحشرج: قتل؟

قال شريف: قام باقتحام فيلا بالزمالك وقتل صاحبتهما بالإضافة إلى سرقة مجوهرات بقيمة مليون ونصف دولار، بمعنى أنه قام بارتكاب جريمة قتل لتسهيل ارتكاب جناية السرقة، وبمعنى آخر أن حبل المشنقة بانتظاره، والتهمة "لابساح لابساح".

ابتلع صبري ريقه مرة أخرى وهو يقول: مليون ونصف دولار.

بقي شريف ينظر إليه في حدة، تنبه صبري لذلك فانتفض في مكانه وقال وهو يشير بسبابتي يديه: أقسم لك يا باشا إنني لا أعلم أي شيء عن هذا الأمر، ولا أعرف أين هو رمضان ولم أشاهده منذ اليوم الذي اختفى فيه أو أسمع عنه أي شيء.

صرخ شريف بصوت هادر: اختفى عن وجه الأرض مثلاً؟

قال صبري وهو يتلعثم: لا يا باشا، لم يختفِ عن وجه الأرض، بالتأكيد هو مختبئ، وسوف يظهر عاجلاً أم آجلاً، أكيد سوف يظهر، ولو حدث ذلك سوف أقوم بتسليمه إليكم بنفسي.

بقي شريف ينظر إلى صبري دون أن يتكلم، شعر صبري بنظرات المحقق تخترق جسده وتستقر في عظامه وأحشائه، اكتفى بالترديد: أقسم لك يا باشا أنني لا أعرف مكانه، أقسم لك.

اعتدل شريف في وقفته، قال بصوت أكثر هدوءًا ولكنه في نفس الوقت أكثر عدائية: يبدو أنك بحاجة إلى أن تجرب "كرم الضيافة" لدينا.

_ يا باشا.....

قاطعه متابعًا: إذا كنت تظن أن كرم الضيافة لدينا يشبه ما تلقاه في قسم الشرطة في منطقتكم فأنت مخطئ حتما.

ثم غادر الغرفة دون أن يستمع إلى أي من توسلات صبري التي لم تتوقف على الرغم من تأكده أن المحقق قد أصبح خارج نطاق صوته، استدار لينظر إلى شكله في المرآة وهو لا يزال يردد أنه لا يعلم شيئًا عن مكان رمضان.

وقف شريف ينظر من الطرف الآخر للغرفة من خلال الزجاج، قام بإشعال سيجارة وأخذ يدخنها وهو لا زال يراقب صبري الذي استمر في الكلام لعدة دقائق قبل أن يصيبه الفتور، توقف عن الكلام تمامًا، ثم أخذ يسلي نفسه بعمل رسومات وهمية فوق سطح الطاولة.

قال محمود: لا أظن أنه يكذب.

قال شريف: لكنه ليس خائفًا كذلك، كل ما تراه أمامك من استجداء كذب، مجرد تمثيل.

_ وهل هذا الأمر يزعجك؟ أنه يتظاهر بالشعور بالخوف ولكنه ليس خائفًا فعلا.

نظر شريف إلى محمود، لكن الأخير بقي ينظر من خلال الزجاج إلى الغرفة. قال: لا أفهم ما الذي ترمي إليه؟

_ أعني هل من المهم جدًا أن يخاف مادام أنه لا يعرف أي شيء، ما الذي يمكن أن يحققه هذا الأمر؟

قال شريف وهو يشير بيده المسككة بالسيجارة باتجاه الزجاج: تظاهرة بالخوف يعني أنه يخفي شيئًا، ولكي نخبرنا به يجب أن يخاف فعلا.

_ ربما، وربما أنه يتظاهر بالخوف لأنه يعتقد أن هذه هي الوسيلة الوحيدة ليقنعنا بأنه لا يكذب، أو ربما لأمر آخر.

تراجع شريف عدة خطوات إلى الخلف وقام بإطفاء عقب السيجارة في منفضة السجائر وهو يقول: وما هو هذا الأمر الآخر؟

قال محمود دون أن يستدير ليوواجه محدثه: ليحاول إرضاء س.....
 كاد أن يقول كلمة سادية لكنه توقف قبل أن يتابع، شريف رئيسه في العمل وإن مؤقتًا، وسوف يعلوه في الرتبة في حركة الترقيات القادمة. قال: ليحاول إرضاءنا.

قال شريف: وإن يكن، يجب أن يخاف.

ثم رفع قبضته اليمنى كأنه يهم بتوجيه لكمة لشخص أمامه، وقال: وأنا أعرف الطريقة المناسبة لأجعله يخاف.

قال محمود وهو يبتعد قليلا عن الزجاج: للأسف، لن نتمكن من اختبار ذلك اليوم.

_ ماذا تقصد؟

_ الرئيس أمر بإرساله إلى البيت بعد أخذ أقواله.

كان صبري قد توقف عن الرسم، رفع رأسه إلى الأعلى وأخذ يتأمل سقف الغرفة.

_ رئيس القطاع؟

_ نعم، لقد كان يقف هنا قبل قليل مع مفتش مباحث الغرب، وشاهدا جزءًا من التحقيق، يبدو أنه اقتنع مثلي أن الرجل لا يعرف شيئًا عن مكان شقيق زوجته، لذلك فقد اقتنع بالقيام بأمر آخر. ثم سار باتجاه باب الغرفة وهو يقول: على الأقل فإنك نجحت في دفعه إلى أن يكون متعاونًا، وهذا أمر جيد بحذ ذاته.

ظل صبري ينظر إلى الرجل الذي يقف أمامه بحذر دون أن يتمكن من إدراك ما عليه توقعه لاحقًا، أصابته الحيرة حينما ابتسم الرجل في وجهه ببشاشة وطلب كوبًا من الشاي للضيف. هل هي فقرة الشرطي الطيب الآن؟ وهل وصفه بالضيف حقًا؟

_ والآن. ريثما يأتيك كوب الشاي، ربما يمكننا أن نقوم ببعض الدردشة.

قال صبري وقد تهللت أساريره: بالتأكيد يا باشا، أنا تحت أمرك، يمكنك التحدث معي في أي شيء.

دخل محمود في الموضوع مباشرة: كنت قد قلت لزميلي سابقًا إنه ليست لديك أي فكرة عن مكان رمضان.

_ يا باشا، أقسم لك.....

قاطعه محمود: أعرف ما قلته، لقد كنت أشاهد العرض، وعلى الرغم من أدائك السيء، إلا أنني أصدقك.

نظر صبري إليه في تشكك، تابع: المشكلة أن رئيس المباحث لم يصدقك، حتى أنه كان قد أعد لك حفل استقبال محترم، لكنني

تمكنت من التفاهم معه، وإليك التالي، سوف يتم إطلاق سراحك فورًا، ونسى مسألة هروبك المثير للشكوك، وهو الذي إن أردت رأيي، ما دمر مصداقيتك تماما لدى زملائي الآخرين، بل إننا لن نفتش أكثر عن السبب الذي دفعك إلى الهرب، فهذا شأن أشخاص آخرين، لكن بشرط واحد.

قال صبري بسرعة: أي شيء يا باشا، أنا جاهز.

قال محمود: جيد جدًا، ستقوم باعطائنا أية معلومات تساعدنا في معرفة مكان رمضان، تعلم؟ في حال حضر إلى المنزل أو حاول الاتصال بك أو بأي من أفراد عائلتك فإنك ستقوم بإبلاغنا فورًا.

بدا على صبري بعض التردد، قال محمود متابعًا: لا داعي لتذكيرك بأنك في حال عرفت أي شيء عن رمضان ولم تقم بالإبلاغ عنه فإن من السهل جدًا اعتبارك شريكًا في الجريمة، زميلي الذي سبق أن قابلته سوف يرحب بإلقاء التهمة عليك فقط لمجرد إثبات أنه كان على حق بإساءة الظن بك، وفي حال تأخرنا في القبض عليه، فإنه سيرحب بإحضارك إلى هنا بالقدر ذاته، أرجو أن تكون قد فهمت ما أقوله لك.

قال صبري بلهجة صادقة: أنا أفهم كل الذي قلته يا سيدي، لكنني في الحقيقة، لا أعتقد أن رمضان يمكن أن يقتل، إنه لص محترف ويتمتع بموهبة عالية في النشل واقتحام الأبواب المغلقة، لكن لا يمكن أن يقتل.

قال محمود: ألم يسجن من قبل خمسة سنوات لمحاولته قتل سيدة؟

قال صبري موضحًا: لقد حاول ايداءها فقط ليمنعها من الصراخ، لم يكن يريد قتلها.

قال محمود بلهجة باتة: لقد حاول من قبل وفشل، ولكن هذه المرة نجح، لقد ترك وراءه العديد من الآثار، لم ينقصنا سوى أن يقوم بكتابة اسمه في مسرح الجريمة.

التزم صبري بالصمت دون أن يعلق، في حين قال محمود: حسنا، متفقون أخيرًا.

فتح باب الغرفة ودخل أحد مجندي الشرطة وبيده كوب شاي قام بوضعه على الطاولة أمام صبري ثم غادر من حيث أتى. قال محمود: سوف نتركك تذهب الآن، سأترك لك رقم هاتفي الشخصي، في حال تذكرت أي شيء.

_ لكن ماذا لو لم يظهر رمضان مرة أخرى؟

_ طالما أنك تمدنا بالمعلومات أولاً بأول، فأنت رجلنا، حتى ولو هرب رمضان فسوف يتم أخذ تعاونك بعين الاعتبار إذا لم تكن مقصرًا، بمعنى آخر ستكون "صديق الشرطة".

فكر صبري بالتسمية وهو يرتشف القليل من كوبه، ثم قال معلقًا: تعجبنى هذه التسمية، صديق الشرطة، شيء مختلف عن الوشاية، أن تكون واثقًا أمر سيء، ولكن أن تكون صديقًا فهذا أمر آخر.

قام محمود من مجلسه استعداد للخروج.

قال: أريد أن أعرف كل شيء عن نشاطات رمضان في الآونة الأخيرة، من هم أصدقاؤه، من قام بالاتصال به مؤخرًا، من يجلس معه في المقهى، من هم أعداؤه، كل ما تعرفه.

قال صبري ببعض التردد: الحقيقة يا سيدي، منذ أن خرج رمضان من السجن آخر مرة قبل سنتين، لم نعد نعرف عنه الكثير، كل ما أعرفه هو أنه أصبح يعمل تحت مظلة شخص مجهول يدعى الشبح.

سأل محمود: من هو هذا الشبح؟

_ شخص يقوم بتنظيم عدد من العمليات الإجرامية في المنطقة، من سرقة ودعارة ومخدرات، كل ما يمكن أن يخطر ببالك، مثل ما يطلقون عليه في المصالح الإدارية ضابط ارتباط.

_ وتعتقد أن هذا الشخص هو من قام بالتخطيط للجريمة التي ارتكها رمضان.

_ لا أعلم يا سيدي، لكن ما سمعته أن العمليات التي يقوم بها رجال الشبح عمليات محدودة وحذرة ولكن عوائدها عالية، وغالبًا لحساب أشخاص آخرين، يدير تنظيمًا سرّيًا وليس زعيمًا لعصابة معروفة.

هزم محمود رأسه، لم يكن يعتقد هو كذلك أن ذلك الشخص هو المسؤول عن السرقة هذه المرة، فالشخص الذي خطط للأمر شخص قريب جدًا، وظاهر جدًا، لكن ربما أن هذا الشبح قد ساعد رمضان على الاختفاء، مليون ونصف دولار يمكنها إخفاء هرم. سأل: وأنت لا تعرف هوية هذا الشخص.

قرب صبري الكوب من فمه لأخذ رشفة جيدة، إلا أنه عدل عن ذلك عندما سمع السؤال، ثم قال: لا يا باشا، لا أعرفه، ولم أسمع عن أحد يعرفه.

قال محمود مشددًا على كلماته: ولكنك ستعرف المزيد عن هذا الشخص، وعن مدى تورط أخيك معه.

للمرة الثانية أبعد صبري الكوب عن فمه قبل أن يشرب: بالتأكيد،
بالتأكيد يا سيدي، أنا منذ الآن صديق الشرطة، سوف أعمل جاهداً
لتقديم أية مساعدة ممكنة.

_ وأنا لا أتوقع منك أقل من ذلك، لكن كبداية سوف يحضر الآن إلى
هنا مساعد من المباحث، ستخبره بما تعرفه عن الأشخاص الذين
كان يتردد عليهم رمضان أو الأماكن التي يمكن أن يختبئ فيها.
_ حسنا يا سيدي، سأفعل.

قال محمود: بالمناسبة، في حال كنت تتساءل، فإن الكاميرا الموجودة
فوق الباب مطفأة.

أبعد صبري كوب الشاي عن فمه للمرة الثالثة دون أن يشرب، هذه
المرّة انسكب القليل من السائل على الطاولة نتيجة للحركة المفاجئة.
_ كيف عرفت يا سيدي أنني كنت أتساءل عن ذلك.

هز محمود كتفيه وهو يقول: لقد رأيتك تنظر إلى الكاميرا مراراً عندما
تركناك وحدك، كما قمت بالنظر إليها عندما قام رئيس المباحث
بصفحك، الكاميرا لا تقوم بتشغيلها إلا في الاستجوابات المهمة والتي
يهتم أشخاص آخرون برؤيتها، للأسف فإنك لست على هذا القدر من
الأهمية.

_ هذا من حسن حظي يا باشا.

ابتسم محمود ثم غادر الغرفة، في حين قرب صبري كوب الشاي من
فمه وشربه كله دفعة واحدة. فالشاي كان قد أصبح بارداً.

كان سامح قد دخل إلى مكتبه للتو للمرة الأولى منذ ما يقارب الشهر، شهر كامل اختبر به أمورا لم يسبق له أن جرّها في حياته. الفترة التي قضّاها خلف القضبان على الرغم من قصرها، كانت واحدة من أقسى التجارب التي مرّ بها، لكنه كان يؤمن بمقولة أن ما لا يمكنه كسرك، يجعلك أقوى. وهو كان يتوقع حدوث ذلك منذ اللحظة الأولى، إلا أنه يأمل في أنه قد تمكن من التعامل مع الموقف بشكل جيد، وأنه سيكون قادرا على التعامل مع ما سيظهر لاحقا. بشكل أفضل. كان متأكدا من ذكائه، وذكاؤه لم يسبق له أن خانه من قبل.

أخذ بعض الوقت في تأمل أثاث المكتب ومحتوياته، اعتمد على ذاكرته لتحديد ما إذا كان هناك شيء قد تم أخذه من مكتبه، إذا كان هنالك شيء تم تحريكه من موضعه. في النهاية اقتنع بأن كل شيء على ما يرام وأن المكتب بقي على الحال التي تركه عليها. عند هذه المرحلة استبدت به حالة هدوء نسبي، تقدم إلى الأمام بصدر مشدود وجلس خلف مكتبه. في اللحظة التالية فتح هيثم باب مكتبه دون أن يطرق، دخل وأغلق الباب خلفه ثم تقدم باتجاه سامح وهو يمد يده لمصافحته، فقام الأخير ومد يده لمصافحة هيثم وهو يشد على يده بطريقة فاجأت هيثم الذي لم يتوقع ما هو أكثر من مصافحة باردة لا معنى لها.

قال هيثم وهو يجلس على أحد المقاعد: لقد كنت أرغب في الحضور لتعزيتك، لكن أنت تعلم الظروف، اتهامك بالقتل وجسك وما إلى ذلك، أصبحت الأمور غريبة بعض الشيء.

قال سامح: لا بأس، لقد أصبحت الأمور غريبة على الجميع.

قال هيثم معلقاً: الشرطة يقع عليها اللوم في هذا كله، خطأهم كان مربكاً جداً، في النهاية فأنت أكثر من عانى في هذا الأمر.

_ الأمر الأصعب في هذا كله هو عدم تمكني من حضور جنازة زوجتي.

_ لقد قمت بنفسني بكل ترتيبات الجنازة لتظهر بالمظهر اللائق.

تجاهل سامح ما قاله هيثم، وقال متابعاً ما كان يفكر في قوله: أتمنى على الأقل أن يتمكنوا من تصحيح الأمر ويقوموا بالقبض على الفاعل الحقيقي.

_ من هذه الناحية لا تقلق، سيكون هناك فاعل، سيقبضون على شخص ما، لكن أخشى أن الأمر لن يكون مماثلاً بالنسبة إلى المسروقات، ما تتم سرقة من الصعب أن يعود إلى صاحبه، من المؤسف حقاً أن المرحومة كانت تحتفظ بالمجوهرات في خزانها، في هذه الأيام يبدو لي ذلك كأنه دعوة مفتوحة للسرقة، لو كانت بقيت محتفظة بها في صندوق الودائع لما حصل ما حصل.

تهند سامح ثم قال: أنت تعرف كيف كانت المرحومة في الفترة الأخيرة، كانت أمورها غريبة بعض الشيء، كانت لديها مقولة مؤخرًا، ما فائدة الأشياء الجميلة إذا لم نستمتع بالنظر إليها في كل وقت.

قال هيثم لنفسه بصوت غير مسموع: حسناً، الأشياء الجميلة يمكنها أن تتسبب في قتلك أيضاً.

مضت فترة من الصمت، قال هيثم بعدها: فيما يتعلق بسير العمل، قد تلاحظ أنني قد قمت باتخاذ بعض القرارات الجديدة في غيابك. قال سامح مقاطعًا قبل أن يتمكن هيثم من المتابعة: سيبقى كل شيء على ما هو عليه.

توقف هيثم عن متابعة ما كان بصدد قوله، ثم قال متسائلًا: ماذا تعني؟

قال سامح موضحةً: كل القرارات التي قمت باتخاذها والأوراق التي قمت بتوقيعها بالنيابة عني ستبقى سارية المفعول. نظر إليه هيثم في تشكك.

_ قد أضطر إلى التغيب عن الشركة في الفترة القادمة، أعتمد عليك بالاستمرار في القيام بالعمل الجيد.

بدأت الكثير من الأفكار الجديدة تراود هيثم، كان قد هيا نفسه لسيناريو مختلف قليلا. تابع سامح: لا زلت أشعر بأنني مشتت بعض الشيء ولن أكون قادرًا على التركيز في شؤون العمل، سأمنح نفسي إجازة مفتوحة، وسأبقى على تواصل مع نادين، وحينما ينتهي هذا الأمر ربما أسافر مع هاني لبعض الوقت، لتغيير الأجواء قليلا. بالمناسبة، نادين لم تحضر للعمل اليوم؟

_ لقد نسيت مفاتيح مكتبها، قمت باستضافتها في مكنتي إلى أن يقوم شقيقها بإحضار مفاتيحها من المنزل.

هز سامح رأسه، ثم قال: يمكنني الاعتماد عليك، أليس كذلك؟ زادت الأفكار ازدحامًا في دماغ هيثم، قال: بالتأكيد، يمكنك الاعتماد عليّ.

_ جيد جدًا، سأواظب على الحضور حتى نهاية الشهر، بعدها ستكون أنت المسؤول.

لم يكن هيثم يتوقع أن تسير الأمور على هذا النحو الجيد، كان يتوقع جدالاً، اختلافاً في الرأي، تبادلًا للاتهامات ربما، بعضًا من اللوم والعتاب انطلاقاً من صلة النسب الضئيلة، ثم بعدها يقوم هيثم بتوضيح أنه يملك عقدًا للعمل في الشركة يمتد لمدى الحياة مع شرط جزائي بقيمة خيالية في حال الاستغناء عنه، إنه يعرف الكثير من الأسرار التي يمكنه أن يهدد بالإفصاح عنها، يمتلك العديد من الوثائق، لكن سامح كان متساهلاً للغاية. بدأ عقله يعمل بسرعة كبيرة، سامح على ما يبدو لا زال متأثرًا بما حدث على الرغم من مرور شهر كامل، سيغيب عن الشركة لفترة جديدة، الأمر الذي يعني المزيد من الفرص المتاحة، إذا غاب القط فالعب يا فأر.

هذه المرة لا يجب أن يبقى متفرجًا، فرصة أخرى تلوح في الأفق، ولا بد له من استغلالها جيدًا، والتخلص من سامح نهائيًا هذه المرة. نسي هيثم نفسه في خضم أفكاره، شد قبضة يده وقام بتوجيه لكمة إلى فخذ ساقه وهو يفكر بحسرة على ضياع الفرصة في إبقاء سامح داخل القضبان، لاحظ سامح حركته هذه وقال متسائلًا: هل أنت بخير؟

تنبه هيثم إلى ما بدر منه، قال موضحًا: لا عليك، لا شيء مهم، لقد كنت أفكر في أمر خاص، فرصة معينة ضاعت من يدي.

قال سامح بأسلوب من يقدم نصيحة لصديق مقرب: لا مشكلة، لكن في المرة القادمة، يجب أن تستعد جيدًا فالفرص تأتي من دون استئذان.

ابتسم هيثم بامتنان ظاهري وهو يقول: بالتأكيد، وهذا ما في نيتي فعله بالضبط.

هذه المرة كانت بوابة الفيلا الخارجية مواربة، لكنها لم تكن مغلقة بشكل كامل.

ركن محمود سيارته في الشارع بالقرب من بوابة الفيلا، ثم نزل من السيارة وتقدم باتجاه البوابة ودفعها بما يكفي للسماح له بالمرور، ثم خطا باتجاه باب الفيلا الداخلي.

كان رجب قد افترش مساحة من الأرض مكسوة بالعشب تحت شجرة زيزفون، جالسًا يتناول طعامه وقد أعطى ظهره للبوابة، فكر محمود في مدى الخطأ في هذه الوضعية، أن يقوم الحارس بإعطاء ظهره للبوابة، لذا فليدخل من يدخل. ثم خطرت له فكرة أخرى، حتى لو كان رجب موجودًا وقت حدوث الجريمة، فإن ذلك لن يفيد في أي شيء، فهو على الأغلب سيكون غارقًا في النوم، أو في أسوأ الأحوال، كانت ستكون هناك جثة أخرى.

اقترب محمود من رجب حتى أصبح على بعد خطوات قليلة، كانت دوري الخادمة تقوم "بشطف" التراس الخارجي المؤدي إلى الفيلا، كانت منهمة في ما تقوم به إلى حد أنها كانت غافلة عن كل ما حولها، لكن عند النظرة الأولى أدرك محمود سبب قيام رجب بالجلوس بهذا الشكل، فهو لم يكن معطيًا ظهره للبوابة الخارجية، وإنما موجّهًا وجهه للتراس.

_ الماء والخضرة والوجه الحسن.

قالها محمود بصوت عال أفزع رجب الذي التفت إلى الخلف بسرعة، توقف فمه عن المضغ، بقي جامدًا في جلسته مثل تمثال، توقفت دوري عما كانت تقوم به للحظة ونظرت باتجاههما، إلا أنها عادت لمتابعة عملها كأن شيئًا لم يكن.

قال محمود متابعًا قبل أن يفيق رجب من دهشته: لكن في هذه الحالة سأقوم باستبدال الوجه الحسن بالشعر الحسن، فتيات شرق آسيا ربما لا يتمتعن بالكثير من جمال الوجه، لكنهن يملكن الشعر الأجل في العالم، أم أن لك رأيًا آخر؟

قام رجب بابتلاع اللقمة التي كان يمضغها بسرعة، ثم استوى واقفًا وهو يقول بلهجة فيها بعض التوتر: جناب الباشا، أهلا وسهلا. كانت قطعة الخبز لا تزال تتمايل في يده.

_ السيد سامح غير موجود في المنزل، لقد ذهب اليوم إلى الشركة. ثم قال مستدرًا وهو يلقي بقطعة الخبز التي في يده فوق صينية الطعام: عذرا يا جناب الباشا، تفضل لتشاركني الطعام.

قال محمود: أولا لقد سبقتك، وثانيًا أنا لم أحضر هنا لرؤية المهندس، لقد حضرت لرؤيتك أنت.

بدت الصدمة ظاهرة بشكل جلي على وجه رجب، قال: تريد أن تراني أنا؟ هل أنا متهم بشيء؟

كانت أفكار رجب تقوده إلى مكان مظلم، قال وقد حل الخوف محل الصدمة: هل أنا مقبوض علي؟

ثم أخذ ينظر باتجاه البوابة وهو يتوقع دخول حشد من أفراد الشرطة بأسلحتهم ولباسهم الرسمي، هل سيتعرض للضرب المبرح؟ أو الأسوأ، هل سيطلقون عليه الرصاص؟ هل يجب أن يرفع يديه الآن؟

قال محمود الذي فشل في قراءة ما يدور في عقل رجب: لماذا تعتقد أنك مقبوض عليك؟ هل فعلت شيئاً مخالفاً للقانون؟

كانت عينا رجب تدوران في محجرهما يمناً ويسرة بسرعة كبيرة، قال مجيباً دون اقتناع في البداية: لا، لم أفعل شيئاً يخالف القانون. ثم أصبح صوته أكثر ثباتاً وقد عاد ليردد كأنه تمسك بطوق نجاة: لم أفعل شيئاً يخالف القانون.

قال محمود وهو يحاول أن يكون ودوداً أكثر: إذن لا داعي لتشعر بالخوف طالما لا يوجد مبرر للقبض عليك، ما لم تمنحني مبرراً لذلك.

ازدرد رجب لعابه، لم يفهم المقصد من هذه العبارة ولكنه خمن أنها سيئة.

قال محمود: أتيت لكي أسألك فيما إذا كنت قد فكرت فيما دار بيننا من حديث في آخر مرة.

أخذ رجب نفساً عميقاً، لم يكن يتذكر بوضوح ما دار بينه وبين المحقق من حديث في المرة الماضية، قال: جنابك لماذا أتعبت نفسك في الحضور؟ كان يمكن أن ترسل في طلبي وأنا كنت سآتي إليك.

_ لا بأس، لقد كنت ماراً قريباً من هنا.

فكر في نفسه عن عدد المرات التي كان يستخدم فيها هذه العبارة في الأيام الأخيرة.

_ إذًا، هل نحن متفقون؟

قال رجب متشككاً: لم أفهم جنابك.

قال محمود: ردة فعلك هذه، وافترضك أنك على وشك الاعتقال، يبدو أنك قد فكرت كثيراً فيما تحدثنا فيه.

قال رجب مستسلماً: فكرت جنابك، فكرت ولكني متردد قليلاً، كما أنني لا أعرف الكثير، حقاً، لا أعلم فيما إذا كنت سأقدم أي شيء ذا فائدة.

_ دع هذا الأمر لنا، فقط أخبرني بما تعرفه، ما رأيته وما سمعته.
_ ربما هنالك أمر أو اثنان.

_ وسيكون حديثنا سرّاً، ولا داعي لأن يعرف أي شخص عن حضورك، والآن حان وقت الكلام.

قال رجب بدون مقدمات: لقد خاضت المرحومة عراقاً حاداً قبل أسابيع من موتها، وتلقت تهديداً بالقتل أيضاً.

أثارت العبارة التي قالها رجب اهتمام محمود، قال مستبقاً الحديث متابعاً فكرة كانت تدور في رأسه: هل كان هيثم؟

قال رجب موضحاً: لا جنابك، ليس هيثم بيه، إنما السيدة نادين مديرة مكتب سامح بيه.

قال محمود: وهل لديك فكرة عن سبب المشاجرة؟

قال رجب: في الحقيقة أنا لا أعلم ما هو السبب تحديداً، فهما لم تتشاجرا أمامي، لكن حسب ما استنتجت فإن المرحومة كانت قد ذهبت إلى الشركة وقامت بإهانة السيدة نادين أمام عدد من الموظفين في الشركة وقامت بطردها من الشركة.

شك محمود ذراعيه فوق الطاولة، ثم سأل: وما الذي حصل أمامك إذًا؟ كان يحاول أن يتذكر إفادات الموظفين حول هذه النقطة، لكن جميعها كانت مقتضبة وضبابية.

أخذ رجب عدة ثوان قام فيها بترتيب أفكاره، ثم قال: في ذلك اليوم كان السيد سامح والمرحومة قد ذهبا لقضاء عطلة الأسبوع في شرم

الشيخ، كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، حضرت السيدة نادين إلى الفيلا من غير موعد مسبق، لقد كنت قد أغلقت البوابة وجلست في الحديقة لأتحدث مع زوجتي، كنا مخطوبين وقتها، أخذت تضغط على بوق السيارة بصورة متكررة، كانت معتادة على فعل ذلك وكنت أعرف صوت سيارتها، لكن في ذلك الوقت من الليل، كان السكون يعم المكان، لذلك فقد شعرت بأن بوق السيارة يصدر أضعاف صوته المعتاد، في الليل جنابك الأصوات تصبح أعلى بكثير. اضطررت إلى الخروج مهرولا لأفتح الباب وأخبرتها أن السيد سامح ليس في البيت لكنها ظلت تضغط على البوق دون توقف وهي تصرخ بكلام لم أفهمه، لكنني فهمت أنها تطلب مني فتح البوابة، ثم وضعت يدها على البوق دفعة واحدة دون أن تتوقف، قررت أن أفتح لها البوابة حتى تسكت، وعندما فعلت ذلك ضغطت على دواسة البنزين بقوة، كدت أن أتعرض للدهس لولا أنني ابتعدت عن طريقها بسرعة، قامت بإيقاف السيارة في منتصف الممر، ثم خرجت منها مثل المجنونة، ثم عرفت ماذا كان الأمر، فقد كانت سكرانة.

ضاققت عينا محمود بعض الشيء وهو يتخيل المأزق الذي وقع فيه الحارس، في حين تابع رجب: أخذت تسير مترنحة ناحية الباب وهي تصرخ وتشتتم وتطلب من سمية أن تخرج لمواجهتها.

_ يبدو أنك وضعت نفسك في موقف أسوأ عندما قمت بفتح البوابة.
_ هذا ما حدث جنابك، لقد أخطأت بالسماح لها بالدخول، فقد بقيت تصرخ وتشتتم، ثم أخذت تطرق على الباب وهي تردد أنها ستقوم بقتل السيدة سمية، وقد وصفتها بأبشع الألفاظ، عذرا

جنابك، لقد كانت تقول: سوف أقتلك أيها الساقطة، وألفاظ مثل هذه.

سكت رجب قليلا، لكن محمود استحثه على المتابعة، قال: لقد أخافتني جداً، لذلك قمت بسرعة بالاتصال بالسيد سامح، لحسن الحظ فقد أجاب على الهاتف بسرعة، وأخبرته بما حصل، أخبرني بأن أدعها وشأنها.

قال محمود: هذا فقط، أن تدعها وشأنها.

قال رجب: في الحقيقة جنابك لقد شعرت بأنني أخطأت عندما قمت بالاتصال بالسيد سامح، فبعد أن أنهيت المكالمة معه بدقة هدأت المرأة تماماً، جلست عند الباب صامته لمدة عشر دقائق تقريباً، ظننت في البداية أنها نامت وهي جالسة في مكانها، لكن عندما اقتربت منها كانت عيناها مفتوحتين، لكنها كانت هادئة، ورائحة الخمر كانت تفوح منها. طلبت مني أن أحضر لها كوباً من الماء، ركضت إلى غرفتي لأحضر لها الماء لكنني سمعت صوت محرك السيارة، وعندما خرجت إلى الساحة من جديد رأيت السيارة وهي تخرج من البوابة. لكنني مع ذلك شعرت بالقلق، لذلك اتصلت بالمهندس سامح مرة أخرى لأخبره فيما إذا كان علي أن أتصل بالشرطة أو أفعل أي شيء، المرأة كانت تبدو في حالة سيئة للغاية، وربما كانت ستؤذي نفسها أو أي شخص آخر.

قال محمود: حسناً، نعرف الآن أنها لم تؤذ نفسها، لكننا لا نعلم فيما إذا كانت قد آذت شخصاً آخر.

لم يفهم رجب ما يلمح له المحقق، قال معبراً عن ذلك: ما الذي تقصده جنابك؟

قال محمود: لا عليك، كنت أفكر بصوت عال فقط، أكمل من فضلك، ماذا حصل بعد أن اتصلت بسامح مرة ثانية.

سكت رجب قليلاً، ثم تابع: أجبني المهندس سامح من الرنة الأولى، وأخبرته أن الست نادين قد هدأت من تلقاء نفسها وغادرت المكان، وأخبرته عن مخاوفي، فقال لي إنه سيتصرف، وطلب مني ألا أخبر أي مخلوق بما حصل تحت أي ظرف وخاصة الست سمية.

ثم نظر إلى محمود وهو يقول باستعطاف: لهذا السبب كنت متردداً جداً في قول أي شيء عن هذه الحادثة، لأنني كنت قد وعدت المهندس سامح، لكن الآن فإن المسألة تختلف بالتأكيد.

قال محمود: آخر شيء يمكن أن تقلق لأجله هو إخلافك لبعض الوعود البسيطة، موت سيدتك غير كل شيء.

قال رجب وهو يهز رأسه: بالتأكيد، أنا شاكر جداً لجنابك، لقد كنت شخصاً متفهماً جداً، أدعو الله أن يكثر من أمثالك، لقد تعرض أحد أبناء عمومتي للضرب المبرح من قبل رجال الشرطة لأنه رفض أن يشهد ضد صديق له في جنحة بسيطة، ومع ذلك استمر مصراً على موقفه ولم يقل أي شيء، لو كان فيهم رجل متفهم مثلك ربما قام بإخبارهم بما يريدونه دون الحاجة لصفعة واحدة حتى.

هز محمود رأسه، قال: أكمل من فضلك، ما الذي حدث بعد ذلك؟ هل عرفت المرحومة بما حصل؟

_ في اليوم التالي حضرت العائلة مبكراً قبل الموعد المفروض أن يعودوا فيه، كانت السيدة سمية تبدو غاضبة لأنها دخلت إلى المنزل دون أن تلقي علي التحية كما هي العادة، وكان وجهها متجهماً، فيما بعد عندما غادر السيد سامح سألتني عما إذا كانت نادين قد

حضرت إلى هنا، أنكرت الأمر تمامًا. غضبت وصرخت في وجهي، فهمت أن السيدة نادين قد أرسلت لها رسالة ذات مضمون غريب، السيدة سمية كانت امرأة هادئة بطبعها ونادرا ما كانت تصرخ، حتى عندما تكون غاضبة كانت تحرص على أن تتحدث بهدوء واتزان، لكنها هذه المرة صرخت في وجهي. وفي المساء عندما حضر المهندس سامح بدا أنهما تشاجرا، صراخها وصل إلى مسامعي في الخارج، لكنني لم أسمع شيئا من الحديث الذي كان يدور بينهما.

قال محمود: وهل تشاجرا بعد ذلك؟

قال رجب: أبدأ، فقط تلك المرة، في اليوم التالي عادت المياه إلى مجاريها، على ما يبدو أن هيثم بيه تمكن من حل الخلاف.

قال محمود مندهشا بعض الشيء: هيثم عرف بما حدث؟

شعر رجب من خلال الاهتمام الذي أظهره محمود أنه تسرع عندما قام باستنتاج الأمر وحده، قال متراجعا: جنابك بصراحة لا أعلم إذا كان عرف أم لا، لكن في اليوم التالي حضر هيثم بيه إلى الفيلا وجلس مع السيدة سمية في الحديقة ويبدو أنهما كانا يتحدثان في موضوع مهم، بعدها لم تعد السيدة سمية غاضبة وعاد كل شيء طبيعيا، لذلك افترضت أنهما كانا يتحدثان في هذا الأمر، أعتقد أنه كان يتوسط للسيدة نادين حتى لا تطرد من الشركة، ويبدو أنه تمكن من إقناعها بذلك وحل الخلاف، السيدة سمية رحمها الله كانت طيبة القلب والسيد هيثم كان دائما له خاطر عندها.

سكت محمود قليلا وهو يفكر، ثم قام بتغيير الموضوع فجأة مترجما ما كان يفكر فيه إلى كلمات: هل تعتقد أن المهندس سامح كان على علاقة مع مديرة مكتبه؟

كان السؤال مباشرًا وصادمًا بالنسبة إلى رجب، لكن إجابته كانت سريعة: لا جنابك، هذا أمر مستحيل.

قال محمود وهو يغمزه لكسب ثقته حتى يتحدث بحرية أكبر: لم لا؟ الفتاة جميلة جدًا وهو رجل صاحب نفوذ وغني ويتمتع ببعض الوسامة.

قال رجب مؤكدًا: لا جنابك، لا، سامح بيه ليس من هذه الفئة من الرجال، لقد كان مخلصًا جدًا لزوجته، ولم يسبق لي أن رأيت عليه أي شيء، لكن جنابك لو قلت لي هيثم بيه لقلت لك ربما، هيثم بيه "ولا مؤاخذه" زير نساء، وكان يحب أن يستعرض علاقاته الغرامية أمام أي كان، لا أعرف إذا كان على علاقة مع السيدة نادين ولكني لا أستبعد أبدًا أن يكون قد حاول إقامة علاقة معها.

ثم رفع كف يده وهو يقول مؤكدًا: لكن جنابك هذا رأيي فقط، ولا يعني أنه قد حصل فعلاً.

الأسلوب الذي تحدث به رجب دفع محمود إلى الضحك، ثم قال معلقًا: كما تريد يا رجب، ورأيك يحترم. ابتسم رجب وهو يتمم بعبارات الشكر. _ والآن، أريدك أن تركز معي جيدًا.

قالها محمود بجدية تامة وهو يخرج الصورة من جيبه ويناولها إلى رجب: أريدك أن تنظر إلى هذه الصورة جيدًا وتخبرني فيما إذا سبق وأن رأيت هذا الشخص من قبل.

تناول رجب الصورة وهو يقول: آه، هذه صورة رجل. ابتسم محمود وأراد أن يقول شيئًا على سبيل المزاح، إلا أنه امتنع عن ذلك، على الرغم من فضوله الشديد لمعرفة ما يمكن أن يدور في

رأس رجب في هذه اللحظة. قال رجب وهو يفتح عينيه على اتساعهما بعد أن أدرك ماهية الأمر: يا إلهي، هذا هو المجرم؟

قال محمود: محتمل، هل سبق ورأيتَه؟

نظر رجب في الصورة بتركيز شديد، حك رأسه مرتين، تركه محمود يأخذ كامل وقته، قال أخيرا وهو لا يزال ينظر إلى الصورة: لا أعرف، لا أظن أنني رأيتَه من قبل في حياتي.

قال محمود: حاول أن تتذكر، فيما إذا كنت قد شاهدت شخصا يشبه الذي في الصورة يحوم بالقرب من الفيلا، بائع متجول، عامل نظافة، شخص يتصرف بغرابة.

بقي رجب ينظر إلى الصورة لكن دون جدوى، قال محمود: يفترض أن تكون عالما بكل ما يحدث حول الفيلا، ألم تقل في المرة الأولى التي تحدثنا فيها إنك تعرف كل شاردة وواردة؟

ظن رجب أن المحقق جاد في عتابه، شعر بالتوتر، ثم أخذ ينظر إلى الصورة بتركيز أكبر وهو يمسخ عرقه المتساقط عن جبينه بعد أن ابتعد عن ظل الشجرة، إلا أنه استسلم في النهاية: آسف جدا جنابك، لا أستطيع أن أخبرك ما إذا كنت رأيتَه من قبل.

استعاد محمود الصورة من رجب ونظر إليها، وجه سمين مدور، فك صلب، عينان جاحظتان مخيفتان، ندبة مميزة فوق حاجبه الأيسر، الندبة وحدها كانت كافية لأن تبقى عالقة في الذاكرة إلى الأبد، أعادها إلى جيبه من جديد.

كانت دوري قد انتهت من عملها، قامت بحمل معدات التنظيف ودلقت إلى الداخل وأغلقت الباب خلفها. قال محمود وهو يراقبها وهي تقوم بإغلاق الباب: بالمناسبة، زوجتك هنا؟

_ لا جنابك، بقيت في البلد ريثما أقوم بترتيب بعض الأمور هنا قبل إحضارها.

_ أه، هذا يفسر الأمر إذًا. حسنا، سأغادر الآن، على ما يبدو أنني قد أفسدت عليك غداءك.

لم يفهم رجب ما قصده المحقق، قال وعلى وجهه ابتسامة ظهرت من غير قصد: جنابك لا توجد أي مشكلة، أنا معتاد على أن أتناول طعامي باردًا.

خرجت مني الدموع رغما عني، اختنقت بها، انهزت باكية، أخذت الكلمات تخرج مني كسجين يخرج إلى العالم بعد أن بقي حبيسا لعشرات السنين، أنا الملوّمة، أنا الملوّمة.

لقد انتشر الداء واستفحل، لم يعد في جسمي أي موضع خال من الرضوض، يد ابني الكبير قد التأمّت لكن هيمات أن يلتئم جرح الروح.

خمس غرز، هذا ما استدعاه الأمر لتقطيب الجرح في رأس ابنتي الصغيرة، آخر العنقود، ملاكنا الصغير، الطيبة تنظر إليّ في شك ولسان حالها يقول: هل سقطت هي الأخرى من الدرّج؟

ثم تدير رأسها وتنهمك في قطب الغرز، تتجاهل الأمر تمامًا، فالأمر لا يعنينا، لا تعجبي نظرة الشك في عينها، الشك الذي يحمل في طياته اتهامًا مبطنًا.

يقول لي أخي: هذا ليس إنسانًا، إنه حيوان، شر مستفحل. أقول مدافعة عنه: لم يقصد أن يؤدي ابنته الصغيرة، أنا من كنت المقصودة بهذه الضربة.

ياله من عذر أقيح من ذنب.

يقول لي أخي: لماذا لا تطلقينه؟

أسكت دون أن أجيب، الزوجة يمكنها أن تطلق زوجها، لكن كيف يمكن للضحية أن تطلق الجلاد؟

اعتذرت عن الحضور إلى العمل مرة أخرى، هذه المرة قلت لزميلتي إن ابنتي الصغيرة مريضة، أصابتها الحمى. تتمنى لابنتي الشفاء العاجل وتغلق الخط، زميلتي إنسانة عملية ولا تهتم بالتفاصيل.

أمي تحدثت معي على الهاتف، حاولت أن أبدو متماسكة، مثلما كنت أفعل دومًا، سنين مضت دون أن أشعرها بأي شيء، لكن الحال قد تفاقمت والداء قد استفحل وانتشر وأصبح لا سبيل إلى احتوائه. فاجأني أخي بحضوره من غير ميعاد، أرسلته والدتي بعد أن ضاقت بكتماني ذرعًا، هذه المرة غلبت عاطفتها عقلها.

صمدت أمامه لثوان، لكن قبل أن أنهار باكية. رجوته، تمكنت من إقناعه بأن يترك الأمر ولو لحين، أخي فتى مهذب، بانتظاره مستقبل مشرق وخطيبة كأنها قطعة من ألماس. لن أورطه في هذا الأمر، لن أقوم بتوريط أي من عائلتي، النهاية لن تكون في صالح الأخيار هذه المرة.

قال لي: لكن يا شقيقتي، لقد تجاوز الحد سلفًا، ما يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟ ليكن ما يكون.

أقول مدافعة من دون اقتناع: إنها حالات قليلة نادرة، في معظم الأيام يكون هادئًا، يعاملني والأولاد بكل احترام وتقدير، لا نبغى أكثر من ذلك، التقدير والاحترام، لكنها لحظات مبطنة، أفعال تصدر منه في غفلة عن عقله الواعي.

يقول لي: زوجك يعاقر الخمر ويتعاطى المخدرات.

أقول: بل زوجي مريض، فهو لم يكن بهذا السوء عندما تزوجته، ربما ضغط العمل، أو ظروف الحياة المتردية، ربما يعود إلى رشده، أكيد أنه سيعود إلى رشده.

يقول لي: لقد طال أذاه الصغيرة.

تحسست بأصابعي الغرز على رأس صغيرتي النائمة ثم قبلتها، ثم قلت في نفسي: من الذي أخدعه؟ إنه قذر جبان، لن يعود إلى رشده أبدًا. لقد كان أخي صادقًا، زوجي تجاوز الحد.

— **محمود** باشا، خطوة عزيزة.

قام سامح من مقعده خلف طاولة المكتب ومد يده لمصافحة محمود الذي قال: أعرف أنني دائمًا أحضر من غير موعد.

— لا عليك، نحن نرحب بقدمك في أي وقت.

قال محمود وهو يجلس على أحد المقعدين المقابلين لطاولة المكتب: أعلم ذلك، لكنني أخشى في إحدى المرات أن أكون قد أتيت في وقت غير مناسب.

قالها وهو ينظر إلى نادين التي كانت تجلس قبالته، قالت ببرود: كل الأوقات مناسبة لحضور رجال المباحث على ما أظن.

ابتسم محمود دون أن يرد، قام سامح بطلب فنجان من القهوة للمحقق الذي لم يعترض هذه المرة، الأمر الذي أوحى لنادين بأن هذه الجلسة قد تطول قليلا، لكنها لم تبدِ أية نية في مغادرة المكان والعودة إلى مكتبها، قامت بتعديل وضعية جلوسها واضعة ساقا على ساق.

قال محمود وهو ينظر إلى سامح: لقد فكرت في الحضور بنفسي كي أقوم بإبلاغك بأخر مجريات التحقيق.

قال سامح بامتنان واضح: أنت تتعب نفسك دائمًا، أنا شاكر جدًا لك.

_ لا بأس في ذلك، الأمر الذي حضرت لأجله على أية حال هو لإخبارك بأننا منذ أيام قليلة تمكنا من معرفة هوية الشخص الذي قام بقتل زوجتك المرحومة.

نظر إليه كلاهما في دهشة، قالت نادين بسرعة: من هو؟
نظر محمود إليها ثم عاد لينظر إلى سامح وهو يقول: لص منازل اسمه رمضان تينة، جميع البصمات والعينات التي أخذت من مسرح الجريمة عائدة إليه، وهو مختف عن منزله منذ يوم الجريمة.
تدخلت نادين مرة أخرى قائلة باستغراب: لص منازل محترف؟
عاد محمود لينظر إليها مرة أخرى، كان واضحًا أن هناك فكرة ما في رأسها، قال معلقًا: هذا الشخص لديه سوابق كثيرة، وقد تم سجنه لخمس سنوات عندما حاول خنق امرأة أثناء قيامه بإحدى عمليات السرقة.

_ أوه.

أخرج محمود الصورة من جيبه وناولها إلى سامح وهو ينظر إليه بتركيز شديد، فقد كان رجلا يصعب قراءة أفكاره في أحيان كثيرة.
_ هذا هو رجلنا، ربما تكون قد رأيتته من قبل.

نظر سامح إلى الصورة مليًا، شعر محمود بأن ملامحه قد تغيرت قليلا ليظهر عليها الغضب وهو ينظر إلى الصورة وقد تنازعت الأفعال السيئة، لكنه بقي محافظا على ثبات ملامحه. في حين فكر محمود في أن الحزن والغضب أمور يسهل قراءتها، تراجع ونظر باتجاه آخر.
_ لم أشاهده من قبل.

قالها سامح وهو يعيد الصورة إلى محمود، الذي ناولها بدوره إلى نادين وهو يقول: يمكنك أن تكوني أفضل حظًا.

عبارته كانت تحمل في طياتها معنىً خفيًا، لكن نادين لم تستوعب الأمر على الإطلاق، إنما أخذت العبارة على أنها نوع من المزاح، قالت وهي تتناول الصورة: لا أظن أنني محظوظة إلى هذه الدرجة. لم ير محمود على ملامح وجهها سوى الاشمئزاز وهي تتأمل صاحب الصورة.

_ يا الهي، ما هذه الندبة التي على جبينه؟ منظرها مرعب. إلا أنها لم تحاول أن تبعد نظرها عن الصورة، نظرت إليها مليًا، قالت أخيرًا: لو كنت قد شاهدت مثل هذا الوجه في حياتي فأنا متأكدة من أنني لن أنساه أبدًا، أنه أشبه بالمسوخ. تناول الصورة من نادين وأعادها إلى جيبه، ثم قال: لقد تم التصريح لوسائل الإعلام لنشر صورة القاتل، سوف يكون في قبضتنا في غضون أيام قليلة.

قال سامح: افعلوا ما عليكم فعله.

قال محمود: لتكن واثقا من أننا سنفعل، هو ومن قام بتحريضه على السرقة، هناك أمر آخر أرغب في التحدث مع الأستاذة بشأنه. نظرت إليه نادين باهتمام وترقب، قال: أريد فقط أن أتأكد من أمر سمعته بالصدفة من أحد الموظفين في الشركة. بأنك قد قمت بتهديد المرحومة بالقتل قبل أسابيع من وفاتها.

من جديد تمكن من إثارة اهتمام كليهما، قالت نادين: هيثم أخبرك بذلك. ثم ألقى شتيمة بصوت منخفض.

قال محمود: ردة فعلك تعني أن في ما ذكرته شيئًا من الصحة.

قالت نادين وهي تكتم انفعالاتها: لقد كان شيئاً ذكرته وحسب، لقد حدث بيننا شجار في المكتب وكنت غاضبة بعض الشيء، وعندما قمت بقول ما قلته لم أكن أعني ما أقوله حقاً.

بقي سامح ملتزماً الصمت، في حين قامت نادين بتناول حقيبتها من جانبها وقامت بإخراج علبة السجائر والولاعة.

محمود لم يبد رغباً بترك هذه المسألة تمضي لحال سبيلها، انتظر إلى حين قامت نادين بإشعال سيجارتها قبل أن يسألها: هل لي أن أعرف سبب هذا الخلاف؟

قالت ببساطة كأنما لم يعد هناك شيء تخاف عليه: لقد كانت تشك في أن هناك علاقة غرامية بيني وبين زوجها.

كان الغضب الذي تحاول إبقاءه خفياً قد بدأ يظهر شيئاً فشيئاً. أخذت تقوم بنفث دخان السيجارة بيد مرتعشة وهي تفكر في أنه كان يجب عليها المغادرة منذ اللحظة الأولى التي خطت قدماً محمود فهما الغرفة.

تدخل سامح في محاولة للتخفيف من حدة توترها: سأخبرك أنا بموضوع هذا الخلاف إن سمحت لي يا حضرة المحقق.

هز محمود رأسه موافقاً، في حين أشار سامح إلى نادين بأن تغادر الغرفة، غادرت بخطوات عصبية وتمتمات غير مسموعة.

قال سامح وهو يتابع نادين إلى أن خرجت من باب الغرفة: حسناً، إليك الأمر، سمية رحمها الله لم تكن في حالة طبيعية في الشهور الأخيرة من حياتها.

توقف عن الكلام قليلاً، انتظره محمود ليتابع، أخذ نفساً عميقاً ثم قال: أصبحت تتصرف بشكل غريب، ترهق نفسها في العمل

الاجتماعي في يوم ثم تتخلى عنه في اليوم التالي وتبدأ في عمل غيره، قامت بتغيير الأثاث أكثر من مرة، أصبحت تعزل نفسها عن المناسبات الاجتماعية أكثر وأكثر، ومن ثم أصبحت تشك في كل شيء حولها، في البداية أخذت تشك في أن دوري الخادمة تقوم بسرقة أشياء ثمينة من الفيلا، ثم أخذتها أفكارها لتعتقد أنني أقوم بخيانتها مع نادين إلى حد أنها طلبت الطلاق، وآخر أفكارها الغريبة كان أن البلد سوف تدخل في حالة حرب قريبة، وأن الاقتصاد سينهار والبنوك سوف تفلس، ولذلك قامت باسترجاع مجوهراتها من البنك دون أن تعلمني بذلك، بل إنها كانت تصر على أن تقوم بسحب جميع أرصدها من البنوك وإخفائها في الفيلا، لولا أن لدينا حسابًا مشتركًا لفعلت ذلك، ثم رغبت في بيع الفيلا وتصفية الشركة والهجرة إلى أمريكا.

قال محمود: هل طلبت منك الطلاق فعلا؟

_ بل وأصرت عليه بشدة، لكنني نظرا للحالة التي كانت تمر بها قمت بالمماطلة، وبالفعل، اختفى هذا الأمر من حيث أتى، وانشغلت في أمور أخرى أكثر غرابة.

أخذ نفسي عميقا آخر ثم تابع: في البداية ظننت أنها ربما تعاني من بعض الفراغ في حياتها بعد أن قامت بترك منصبها في الشركة، إلا أنني أدركت بعدها أن الأمر يتعدى مجرد فراغ، لقد كانت تعاني من أعراض البارانويا.

قال محمود متسائلا: وهل فكرت في عرضها على طبيب نفسي؟

ابتسم سامح في مرارة وهو يقول: لم أجد الفرصة المناسبة للقيام بذلك، الغضب الذي فجرته في وجه نادين حينما اتهمتها بالخيانة

جعلني أفكر ألف مرة قبل أن أقوم بأي شيء يمكن أن يتسبب في إزعاجها.
فكر محمود قليلا فيما قاله سامح، ثم قال: حسنا، الأمر لن يشكل فارقا الآن.

لم تدم الصورة في يده سوى ثانيتين فقط، أعادها بعد ذلك وهو يقول بفضاظة: لم يسبق لي أن رأيته في حياتي.
قال محمود وهو يبتسم: أنت بالكاد نظرت إلى الصورة.
أخذ هيثم يقوم بتسوية شعره بكف يده، ثم قال: هل تعتقد حقا أنني أعرف مثل هذا الشخص؟ كل الذين أعرفهم أشخاص محترمون وأبناء ذوات.
_ أظن أنك قد أخطأت الفهم قليلا، أنا أسألك لأعرف فيما إذا كنت قد صادفته بالقرب من الفيلا في إحدى المرات التي كنت تقوم فيها بزيارة ابنة عمك.
هز رأسه نافيا بشدة، ثم قال: أنا آسف، ليس بإمكانني مساعدتك في هذا الأمر.
قال محمود وهو يقف استعدادًا للانصراف: وأنا لن أقوم بتعطيلك أكثر من ذلك.
وقف هيثم بدوره وهو يقول بلهجة فيها الكثير من المجاملة المصطنعة: لم تشرب شيئاً بعد.
قال محمود: لا تقلق بهذا الشأن، لقد شربت في مكتب السيد سامح.
_ أه.

_ لقد أمضيت عنده أكثر من نصف ساعة، وقد تبادلنا الكثير من الحديث الذي أتى ثمره، نادين كانت حاضرة لمعظم الحديث.

قال هيثم بحذر: حقًا، في ماذا تحدثتم؟

قال بأسلوب عفوي: في القضية بالتأكيد، فيم سيكون حديثنا إذا؟ وبما أنك سألت فقد تذكرت أن هنالك أمرًا يمكن أن أسألك عنه.

_ وما هو ذلك؟

قال محمود وهو ينظر إلي عينيه مباشرة: هل تعتقد أن سامح ونادين تجمع بينهما علاقة غرامية؟

_ علاقة غرامية؟

_ على ما يبدو أن المرحومة كانت تعتقد ذلك.

عاد هيثم ليمسح بيده على شعره من جديد، ثم قال: لا، هذا مستبعد.

قال محمود بحماس مفتعل: في الحقيقة هذا أمر وارد جدًا، العلاقة الغرامية تدعم ادعاءاتك السابقة بأن المرحومة كانت تطلب الطلاق من سامح، كما أنها تشكل دافعًا قويًا لكليهما للتآمر على ارتكاب جريمة القتل.

بدا أن هيثم يفكر بجدية فيما قاله له المحقق، قال: هذا ممكن.

_ هذا يجعلني أتساءل حقا عن السبب الذي قد يدفع بالمرحومة إلى الشك بوجود مثل هذه العلاقة، على الرغم من أن نادين تعمل في الشركة منذ سنوات عديدة، ربما أن شخصًا ما قد أوحى لها بذلك مثلاً.

هذه المرة بدا على هيثم عدم الفهم، عبر عن ذلك بالكلمات.

_ لا أفهم ما الذي تقصده.

قال محمود: صدقني، أنا كذلك لا أفهم، لكن كلانا سيفهم الكثير في الأيام القادمة.

_ خيار، طماطم، جزر....

ظل سمير طاهر ممسكًا بالقلم والورقة أمامه وهو يكتب ما يملى عليه من الهاتف بصبر بدأ ينفد.

_ قفازات بلاستيكية للجلي، محارم معطرة...

احتج أخيرا: هذه لائحة طويلة وأنا لذي الكثير من العمل، لماذا لا تقومين بإرسالها إليّ عن طريق الواتساب.

جاء صوت زوجته على الطرف الآخر من الهاتف ساخطا: أنت تعرف أن نظري أصبح ضعيفًا ولم أعد أطيق الكتابة بأحرف صغيرة، أحضرت لي هاتفًا حديثًا يقوم بتكبير الحروف أو تابع الكتابة وأنت ساكت.

_ ساكتب وأنا ساكت.

عادت لتلمي عليه ما تريد أن يقوم بإحضاره، في اللحظة التالية دخل غرفة مكتبه آخر شخص كان يتوقع مشاهدته، أذهلته المفاجأة إلى الدرجة التي قام فيها بإلقاء القلم من يده وأغلق الهاتف في وجه زوجته وهو يتوقع الأسوأ. رأى الأصفاد قريبة منه بدرجة كبيرة، أخذ وقتًا قصيرا لكي يقوم بإخفاء اضطرابه، ثم قام من مكانه وهو يرحب بالقادم: سيادة المحقق، أهلا وسهلا.

قال محمود وهو يبتسم في وجه الرجل: أعتذر عن المفاجأة، لقد كنت في زيارة للمهندس سامح والسيد هيثم وعندما كنت في طريقي إلى المصعد لأغادر نظرت بالصدفة إلى مكتبك ورأيتك.
_ آه، أهلاً وسهلاً يا سيدي، لا بأس، تفضل بالجلوس. قالها بكلمات سريعة ومتتابعة دون فواصل.

بدأ محمود يفكر جديدًا فيما إذا كان هذا الرجل يخفي شيئًا أو أن فقط لديه نزعة طبيعية للخوف من أصحاب الزي الرسمي، تذكر سلوك رجب في الصباح، أم أنها حالة فطرية هذه المرة.
_ لقد كنت مغادرا وسأتابع طريقي، لكنني فكرت بما أنني رأيتك، وبما أن هنالك علاقة قوية تربطك مع السيد هيثم، بأنك قريب مما يجري وأنه ربما يمكنني أن أسألك عن أمر ما.

قال سليم: علاقة قوية؟ لا يا سيدي، لا توجد أي علاقة، أعمال فقط.

قال محمود: لا بأس، لنقل علاقة عمل قوية، المهم.
ثم أخرج الصورة من جيبه وناولها إلى سليم وهو يقول: قل لي إذا ما كنت قد رأيت هذا الشخص من قبل.

نظر سليم إلى الصورة باستغراب شديد، لم يرغب في سؤال المحقق عن صاحب الصورة، اكتفى فقط بالنظر، أجب: لا يا سيدي، لم يسبق لي أن شاهدته من قبل. ثم أعاد الصورة بسرعة كأنه يرغب في التخلص من حمل زائد.

استعاد محمود الصورة من جديد، كان يتوقع الإجابة، لكنه فكر في أن لا ضير من السؤال. قال: حسنا، يبدو لي أنك كنت منشغلا في عمل بالغ الأهمية، لذلك سأتركك لتكمل ما كنت تقوم به.

تنفس سليم الصعداء عند خروج المحقق، ولم يأبه حتى بالتفكير في هوية صاحب الصورة، تنبه إلى صوت عبد الباسط حمودة الصادر عن هاتفه، فأسرع إلى طاولة مكتبه ليجيب على زوجته الغاضبة.

كانت ضربة قوية تلك التي وجهها معترز بقدمه اليمنى، سقط معها الباب الخشبي المتهالك صريعاً على البلاط القذر، دخل بعدها معترز ومعه مراد واثنان من أمناء الشرطة إلى غرفة صغيرة الحجم خالية تقريباً من الأثاث، باستثناء كرسي بلاستيكي وطاولة صغيرة وفراش متسخ وذابل اللون وقد جلس عليه شاب نحيف حليق الرأس يرتدي فانيليا بيضاء غارقة في القذارة وبنطالاً رياضياً أسود اللون، كان رأسه متدلياً على صدره، وبجانبه عدد من الحقن الفارغة ملقاة على الأرض.

بصعوبة شديدة، مثل عجوز في الثمانين، رفع الشاب رأسه إلى الأعلى ونظر إلى الرجال الذين اقتحموا عليه خلوته المقدسة، أربعة رجال بوجوه متجهمة ومسدسان موجهان إلى صدره، لم يبد أي رد فعل، بقي يحدق في القادمين بنظرة فارغة.

أعاد معترز مسدسه إلى جرابه وهو يقول: ليس هو.

قال مراد وهو يقوم بإعادة مسدسه بدوره: أخبرتك بأنه لن يكون موجوداً هنا، هذا الفتى يحترم خصوصيته كثيراً.

نظر معترز إلى الشاب الغافل عن الحياة وسأله بصوت حاد: أين رمضان تينة يا ولد؟

لكنه لم يتلقَ أية إجابة، نظر مراد إلى معترز وأشار له برأسه بما معناه أن لا فائدة من توجيهه أي أسئلة.

سأل أحد الأمناء: هل نقوم بجره إلى القسم يا باشا؟

قال معتز: لا، دعوه وشأنه، مجرد مدمن حقير.
 ظل المدمن ينظر إليهما لدقيقة كاملة دون أن يهتز له جفن، وفي
 الدقيقة التي تليها انتفض فجأة وهب واقفا، أطلق صرخة هستيرية:
 أيها المجرمون، ما الذي فعلتموه لبوابة المملكة؟
 نظر إليه الرجال الأربعة في دهشة، لكنه كان أكثر يقظة مما توقعوا،
 دار البؤبؤ بسرعة إلى أن حدد خصمه بدقة، نظر إلى معتز وهو يقول:
 أيها اللعين، ستدفع ثمن كسرك لباب مملكتي.
 ظهرت في يده مطوأة من العدم وهو ينظر إلى معتز في تحفز قط
 يتأهب للانقضاض على نظير له، أخرج مراد مسدسه من جديد
 وصبوه باتجاه المدمن، واتخذ أمينا الشرطة وضعية الاستعداد
 للهجوم.

_ اتركوه لي. قالها معتز بلهجة أمرة.

أنزل مراد مسدسه إلى أسفل إلا أنه بقي قابضا عليه، وتراجع
 الأمينان إلى الخلف قليلا ليفسحا المجال، في حين ظل معتز واقفا
 بظهر مفروود وهو ينظر إلى الشاب في تأفف. زمجر الشاب وهو يلوح
 بسلاحه معلنا الحرب، ثم قام بتوجيه ضربة إلى وجه معتز الذي
 تفادها بسرعة بالانحناء برأسه إلى الخلف مما أفقد الشاب توازنه
 وكاد أن يسقط على وجهه لولا أن تمالك نفسه في آخر لحظة، لكن
 معتز لم يترك له الفرصة للوقوف وإعادة الكرة عندما وجه له
 تسديدة بقدمه اليمنى أصابت خده الأيمن فترنج إلى الخلف، قفز
 معتز في الهواء ووجه له تسديدة أخرى إلى صدره ألقت به على ظهره
 وهو يتأوه.

السقطة الأخيرة كانت بمثابة الإذن لأميني الشرطة بالهجوم، ركضاً باتجاه الجسد الملقى على الأرض وأخذاً يوجهان إليه الركلات، إلى أي مكان تصل إليه أقدامهما، ظل الأخير يتأوه بصوت ضعيف إلى أن غاب عن الوعي، في حين تناول معترز المطواة من على الأرض ووضعها في جيبه، لمح كيساً شفافاً صغير الحجم بداخله حفنة من مسحوق أبيض، تناوله أيضاً ووضعها بجانب المطواة، ثم أمر أميني الشرطة بحمل الفتى الصريع ووضعها في سيارة الشرطة.

كان شريف متكئاً إلى سيارته أمام باب المنزل الذي جرت مدهامته، كان ينفث دخان سيجارته بسرعة جنونية كأنه يسابق الزمن لإنهاءها، رأى أميني الشرطة يخرجان من المبنى وهما يجران شاباً حليق الرأس، قدماه تركتا خطين متوازيين فوق التراب الأبيض، تقدم شريف باتجاههما ونظر إلى وجه الشاب، نظرة واحدة كانت كافية ليعرف أنه ليس الشخص المطلوب، الوجه أكثر نحافة بكثير وملامحه تختلف تماماً، وبلا أي ندبة عدا بضعة جروح قديمة وحديثة، ألقى السيجارة على الأرض بعصبية في اللحظة التي كان فيها مراد ومعترز يخرجان من المبنى، سار باتجاههما وهو يقول: إنه ليس الشخص المطلوب.

قال معترز: نعلم بأنه ليس هو، هل لك أن تهدأ قليلاً؟

قال شريف وهو يكتم غيظه: لا أحتمل أن يفر مجرم من يدي، الوقت هنا عامل حساس. إنها مجرد بضعة أسابيع.

أخذ شريف يزفر في غضب ثم قال: بضعة أسابيع وقت طويل جداً، قد يكون الآن في أي مكان، خارج البلاد حتى، لن أحتمل أن تقيد هذه القضية ضد مجهول في حين أننا نعرف من هو الفاعل.

_ لن يتمكن من الهرب، هناك تعميم بأوصافه على كل النقاط الحدودية، والصحف نشرت صورته، وبالتوقيع الذي يحمله على وجهه، لن يذهب بعيداً.

سارمراد على خطى رئيسه قائلاً: يا صديقي، رمضان هذا مجرم محلي "لوكال" كما أن المجوهرات تجعل مسألة هروبه أكثر صعوبة، يمكنه الاختباء لكنه لن يتمكن من الهرب.

عاد شريف ليزفر من جديد، إلا أنه كان أقل توتراً بكثير، نظر لسيارة الشرطة وهو يقول: وهذا الشخص الذي قمت بإمساكه، هل يمكن أن يعرف أي شيء؟

أجاب مراد هذه المرة: لا أعتقد يا باشا.

عاد شريف ليتحدث بجدّة: هل هذا يعني أن صبري تينة يقوم بلعبة قدرة.

أراد مراد أن يتحدث من جديد إلا أن معترز أوقفه، أعطى أوامره لمراد بأن يذهب في سيارة الدورية، ثم قال لشريف: هل هذا كل ما في الأمر، هل بينك وبين صبري تينة هذا مسألة شخصية؟ سأقوم بإحضاره إلى القسم وتحطيم عظامه إذا رغبت في ذلك.

_ كل ما أريده هو إنهاء القضية اللعينة، رئيس القطاع سيكون أول شخص يوجه لي أصابع اللوم، خاصة بعد الخطأ الذي ارتكبته في اعتقال زوجها الوغد، لقد أخبر المدير العام للمباحث بأنني المسؤول عن اتخاذ القرارات فيما يتعلق بهذه القضية ولكنه مع ذلك يفرض

علي الطريقة التي يجب علي العمل بها. لا أعرف ما الذي سيتجه إليه هذا الأمر في المستقبل.

_ لا تضخم الأمر، هذه كلها أمور عادية.

لم يمنحه الفرصة ليبرد، قام بسحبه من يده باتجاه السيارة وهو يقول: لا تبقى غاضبًا هكذا، تعال، سنعود إلى القسم ونشرب كوبين من الشاي ونتحدث قليلا.

_ بالتأكيد، من يده في النار ليس كمن يده في الماء.

توقف معتر عن السير، وقف قبالته وقال: اسمع، نحن أصدقاء منذ مدة طويلة، أليس كذلك؟

قال شريف في عدم صبر: أنت تعلم أننا كذلك، قل لي ما الذي ترمي إليه؟

ابتسم معتر وهو يقول: ما أريد قوله هو أنني أعدك بأننا سنقبض عليه، وأنت تعلم تمامًا من هو معتر فيصل عندما يقوم بإبرام وعد لأعز صديق لديه.

عبارته الأخيرة أزلت ما تبقى من توتر وغضب ليحل محلها الارتياح، قال شريف بنبرة جديدة: لقد أتعبتك معي حقًا بإخراجك من مكتبك.

_ لا داعي، هذا العمل أعاد لي الحياة من جديد، بدلا من الجلوس خلف طاولة مكتب مثل موظف حكومي، الاستماع إلى الشكاوى وتحرير المحاضر طوال الوقت. ربت على كتفه مرتين.

_ حسنا، الآن يمكننا أن نشرب الشاي. وربما يمكننا لاحقًا أن نشرب ما هو أفضل من الشاي.

كانت الساعة قد قاربت على الخامسة فجراً، الحاج لطفي السحار الموظف المتقاعد حديثاً من منصب كبير المحاسبين في شركة مقاولات كبرى كان قد عاد للتو من المسجد القريب من منزله بعد أن أدى صلاة الفجر، زوجته وشريكته منذ أربعين سنة كانت وقتها تجول في المطبخ، وقد انشغلت في إعداد كوبين من الشاي حتى يتسنى لهما الجلوس في البلكونة كما اعتادا أن يفعلا في الصباح الباكر في أيام الصيف. في حين جلس هو على الأريكة المفردة في غرفة الجلوس ليرتاح قليلاً بعد أن أتعبه صعود السلالم إلى الطابق الثالث لتجتاحه آلام المفاصل المعتادة. وصل إلى مسامعه صوت نغمة مألوفة، أخذ منه بعض الوقت ليدرك ماهية الصوت، دخلت زوجته الصالة وهي تحمل صينية الشاي ولتقول مؤكدة: يبدو أن هاتفك يرن يا حاج.

قام لطفي من مقعده وهو يتمتم: اللهم اجعله خيراً.

لم يكن من المعتاد أن يتلقى أية مكالمات في وقت مبكر مثل هذا، خاصة بعد أن قام بترك العمل واكتفى بالجلوس في المنزل، لذا فقد كان الأمر منطقياً تماماً أن يتوقع الأسوأ وهو يتجه إلى غرفة النوم ليتناول هاتفه الجوال.

_ أبي، جاء صوت ابنته على الطرف الآخر بارداً وبعيداً.

_ ماذا هناك يا ابنتي؟

_ أبي، أنا في مصيبة... ثم بدأت بالنشيج.

شهقت زوجته وهي تنظر إليه في ترقب من مكان وقوفها عند باب الغرفة، دقات قلبه أخذة بالتسارع، سأل مجدداً: يا ابنتي، قولي لي، ما الذي حدث؟ هل حصل مكروه لك أو للأولاد؟
 جاء صوتها متقطعاً وممزوجاً بالبكاء: أبي، لقد... لقد...

ظل يلح عليها في رجاء، فقدت زوجته أعصابها إلا أنها لجأت إلى الدعاء، أخذ فمها يتمتم بسرعة وعيناها معلقتان على زوجها.

_ لقد قتلته يا أبي، قتلته.

_ من الذي قتلته؟

شهقت زوجته بصوت أعلى بدرجات وهي تضرب بيدها على صدرها دون أن يكف لسانها عن الدعاء كأنها تعيش لحظاتها الأخيرة، جاء الصوت المتقطع الممزوج بالبكاء أخيراً بالإجابة.

_ زوجي، لقد قتلت زوجي يا أبي.

استيقظ حسام نجيب وكيل النيابة على صوت هاتفه ذي الرنين الجاد، كان يعرف معنى أن تأتيه مكالمة في مثل هذا الوقت المبكر، ولكن أن تكون في يوم الأحد، بداية أسبوع العمل.

قام من فراشه وطرده بقايا النوم من عينيه بسرعة، كان حدسه صحيحاً. فهناك جريمة قتل راح ضحيتها رجل أربعيني في شقة في حي قريب من موقع سكنه، قام بإيقاظ زوجته لتقوم بإعداد إفطار سريع ريثما يقوم بتجهيز نفسه، حرص على أن يسير على أطراف أصابعه كي لا يوقظ ابنه الرضيع، ثم ذهب إلى الحمام وقام بحلاقة ذقنه وأخذ دشا سريعاً، ثم تناول إفطاره على مهل، وارتدى ثيابه وربطة العنق.

بعد عشر دقائق كان يقود سيارته في الشارع المطلوب، شاهد عدد من سيارات الشرطة مجتمعة أمام العمارة. تأفف حينما لم يجد مكانا لركن سيارته، لذا فقد قام بركنها بشكل مزدوج بجانب إحدى سيارات الشرطة، في طريقه صادف أحد مجندي الشرطة يقف عند باب العمارة، أعلن عن نفسه بصوت أجش: حسام نجيب وكيل النيابة.

_ أهلا أهلا يا باشا، الشقة المطلوبة في الطابق الرابع إلى اليمين.
ثم أفسح الطريق لمرور وكيل النيابة، إلا أنه شعر بأنه يجب عليه أن يقول شيئاً ما.

_ على فكرة يا باشا، القتل ضابط شرطة.
توقف وكيل النيابة عن السير ونظر باتجاه الشرطي وقد أصابه بعض الفضول.

_ ضابط شرطة قلت لي.

_ ضابط شرطة يا باشا.

_ ما اسمه؟

لم يجب، أخذ يحاول تذكر الاسم، أثار مباراة البارحة كانت لاتزال عالقة في مخيلته، الهدف الذي أحرزه الأهلي في اللحظات الأخيرة، الدوري الذي أصبح الظفر به مسألة وقت، لكن وكيل النيابة لم ينتظر طويلاً، فقرر الاستمرار في سيره، نطق الشرطي أخيراً.

_ محمود، أظن، اسمه محمود طلعت يا باشا.

قال وكيل النيابة في دهشة شديدة: محمود طلعت من المباحث؟

ثم شعر بأنه تسرع بعض الشيء في إظهار دهشته، تنحنح ثم ألقى نظرة سريعة حوله، رأى رجلين يقفان في الطرف الآخر من الشارع، يتحدثان بهم ويسترقان النظر باتجاه العمارة.
قال بلهجة أمرية: لا أحد يدخل إلى العمارة إلا إذا كان من السكان، ويتم التثبت من هويته.
أجاب الشرطي: بالتأكيد يا باشا، بالتأكيد. كانت أهاليج الجماهير لا تزال ترن في أذنيه.
سار وكيل النيابة باتجاه العمارة وقد ازداد فضوله لرؤية ضابط الشرطة المقتول.

القسم الثالث

كانت الغرفة مكونة من صالة واسعة وثلاث غرف، لم يحتج وكيل النيابة إلى الكثير من الوقت ليعرف الغرفة التي تمت فيها الجريمة، فقد كانت الغرفة الوحيدة ذات الباب المفتوح وجمع الناس الداخلين والخارجين منها. رجال شرطة بالزي الرسمي ورجال من المعمل الجنائي والطبيب الشرعي، لم يرغب في توجيه أية أسئلة قبل أن يقوم بمعاينة الجريمة أولاً، توجه إلى الغرفة وقام بإلقاء نظرة سريعة.

كان المجني عليه ملقى على بطنه وسط بركة من الدماء تجمعت فوق السجادة، الدكتور خيرى الطبيب الشرعي كان منحنياً فوق الجثة وهو يلقي نظرة متفحصة للجروح المنتشرة على ظهره، بدأ عقله يرتب النتائج تبعاً.

حسناً، من الواضح أن الجريمة تمت في الغرفة نفسها، كانت هناك بقع دماء فوق السرير، القتل تلقى عدة طعنات في ظهره. حاول الاقتراب أكثر لرؤية وجه القاتل الذي كان موجهاً إلى الأرض، لكن ما ظهر له من جانب وجهه كان مغطى بالدماء، كان ظهر الطبيب ومساعدته يحجبان الرؤية.

أحد الرجال الموجودين في المكان عرف عن نفسه بصفته رئيس مباحث قسم الشرايية.

قال وكيل النيابة: هذه الجريمة ليست خاضعة للاختصاص المكاني للقسم.

قال حامد رضا وعلى وجهه إمارات الحزن: لا يا باشا، لكن القتل نفسه من اختصاصنا.

لم يفهم وكيل النيابة تحديداً ما الذي يقصده حامد وإن كان قد هز رأسه موافقاً، قال بلهجة أقرب إلى التساؤل: كنت أظن أنه يعمل في قسم قصر النيل.

_قصر النيل.

_ محمود طلعت ضابط المباحث.

استنتج حامد أن وكيل النيابة يبحث عن محمود طلعت، قال: في الغرفة الأولى في الممر حيث توجد الجانية ووالدها.

ما إن انتهى من عبارته حتى فتح باب الغرفة المقصودة وخرج منها محمود وأغلق الباب خلفه، قال حامد وهو يشير إليه: ها قد خرج من الغرفة.

اقترب محمود من الرجلين وألقى التحية على وكيل النيابة على عجل، قال: الجانية موجودة في الغرفة مع والدها، المجني عليه هو زوجها وهي تدعي أنها قامت بقتله دفاعاً عن النفس. قال حامد: لا أظنك تصدق مثل هذه الترهات.

ثم قال موجهاً حديثه لوكيل النيابة: بعد إذنك يا باشا، لكني أرى أن هذا قتل مع سبق الإصرار والترصد، بالنظر إلى عدد الطعنات الكبير على جسد المرحوم.

قال وكيل النيابة موجهاً السؤال الذي شغل يفكيره كثيراً في الدقيقتين الماضيتين: ضابط الشرطة المقتول، ما اسمه؟

قال حامد مستدرگاً: عذرا يا باشا، ظننتك تعرف، العقيد معتز فيصل، مأمور قسم الشرايية.

_ أها. قالها وكيل النيابة وهو يهز رأسه بعد أن فهم سبب وجود رئيس مباحث الشرايية هنا، أخذ يلعن في سره المجند الذي قابله في الأسفل والذي اختلطت عليه الأسماء.

قال محمود متابعًا: المجني عليه تلقى عدة طعنات في البطن والصدر والظهر، لم نتمكن من تحديد عددها أو ظروف حصولها بعد، الدكتور خيرى لا زال يعمل على ذلك، لكن تمكنا من ضبط سلاح الجريمة.

قال حسام نجيب: سكين مطبخ.

هز محمود رأسه نافيًا ثم قال: سلاح الجريمة عبارة عن مطواة.

_ مطواة؟

_ مطواة من النوع المعروف بقرن الغزال ذات مقبض من الخشب الأحمر. من النوع الذي ينتشر استخدامه بين المجرمين وأولاد الشوارع، وقد وجدت بجانب المجني عليه مغطاة بالدماء.

_ كيف أمكنها الحصول عليها؟

_ الجانية تدعي أن المجني عليه حاول الاعتداء عليها باستخدام المطواة لكنه كان في حالة سكر وترنج، فتمكنت من أخذ المطواة منه وقامت بطعنه بالشكل الذي وجدت عليه الجثة.

قال حامد محتجًا: هذا كذب واضح، الجانية خطت جيدًا لجريمتها، بالتأكيد تمكنت من تجهيز قصة لتبرير فعلتها.

قال حسام نجيب موجهًا كلامه لرئيس المباحث: لا تشغل بالك، سوف نتحرى هذه القصة جيدًا، ولكن مما شاهدته في الداخل، فإن الوضع لن يكون لصالحها بالتأكيد.

غرفة الأولاد كانت مكونة من سريرين مفردين متجاورين، وخزانة ملابس والعديد من الصور المعلقة على الحائط للاعبين كرة قدم وممثلي أفلام أكشن مشهورين وأبطال خارقين. تمت إزاحة السريرين بحيث أصبحا متلاصقين وتم إحضار كرسيين من الصالة، كانت المهمة تجلس على طرف السرير، تنظر إلى أرضية الغرفة ودموعها تنساب في صمت، وبجانها رجل كبير في السن يرتدي نظارة طبية ويوجه نظره إلى الحاضرين بانتظار ما سيحدث لاحقًا. وقبالتهما كرسيان جلس حسام نجيب على أحدهما وجلس محسن رئيس مباحث الغرب على الكرسي الآخر، وبقي كاتب النيابة واثنان آخران من رجال الشرطة بالإضافة إلى رئيس المباحث ومعاونه مراد واقفين، وقد تمكن الكاتب من تدبير أمره للكتابة بوضعية الوقوف.

هز وكيال النيابة رأسه، ثم نظر إلى كاتبه نظرة ذات معنى، ثم بدأ بإجراء التحقيق بصفة رسمية.

_ اسمي هدى لطفي السحار، ٣٨ سنة، أعمل موظفة بنك، زوجة المجني عليه معترف فيصل ويعمل في سلك الشرطة، لدينا ثلاثة أولاد وبنيت صغيرة.

_ وأين هم الأولاد الآن؟

أجاب لطفي: لقد جاء خالهم وأخذهم إلى منزلي يا سيدي.

قال حسام نجيب: حسنا. ثم عاد لينظر إلى الزوجة وسألها: أخبريني ما الذي حصل بالضبط؟

أخذت بعض الوقت لتحاول استجماع أفكارها، قالت بصوت مختنق: كنت نائمة على السرير في غرفة نومنا، ابناي الكبيران كانا نائمين في هذه الغرفة التي نحن فيها الآن، والابن والبنيت الأصغر سنا

كانا نائمين في الغرفة المقابلة، استيقظت على صوت معتز وهو يصرخ في الصلاة، كانت عودته إلى البيت متأخرًا أمرًا معتادًا، فمعتز كان يشرب كثيرًا ويعود إلى البيت في حالة سكر في أوقات كثيرة، قيامه بالصرخ وتوجيه الشتائم في منتصف الليل كان أمرًا معتادًا أيضًا، وقيامه بالاعتداء عليّ وعلى أولاده بالضرب كذلك أمر أصبح معتادًا. قاطعها حامد بضراوة: ما هذا الكذب؟ هذا الكلام غير صحيح. نظرت جميع الوجوه باتجاه المتحدث، في حين تكلم فم واحد فقط ليرد عليه.

_ لو سمحت لا تقم بمقاطعة التحقيق، كما أنه ليس ضمن اختصاصك. قالها وكيل النيابة بصرامة.

_ لن أبقى هنا لأسمع المزيد من هذه الترهات، قال حامد قبل أن يتوجه إلى خارج الغرفة ويغلق الباب وراءه بشيء من القوة. بقي معاونه مراد صامتًا وجامدًا في مكانه.

مضت لحظات من الصمت، أخذ حسام نجيب وقتًا مبالغًا فيه ليعود لاستكمال ما انقطع من الحديث بحجة إعادة ربط ما انحل من أفكاره، ثم قال: حسنا، المجني عليه عاد إلى المنزل في وقت متأخر وكان في حال سكر وبدأ في الصراخ الأمر الذي جعلك تقومين من فراشك، ماذا حصل بعد ذلك؟

أخذت هدى نفسًا عميقًا للغاية، ثم استأنفت الحديث من المكان الذي وضعها فيه وكيل النيابة: كانت هناك باقة من الزهور موجودة في الصلاة، بالأمس حصلت عليها من إدارة البنك كوني كنت الموظفة المثالية لهذا الشهر، حاولت أن أشرح له هذا الأمر لكنه لم يكن يستمع إليّ، ظل يردد أنه يريد معرفة الشخص الذي أنا على علاقة

معه والذي أرسل إليّ هذه الورود، وكان دليله أن هذه النوع من الورود هو المفضل بالنسبة لي، وأن الشخص الذي أرسله يعرف هذه المعلومة جيدًا، أذكر أن ولديّ الأكبر عمرًا كانا يطلان برأسهما من باب غرفتهما فصرخت فيهما بأن يذهبا إلى غرفة الصغيرين المقابلة لهما وأن يغلقا الباب خلفهما وألا يخرجوا مهما حصل ففعلا ما أمرتهما به، ثم نظرت إلى معتز حيث كان يقوم بتقليب الباقة بحثا عن بطاقة، لكنه عندما لم يجد ما يثبت صحة أقواله جن جنونه، قام بإلقاء الباقة على الأرض وأخذ يدوس على الورود، لقد رأيتموها بأنفسكم في الصلاة، ثم هدأ وتوقف عن الصراخ، عندها ظننت أن ثورته قد هدأت أخيرًا، لكنه كان الهدوء الذي يسبق العاصفة، فقد أخرج مطوأة من جيبه وهو يقول إنه سينتزع الحقيقة مني انتزاعًا.

النظرة الشريرة التي رأيتها في عينيه وهو يلوح بالمطوأة أصابتنى بالذعر، وعندما اقترب مني ركضت إلى غرفة النوم وقمت بإغلاق الباب، إلا أنه أخذ يضرب الباب بقوة محاولا فتحه، ظل يردد أنه لن يقوم بإيذائي لكنني لم أستمع إليه، ومن ثم أخذ يهدد بأني إذا لم أقم بفتح الباب فإنه سيذهب إلى غرف الأولاد ويقوم بنحرهم واحدًا تلو الآخر، شعرت بالجزع عندها وقمت بفتح الباب ثم تراجعت إلى الخلف، دخل إلى الغرفة وهو يترنح في سيره، والمطوأة كانت لا تزال في يده لكنه لم يعد يلوح بها، قال إنه يرغب في أن يتحدث معي بعقلانية، ثم عاد وكرر سؤاله حول باقة الورود فكررت نفس الإجابة، الأمر الذي أثار غضبه من جديد، اقترب مني والسكين في يده وهجم عليّ محاولا طعني، أمسكت بيده التي تحمل السكين بكلتا يدي لأبعدها عني، لكنه ظل يقوم بهز يده، أصاب ذراعي عدة مرات

وتعرضت لجروح، ظل يردد أنه سيقتلني ويقتل الأولاد عقابًا لي على خيانتني، أصابتني كلماته بالجنون، أصبت بحالة لا يمكنني تفسيرها، بأنني تحولت إلى شخص آخر، أصبحت أملك قوة كبيرة، قمت برفسه بقدمي فتراجع إلى الخلف وارتطم بالفاترينة وسقطت السكين من يده، نزلت من السرير بسرعة وتناولت السكين، وشعرت بيده تمتد لتحاول الإمساك برقبتي وتطوق عنقي بعنف، فزعت وقمت بطعنه في يده، ثم لم أشعر بما حدث بعد ذلك، فقد ظللت أقوم بتسديد الطعنات إليه مرة تلو المرة، إلى أن خمدت حركته تمامًا، أيقنت حينها أنه قد فارق الحياة، بقيت ساكنة في مكاني لوقت طويل، ثم سمعت صوت أكبر أبنائي وهو يقوم بمناداتي فقامت من فوري وأغلقت الباب وبقيت مستلقية خلفه حتى لا يتمكن أحد من الدخول وطلبت إليه أن يعود إلى غرفته ويغلق الباب خلفه وألا يخرج مهما كانت الظروف، لم أقم من مكاني إلا بعد أن تأكدت من أنه عاد إلى غرفته بالفعل وأغلق الباب، عندها ذهبت إلى الحمام وقمت بتغيير ملابسني بسرعة وغسلت الدم عن يدي ووجهي، بعدها قمت بالاتصال بوالدي وعدت إلى الغرفة وأغلقت الباب وانتظرت إلى أن حضر هو وشقيقي، حيث قام شقيقي بأخذ الأولاد معه وبقي والدي معي إلى حين حضوركم.

سأل وكيل النيابة: ولماذا وجهت إليه كل هذه الطعنات الكثيرة؟

_ لا أدري، لا أتذكركم مرة طعنته أو أين طعنته، لم أكن أشعر بنفسني، فقط كنت خائفة جدًا، خائفة من أن يقوم من مكانه ويقوم بقتلي.

_ ولماذا لم تتوقفي عن طعنه عندما سقط على الأرض.

_ لا أدري، لقد.. لقد كنت خائفة، خائفة جداً، ولم أكن أشعر بنفسي وبما أفعل، لو عاد إلى الوقوف كان سيقتلني وسيقتل الأولاد.

_ إذًا، كيف تجد العمل في المباحث الجنائية لغاية الآن؟

قالها خيرى وهو يقوم بوضع أدواته في حقيبته بعد أن انتهى من معاينة الجثة، قال محمود مجيبًا: غير مخيب للآمال إطلاقًا. ضحك خيرى وهو يقول: معك حق، غير مخيب للآمال، إنه لأمر جيد أن أقابلك مرتين في ظرف شهر واحد فقط.

سار خيرى مع محمود إلى خارج الغرفة ووقف في الصلاة. سأل محمود: ما رأيك يا دكتور؟ هل الأمر بالسوء الذي يبدو عليه؟ قال خيرى: هذا يعتمد على كيفية نظرك إلى الأمور، لقد أحصيت ما يزيد عن عشرين طعنة. معظمها مرتكز في منطقة الصدر والبطن، وهناك ثلاث طعنات في الظهر تلت الطعنات السابقة التي ذكرتها لك، أنا أقول لك، نحن أمام امرأة غاضبة جدًا أو امرأة تحت تأثير صدمة انفعالية شديدة.

_ شتان ما بين الأمرين في الحكم.

رفع خيرى كتفيه إلى الأعلى وهو يقول: كما قلت لك، يعتمد على كيفية نظرك إلى الأمور، وهذا هو عملكم رجال المباحث. أخذ محمود يفكر في حين نظر خيرى إلى ساعته وهو يقول: على ما يبدو فإنني سأحظى بإفطار متأخر مع هيلين، وجهك حلو علي.

إلا أن محمود تجاهل العبارة الأخيرة ولم يبدُ أنه يرغب في تغيير دفة الحديث نحو عاشقة الآثار، قال متسائلاً: ماذا عن الجروح الموجودة على جسد الزوجة؟

قال خيرى: جرح غير غائر في منطقة الكتف، وجروح قطعية غير منتظمة في الذراعين والبطن.

_ بالتأكيد يمكنها أن تدعم أقوالها بعض الشيء.

_ أو يمكنها أن تقوم بإحداثها بنفسها.

_ وهل يمكن التأكد من ذلك.

_ ممكن جدًّا، عندما أقوم بإجراء كشف أكثر دقة.

في اللحظة التالية سمعا صراخًا هادرًا صادرًا من ناحية باب الشقة، اندفع بعدها شريف إلى الداخل كثور هائج، قطار يصرع على السير في سكتة المحددة له غير أنه بما يمكن أن يرتطم في طريقه، سار باتجاه غرفة النوم دون أن تتمكن الأيدي الممدودة من إيقافه، شاهد صديقه مرميًا على أرضية الغرفة والدماء تنتشر من حوله، أطلق صرخة وحشية، قام بدفع رئيس مباحث الشرابية الذي حاول الاقتراب منه لتهديته بعيدًا عنه ليرتطم في الحائط، ثم أخذ يسير في الممر وهو يصرخ: أين هي؟

لم يكن من الصعب عليه تحديد الغرفة المقصودة التي تتواجد فيها غريمته، والتي فتح بابها في هذه اللحظة وخرج منها مراد ومن خلفه محسن الذي أخذ يصرخ متسائلاً: ما هذه الضجة؟

صرخ شريف وهو ينظر باتجاهه: أين تلك اللعينة؟

ثم حاول التقدم باتجاه الغرفة لكن مراد تمكن من إحاطته من خاصرته بكلتا ذراعيه وتمكن من إعادته إلى الخلف، قبل أن تتدخل

أياد أخرى قريبة لمساعدته، أعطى محسن أوامره وقد احتقن وجهه: خذوه إلى الخارج.

انخرطت المرأة في البكاء بين أحضان والدها العجوز الذي أخذ منه الخوف كل مأخذ، في حين خرج حسام نجيب من الغرفة ونظر إلى شريف الذي كان يزمجر بغضب وهو يحاول مقاومة مراد وأربعة من أفراد ومجندي الشرطة الذين اقتادوه إلى الخارج، قال موجهاً حديثه إلى محسن: ما هذا التهريج الذي يحصل؟

حاول حامد أن يتقدم ويبيدي شكاية بدوره، إلا أنه أثر التراجع بعد أن شاهد الاحتقان بين الرجلين. قال محسن وهو يحاول استعادة هدوئه: يجب أن نلتمس له العذر، المجني عليه أحد أعز أصدقائه.

_ وإن يكن، هذا ليس تصرفاً لائقاً بممثل للدولة، هل هكذا تديرون قضاياكم يا حضرة العميد؟ هذا غير مقبول.

اضطر محسن إلى مجازاة وكيل النيابة بهدوء وروية، في داخله كان في غاية الحنق، تصرف متسرع منح الفرصة لوكيل النيابة للقيام بالتنظير على الكيفية التي يقومون فيها بأداء واجباتهم، لكنه في ذات الوقت يعذر شريف على ما أظهره من غضب، حدد أهدافه القادمة بسرعة شديدة، عليه أولاً أن يمسك نفسه عن توجيه صفقة لوكيل النيابة، ومن ثم السيطرة على تهورات شريف التالية والتخلص من هذه القضية بأسرع ما يمكن، التقت أنظاره بأنظار محمود، وجد فيه الحل المثالي.

سار محسن باتجاه محمود الذي كان لا يزال يقف مع الدكتور خيرى، بدا على خيرى الانبهار الشديد جراء المشهد الدرامي الذي حدث أمامه للتو، كان يحب الاثارة ولكنه يتجنبها، قام محسن

بسحب محمود من ذراعه وانتحى به جانباً وهو يقول: اسمع يا ابني، من الواضح أنني سأقوم باستبعاد شريف تمامًا من هذه القضية. قال محمود معلقًا: هذا أقل ما يمكن عمله.

قال محسن: لهذا سأقوم بالاعتماد عليك بالكامل، سيكون عليك إنجاز التقرير وحدك، لن يكون الأمر صعبًا طالما أن لدينا اعتراف بالجريمة، لكنني أريدك أن تقوم بإنجاز ذلك بأسرع ما يمكن. _أسرع ما يمكن؟

_ اليوم أو غدا على أبعد تقدير.

قال محمود: سأبذل جهدي، ولكنني قد أحتاج إلى المزيد من الوقت. قال محسن في ضيق وهو ينظر إلى الباب الذي كان شريف قد دفع منه للتو إلى الخارج: لماذا المزيد من الوقت؟

_ يجب أن أقوم بأخذ إفادات الوالد الذي قام بالإبلاغ عن الجريمة، والأولاد وربما بعض الجيران، والتأكد من ظروف الجريمة ودوافعها، وتقرير الطبيب الشرعي وربما بعض الفحوصات الطبية الإضافية، يعني، من باب استكمال كافة إجراءات التحقيق لا أكثر، هذه القضية ستكون هدفًا للرأي العام المعارض، ولا نرغب في أن يقال إن المباحث قامت بتهام الجانية على عجل دون أن تحقق في ظروف الحادثة بسبب أن القتل هو واحد من رجال الشرطة.

لم يأخذ وقتًا طويلاً للتفكير فيما قاله له، بدا عليه الاقتناع سريعًا، ربت على كتفه وهو يقول: حسنا، لا ضير من بضعة أيام إضافية.

كل شعرة من جسده كانت ترتجف، أنفاسه كانت تخرج منه بسرعة، الأنفاس تدخل إلى جسده بسرعة ولا تكاد تصل إلى رئتيه حتى يتم طردها إلى الخارج كأنها زائر غير مرغوب فيه، ومؤشر الأدرينالين يرتفع إلى الأعلى شيئاً فشيئاً حتى يكاد ينفجر.

كان قادراً على رؤية كل ما كان يقال داخل الغرفة المغلقة من خلال الزجاج، وكان قادراً على سماع كل ما يقال.

في البداية يتم فك الأصفاد، منذ متى تقوم بفك أصفاد شخص متهم بجريمة قتل، ثم يتم إحضار زجاجة ماء وكوب من الليمون، هل هذه مديرية شرطة أم كوفي شوب؟

فقدانه لأعصابه كان مجرد مسألة وقت، والوقت انتهى بسرعة، سار بخطوات سريعة باتجاه باب غرفة الاستجواب، دفع المجدد الذي يقف على الباب قبل أن يحاول الاعتراض، قام بفتح الباب وجرى بسرعة بالاتجاه الآخر من الطاولة وقام بتوجيه صفعة إلى المرأة التي كادت أن تفقد توازنها وتسقط على الأرض لكن الكرسي الذي تجلس عليه بقي ثابتاً، دخلت في نوبة بكاء.

قام محمود من مقعده بسرعة وأمسك بشريف من ظهر قميصه وسحبته إلى الخلف وهو يصرخ: ما الذي تفعله؟

سقطت إحدى أزرار القميص الذي يرتديه شريف على الأرض، نظر إلى محمود الذي وقف حائلاً بينه وبين المرأة، قال: من الأفضل لك الابتعاد عن طريقي.

قال محمود بلهجة حادة: لماذا؟ لكي تضرب امرأة؟
دخل المجند الذي يقف عند الباب ومعه اثنان آخران وحاولوا
الحيلولة بين ضابطي المباحث وهم يرددون مختلف العبارات التي
تهدف إلى تهدئة التوتر والخلاف.

قال شريف بصوت مبجوح: لقد قتلت واحدًا منا، أتفهم؟ واحدًا منا.
_ وسيتولى القانون محاسبتها على ذلك، لذا من فضلك اخرج من
هنا.

أخذ شريف نفسًا عميقًا، ثم قام بتعديل قميصه، خرج من المكان
وتبعه اثنان من المجندين، في حين استوقف محمود المجند الذي كان
واقفا على الباب وقال له بنبرة غاضبة: قلت لك ألا تدعه يدخل إلى
هنا.

أراد المجند أن يحتج، قاطعه بحدة قبل أن يفتح فمه: قف على
الباب ولا تدع مثل هذا الأمر يتكرر مرة أخرى وإلا سأجعلك تندم.
_ حاضر يا باشا، لن يتكرر الأمر.

خرج المجند وأغلق الباب خلفه، التفت محمود إلى هدى التي كانت
تغطي وجهها بكفها، عاد ليجلس في مقعده وهو يقول: أنا أعتذر لك
جدًا عما حدث، وأعدك بأن هذا الأمر لن يتكرر مرة أخرى.
أزاحت كفها عن وجهها، ثم قالت وهي تكفكف دموعها: ربما يكون
محققًا، لقد قتلت زوجي، قتلت زوجي.

ثم دخلت في نوبة بكاء أخرى، استمرت لفترة قصيرة، بقي محمود
صامتًا في انتظار أن تتمالك المرأة أعصابها، في غضون ذلك قام
بالنظر إلى شاشة الهاتف ولاحظ وجود رسالة من زوجته. قام بكتابة

الرد: وأنا أيضاً، حالياً مشغول في قضية جديدة، وربما أحتاج إلى خدماتك هذه المرة، سأخبرك بكل شيء عندما أعود.
أعاد الهاتف إلى جيبه ثم انتظر قليلاً حتى هدأت المرأة وكفت دموعها عن الانهمار، شربت القليل من المياه ثم وضعت بعضاً منه على كفها ومسحت به وجهها، ثم قالت: حسناً، أنا بخير.
قال محمود: حسناً، أنا اعتذر لك مرة أخرى، أعرف أنك متعبة، ولكننا بحاجة إلى استكمال التحقيق حتى ننتهي من هذا الأمر بسرعة.

رسمت على وجهها ابتسامة قصدت بها أن تكون مجاملة، إلا أن ابتسامتها خرجت باهتة ومرهقة، قالت: حسناً، أنا مستعدة.
ابتسم محمود ابتسامة مشجعة، ثم قال: حسناً، يمكنك أن تتابعي ما كنت تقولينه لي إذا سمحت، حينما اعتدى على ابنته الصغرى بالضرب أول مرة.

خطا شريف بخطوات غاضبة باتجاه مكتب محسن، ألقى تحية باردة ثم جلس في انتظار سماع السبب الذي أدى برئيس القطاع إلى طلبه للحضور إلى مكتبه، وإن كان يعلم على وجه اليقين ما يجب عليه أن ينتظره.

قال محسن وهو يشبك كفيه على سطح طاولة مكتبه: لقد سمعت بما قمت بفعله في غرفة الاستجواب، على الرغم من تهورك هذا الصباح في مسرح الجريمة وأمام وكيل النيابة، والآن تعيد الكرة من جديد في المديرية.

قال شريف في هدوء يخفي في طياته الكثير: تعلم سيادتك أن المرحوم صديق لي، بالإضافة إلى أنه واحد منا، كان من الواجب أن يقوم شخص ما بالغضب لأجله.

_ يا ابني، ما الذي تتوقع أن تفعله بغضبك هذا؟ هل ستأخذ حق صاحبك بيدك وتقوم بقتلها مثلاً.

لم يجد شريف شيئاً ليقوله رداً على محسن، تابع الأخير قائلاً: أن تقوم بضرب متهم لدفعه إلى الاعتراف بجريمته أمر يمكن تبريره، لكن أن تقوم بضرب متهم اعترف بذنبه مسبقاً، وعلاوة على ذلك امرأة. ثم أشار بسبابته اليمى إلى رأسه وهو يقول: يا ابني، استخدم عقلك في هذه الأمور، نحن لا تنقصنا المشاكل حتى نقوم بجليلها لأنفسنا، وترقيتك سوف تفر منك، مكانك المؤقت لن يصبح دائماً. لقد كنت غاضباً.

_ وأنا أقدر ذلك، لكن كضابط شرطة عليك أن تتحمل مسؤولياتك. ثم أضاف بلهجة حازمة: التصرف الصحيح هو أن تبعد نفسك عن هذا الأمر تماماً، وأن تترك محمود ليهتم به.

قال شريف: مع كل الاحترام، لكن لو عملنا بالأسلوب الذي يتبعه محمود في العمل فإننا لن نرسل أي شخص إلى السجن.

_ زميلك الذي نتحدث عنه تعامل مع القضية بحرفية عالية، يقوم بإدارة القضية بموضوعية وحياد شديدين دون أن يسمح للعاطفة بالتدخل، أتعلم ما الذي يعنيه هذا الأمر؟ يعني أنه لن يترك المجال لأي كان بالتشكيك في عملنا، وأننا نقوم بعملنا بنزاهة حتى وإن كان المجني عليه واحداً منا، معناه أن محامي الدفاع لن يجدوا أي مأخذ ضدنا في المحكمة، بهذه الطريقة أيها الضابط المحنك تأخذ حق

صاحبك، بإعمال العقل وبالتصرف السليم، وليس بالتهور وعدم احتساب العواقب.

هز شريف رأسه موافقا على مضض، قال محسن: سوف أمنحك إجازة إلى حين انتهاء مراسم العزاء بالكامل، أريدك بعدها أن تضع الحزن جانبا وتأتيني بمعنوية جديدة، قاتل فيلا الزمالك لم يتم القبض عليه بعد.

_ حاضريا سيدي.

_ وأريدك أن تثق بأن معاونك سيقوم بما يلزم لتحقيق العدالة لمعتز. هز شريف رأسه وهو يقول: أتمنى ذلك.

عاد محمود من المديرية إلى غرفة مكتب المباحث في قسم قصر النيل، ما إن جلس على مقعده حتى استغرق في أفكاره كليًا، دقائق قليلة مضت قبل أن يقوم بإمساك هاتفه الجوال والاتصال بالدكتور خيرى.

_ لم أتوقع أن أسمع منك بهذه السرعة.

قال محمود: عذرا يا دكتور، أعلم أن الوقت متأخر، لكن هنالك أمر أردت أن أطلبه منك بخصوص قضية مقتل ضابط الشرطة. جاء صوت خيرى المرح على الطرف الآخر: بالتأكيد، أي شيء لخدمة العدالة.

قال محمود: أريد أن تقوم بإجراء فحص للأولاد بالإضافة إلى الزوجة.

_ أي أولاد؟

_ أولاد القتل، ثلاثة أبناء وفتاة صغيرة.

ثم تابع موضحًا: هنالك احتمالية أن القتل كان يقوم بالاعتداء على أولاده بالضرب بصفة دورية، أريد أن أقوم بتضمين هذا الفحص في تقرير الشرطة، أرجو أن تقوم بالاهتمام بالأمر.

_ حسنًا، لا مشكلة، وإن كنت حقيقة لا أرى الفائدة من هذا كله، الفحص الأهم برأيي هو تحديد فيما إذا كانت الجروح والطعنات التي تعرضت إليها الجانية من قبل زوجها بسلاح الجريمة الذي استخدمته في القتل هي إصابات حقيقية أم مفتعلة.

_ أعلم يا دكتور، لكنني لا أرغب في إغفال أي شيء.

_ لا مشكلة، كما قلت لك، نحن في خدمة العدالة، حتى العدالة الصغرى.

لم يفهم محمود المقصود بالعدالة الصغيرة، قال: أشكر لك هذا دكتور، سوف أقوم بترتيب الأمر غدًا، لا يبقى سوى تقرير المعمل الجنائي بخصوص نسبة الكحول في دم القتل، سأكون شاكرًا لو قمت بالتدخل لإسراع هذا الأمر أيضًا.

ضحك الدكتور خيرى ثم قال: أرجو أن تنقل تحياتي إلى سيادة المستشار.

أغلق محمود الهاتف وهو يعلم أنه لن ينقل أية تحيات، قام بعمل مراجعة سريعة للأوراق التي أمامه، انتهى من أخذ جميع الإفادات بما فيها إفادات الأبناء، تأكد من أن الجريمة قد حصلت بالطريقة التي وصفتها هدى تمامًا، بانتظار تقرير الطب الشرعي والمعمل الجنائي للتأكيد، لكن الجزء الأصعب هو ما فكر في أن يقوم بعمله

لاحقاً. أما اليوم فقد انتهى، تأخر الوقت ولم يعد هناك ما يقوم بعمله.

كانت منال في انتظاره على أحر من الجمر، تمكنت من تدبر إرسال الأولاد إلى فراشهم في وقت مبكر، قامت بتجهيز الطعام بسرعة فور وصوله إلى المنزل، كان عليها الاحتفاظ بفضولها دقائق إضافية ريثما ينتهي من الأكل، سألتها فوراً بعدها: إذًا، ما الأمر الذي كنت ترغب في أن تحدثني فيه؟

قال: الشاي أولاً ثم نتحدث.

كانت قد استعدت لذلك، إذ إنها كانت قد قامت بتسخين الماء مسبقاً وتجهيز الأكواب ووضعت ميداليتان من الشاي في إبريق الصغير، قامت من فوراً إلى السخان وسكبت الماء في الإبريق وقامت بتركه يغلي لدقيقة إضافية ثم وضعت على الصينية، حملتها ولحقت به إلى الصالة حيث كان يجلس في مكانه المعتاد أمام شاشة التلفاز، وضعت الصينية على الطاولة الزجاجية الموجودة أمامه وصبت الشاي في الأكواب، قامت بوضع السكر وتحريكه، ثم ألقت نفسها بجانبه وهي تقول: الشاي جاهز، الآن أخبرني، فوراً وإلا....
وصوبت إلى رأسه مسدساً وهمياً.

توقف محمود عن تقليب القنوات وترك الشاشة على الوضعية الصامتة، ثم قال: أخبريني أولاً، كيف كان يومك في المحكمة؟

_ لطف منك أن تسأل، مع أنك غير معتاد على توجيه هذا السؤال،
يومي كان جيداً، ولن أضيف المزيد من التفاصيل إلى أن أسمع ما
عندك.

اكتسب وجهه ملامح الجدية، قال: هنالك قضية أرغب في أن تقومي
بالتوكل بها.

قالت باهتمام شديد: أخبرني المزيد.

عادت إلى ذاكرته صورة وجه شريف المنتفخ من شدة الغضب، قال:
الجريمة التي تم استدعائي لها فجر اليوم، امرأة قامت بقتل زوجها،
وتدعي أن فعلها كان دفاعاً عن النفس.

_ أها.

_ وأنا أصدقها، ولكنني لا أظن أن شخصاً آخر سيصدقها.

قالت وهي تنظر إليه في شك: لم تظن ذلك؟

_ القتل ضابط شرطة، مأمور قسم الشرايية.

قالت بتعاطف بالغ: يا إلهي، المسكينة.

قال: هناك فرصة لإظهار براءتها، لكن يجب أن يتم ذلك بالطريقة
الصحيحة، لهذا ستقومين بتولي القضية أمام محكمة الجنايات،
وسأقوم بتزويدك بالمعلومات التي ستحتاجين إليها دون أن يشعر
أحد بأي شيء، لن أتمكن من القيام بذلك في حال تولى القضية
محام آخر.

عضت على شفقتها وقالت: لكن ألن يعرضك هذا لأي مسؤولية؟

قال: ربما وربما.

_ هل عليّ أن أستنتج بنفسني؟

_ أنا أقوم بما علي القيام به.

فكر قليلا، أضاف: يمكنك تكليف أي من زملائك في المكتب بتولي القضية وتقومين أنت بمتابعتها من وراء الكواليس، شريطة أن يكون شخصًا تثقين به.

قالت بسرعة: أمر سهل، سأدع ميادة تتولى القضية، لكننا سنكون بحاجة إلى استئذان والدك طالما أننا سنلجأ إلى محامية تعمل لديه في المكتب، فهم بالنهاية يتقاضون رواتبهم من والدك وليس مني، وأنت تعلم أن والدك لديه قواعد صارمة بشأن قيام أي من الذين يعملون لديه بأخذ قضية لحسابه الخاص.

ثم أضافت بشيء من التباهي الممزوج بالمزاح: باستثنائي طبعًا. أسند رأسه على الأريكة وأخذ ينظر إلى السقف وهو يقول: وها قد وصلنا إلى الجزء الأصعب.

قالت مازحة وهي تضع يدها على ذقنه وتحركها كما تفعل مع أبنائها الصغار: زوجي الحبيب، المناصر لحقوق المرأة.

ثم أسندت رأسها على كتفه وهي تقول: لو أن هنالك عشرة رجال شرطة يفكرون بالطريقة التي تفكر بها، لكان العالم مكانًا أفضل. هذه المرة استعاد صورة وجه معتز الخالي من الحياة، قال في نفسه: لا أعلم إذا كان الجميع يرون ذلك.

نحى محمود الأوراق المتناثرة على طاولة مكتبه جانبًا وانتظر سماع ما جاء به أنور.

كان قد انشغل في الأيام الثلاثة الماضية بالعمل على قضية مقتل معتز، والآن بعد أن أصبحت الأمور معدة تقريبًا، فإن الوقت أصبح متاحًا لاستكمال العمل الآخر غير المنجز، من الملامح البادية على وجه أنور، فقد بدا أنه لم يخيب ظن محمود في أداء التحريات التي طلبها منه.

وضع أنور ملقًا ورقيًا وقد ثبتت صورة صغيرة لنادين في الصفحة الأولى منه، ثم قال: كما توقعت أنت، الفتاة لديها مشكلات في التحكم بالغض، وقد وصل بها مزاجها في إحدى المرات إلى حد محاولة الاعتداء على أحد أساتذتها في الجامعة وقد تم تسجيل شكوى بناء على ذلك.

ثم سار باتجاه طاولة مكتبه التي تقع في الطرف الآخر من الغرفة وجلس على كرسيه، في حين قال محمود دون أن يبدي أي انفعالات: يبدو أن الحظ سيكون حليفنا هذه المرة.

قال أنور متابعًا: هذا الأمر حصل منذ ست سنوات تقريبًا، عثرت على رقم الشكوى، لكن لم أجد أي تفاصيل في قاعدة البيانات، لذلك فقد توجهت إلى قسم شرطة الدقي وحصلت على نسخة من محاضر الشكوى، والآن، هل ستطلب لي كويًا من النسكافيه أم علي الانتظار أكثر.

قال محمود مبتسمًا: لقد طلبت لك مسبقا أيها المتذاكي.

قال أنور بارتياح: إذًا، لنتابع.

ثم عدل من وضعية جلوسه على المقعد. قال: غريمتك لم تقم بالاعتداء على أستاذها بالجامعة بشكل واعٍ، إنما قامت بذلك نتيجة لتعرضها إلى انهيار عصبي أثار على سلوكها ودفعها إلى مثل هذا التصرف.

قال محمود: وكيف عرفت ذلك؟

قال أنور: هناك تقرير طبي بالحالة التي كانت عليها وقت الحادثة.

_أتعلم؟ ربما يمكنك أن تخبرني بما توصلت إليه بشكل مباشر دون أي تفرعات.

قال أنور: الذي حدث هو أن أستاذًا جامعيًا يدعي بدير السيد يقوم بتدريس مادة الإدارة المالية، وكانت نادين وقتها طالبة في السنة الجامعية الثالثة، وحدث أن الأستاذ المذكور قام بإهانتها على الملأ، أمام جميع من كانوا في مدرج المحاضرات في ذلك اليوم، لم تقم نادين بأي ردة فعل في لحظتها، لك أن تحزر ما الذي حدث بعد ذلك؟

ثم نظر إلى محمود منتظرًا إجابة، لكن محمود بقي ينظر إليه دون أن يتكلم، أدرك أخيرا أن لا مكان للتفرعات حقًا، قال متابعًا: كان قد قام بشتمها وطردها من مدرج المحاضرات، غادرت دون أن تنطق بكلمة، وبعد دقائق اقتحمت القاعة وهي تحمل معها عتلة من التي تستخدم في فك صواميل الإطارات، وهاجمته بها وضربته على مؤخرة رأسه.

كان باب الغرفة مفتوحًا إلا أن الساعي على الرغم من ذلك قام بالطرق على الباب من باب الأدب، ثم دخل حاملاً صينية عليها كوبان، قام بوضعهما وغادر بهدوء.

أخذ أنور رشفة سريعة من كوبه، ثم أخذ لحظة ليختبر الطعم، قال: ليس سيئًا، السكر على المقاس تمام. بقي محمود ينتظر بالكثير من الصبر.

وضع الكوب على طاولة المكتب، وأكمل: لم يكتفِ أستاذها بتقديم شكوى بحقها لدى إدارة الجامعة، إنما قام بتقديم شكوى لدى قسم الشرطة يتهمها بالاعتداء عليه بالضرب، بدورها قامت بتقديم شكوى مضادة تتهمه فيها بالابتزاز والقدح والتحرش وأمور أخرى كثيرة، لكن تم إسقاط كلا الشكويين قبل أن تتم إحالتهما إلى المحكمة، والملفت للانتباه وجود تقرير طبي يفيد بأن نادين كانت مصابة بانتهيار عصبي وبأنها لم تكن تعي ما تقوم به، وقد تدبرت نادين أمر الحصول عليه بسرعة وتقديمه ضمن محاضر الشكوى.

_ فتاة ذكية.

دخل أحد المجندين بالزي الرسمي حاملاً ظرفًا مغلقًا وناول له محمود وهو يقول: من مصلحة الطب الشرعي يا باشا.

قام محمود بفتح الظرف وأخرج منه بضعة أوراق وقرأها على عجالة، أثناء قراءته تنبه إلى أن أنور كان ينظر إليه بشيء من الفضول، حرص على ألا تظهر ملامح وجهه أي شيء، عاد ليطوي الأوراق ويعيدها إلى داخل المغلف.

ثم قام من مكانه وهو يحمل المغلف بيد وهاتفه باليد الأخرى وقال:
أنا بحاجة إلى رؤية رئيس القطاع.

كان الظلام قد حل عندما وصل محمود إلى المبنى الذي يقع فيه مكتب والده للمحاماة، على بعد عدة كيلومترات من الفيلا التي تقطنها عائلته في المعادي، اضطر إلى التوقف لأداء صلاة المغرب، الأمر الذي جعله يتأخر دقائق إضافية، مما دفعه إلى التفكير في أنه كان محقا في عدم الاتصال بوالده لتحديد موعد مسبق، كان والده يكره التأخر في المواعيد، خاصة إذا كان هذا التأخر حاصلًا من ابنه. حرارة الجو دفعت الناس إلى الخروج للسير على الكورنيش بحثًا عن نسائم باردة يمكن أن يحملها لهم المساء، المكان الذي مضت سنوات دون أن تطأه قدم محمود، المكان ذاته الذي لم تكن تمضي ليلة من ليالي الصيف دون أن يشاركه أنفاسه، في زمن كان فيه لا يزال شابا صغيرا، وكان الهواء ما زال نظيفا والكورنيش كان ما زال رمزا للشاعرية والأوقات الجميلة.

كان مكتب والده يقع على الطابق السادس في مبنى يزيد ارتفاعه على عشرة طوابق، أما المكتب فقد كان يحتوي على أربعة غرف، الغرفة الأكبر حجمًا كانت غرفة مكتب والده، منال حصلت على ميزة اختيار الغرفة ذات الإطلالة الأجل، الغرفتان المقابلتان تقاسمهما المحامون الأربعة الآخرون في المكتب، السكرتيرة الأربعينية ذات العينين الخضراوين التي عملت سنوات عديدة كطابعة في شركة أجنبية شغلت مساحة في الردهة بطاولة مكتب لا تقل فخامة عن طاولات

المحامين الآخرين، استقبلته بحفاوة على الرغم من أنها لم يسبق لها أن رآته إلا مرة واحدة، في حفل زفاف والده على أسماء زوجة والده التي تشاطره كوب القهوة في الصباح تحت سماء المعادي.

لم تمض سوى عدة أيام عندما رأى والده لآخر مرة في يوم الجمعة الماضي، يوم اجتماع العائلة والوقت الوحيد الذي يتسنى لأشجار الفيلا وورودها الاستمتاع بعيون الأطفال وأيادهم الفضولية والمغامرة. لكن محمود اعترف لنفسه بأن رؤية والده بالبدلة الرسمية الداكنة في غرفة أنيقة الأثاث ومليئة بالملفات والكتب ذات الأحجام الكبيرة والأغلفة الوثيرة كان أمرا مختلفا تماما. لكن الحاجز الأكبر الذي لن يتمكن محمود من هدمه مهما فعله، كان سورا وهمياً من الأسمت المسلح يصل ارتفاعه إلى الشمس، لن يتمكن محمود من اجتيازه مهما فعل، مع أنه من قام بوضعه، لكنه ترك فرجة صغيرة ليتمكن فيها من النظر إلى الجانب الآخر في الأوقات التي يجد فيها نفسه مضطرا إلى ذلك.

واليوم كان واحدا من تلك الأوقات.

_ ما الذي أحضرك من غير موعد؟ قالها المستشار طلعت بلامبالاة اعتادها جميع من يعرفه، أما اجتماعات العائلة أيام الجمع والقبلات التي يحصل عليها الأحفاد وجلسات المساء في الحديقة كانت مجرد هدنة عائلية.

قال محمود: أعتذر عن ذلك، هناك أمر مستعجل أرغب في أن أعرضه عليك.

بإشارة من يده، قام طلعت بدعوة ابنه إلى الجلوس، ثم قال: أنا بانتظار عملاء مهمين بعد ربع ساعة بالضبط، لذا إن أمكنك أن توجز.

كان هذا بالضبط ما يريده محمود، كلمات موجزة ومباشرة.

تأمل محمود والده مجددًا، الرجل العجوز الذي لم يسبق له أن مرض من قبل، كانت التجاعيد تملأ وجهه والأوردة تكاد تخرج من جلد يده، لكن عقله كان في غاية الاتزان، بدا أنه جسمه هو الشيء الوحيد الذي يتعرض للهرم.

قال: هناك قضية أرغب في أن يتولاها المكتب، جريمة قتل قمت بالتحقيق فيها، امرأة قتلت زوجها، وأرغب في أن يتولى المكتب الدفاع عن الزوجة.

_ إلى أي درجة المرأة متورطة؟

_ إنها الفاعلة، لقد اعترفت ووالدها من قام بالبلاغ.

قام طلعت بمد سبابته اليمنى ولمس إطار نظارته، قال: من حديثك أفهم أن التهمة قد وجهت إلى الزوجة وأن الأدلة ضدها دامغة، فلماذا أتولى قضية خاسرة؟

_ لأن القتل كان دفاعًا عن النفس.

أخذ طلعت يفكر في ما قاله محمود، قال الأخير متابعًا: سوف تقوم منال بتولي القضية من الباطن، من دون أن يظهر اسمها في الوكالات، أنا المحقق الرئيسي في القضية وأن تظهر زوجتي كممثل للدفاع سيكون مثارًا للشبهات، لن نستخدم اسمك في هذه القضية أيضًا، لكنني أرغب في استئذائك لأننا سنكون بحاجة إلى محام آخر

من المكتب لحضور الجلسات والمرافعات، على الأغلب ستكون الأستاذة ميادة.

فكر قليلا، ثم قال بلامبالاة: لا بأس، لا مانع لدي.

_ هنالك أمر آخر، القتل ضابط شرطة، بالأحرى مأمور قسم شرطة برتبة عقيد.

ظل طلعت ينظر إلى محمود من فوق عدسات نظارته لبعض الوقت، ثم قال: حسنا، لن أسألك عن السبب الذي يدفعك إلى القيام بتقديم المساعدة لامرأة لا تعرفها ضد واحد من زملائك، لكنك بالتأكيد لم ترث هذه الصفات مني، هذه جينات المرحومة والدتك بكل تأكيد.

ثم سأل: هل يعلم أحد من زملائك أنك ستطلب مني تولي القضية ضد زميل آخر؟

لم يهتم محمود كثيرا بالنبرة التهمكية التي حملها سؤال والده، أجاب: لا أحد يعلم بالأمر، ولن أهتم لو علم أحد.

قال المستشار: يفضل أن يبقى الأمر طي الكتمان، ليس من اللائق أن يقال إن ابن المستشار طلعت هرس يخون زملاءه.

ثم قال مضيفاً وهو يرفع سبابته في وجه محمود: ولا تنتظر مني أن أقوم باستخدام نفوذي للتأثير على المحكمة، ليس عندما يكون القتل ضابط شرطة رفيع المستوى.

هذه المرة تمكن طلعت من إشعال فتيل الغضب بداخل محمود، لكنه غضب اعتاد على احتوائه في داخله بمضي السنين، كان في داخله يصرخ بأنه لم يسبق له أن طلب من والده استخدام نفوذه في أي شيء يتعلق به، ذلك النفوذ الذي بناه والده بأموال الرشاوى

وأصحاب المصالح على حساب المظلومين والأبرياء، اكتفى بالقول: لا داعي لذلك، سنكتفي باستخدام الخدمات التي يقدمها مكتبك. _ حسنا، ليكن، وسأقوم بخصم قسم جيد من الأتعاب كذلك، يمكنك اعتبار ذلك خدمة مني لك.

نظر محمود إلى والده المستشار الذي تجاوز السبعين من العمر، والذي تمكن الزمن من تغيير الجزء الأكبر من ملامحه ولكن لم يتمكن من تغيير أي من طباعه وأسلوبه الجاف في التعامل. قال: أشكرك، سأنصرف الآن وأتركك لتستعد لاستقبال عملائك المهمين.

ثم قام من مقعده. وقال: أريد أن أشكرك على أمر آخر.

وجه والده إليه نظرة متسائلة دون أن يتكلم، قال متابعًا: أشكرك على الطريقة التي أنشأتني بها شخصًا محبًا للعدالة. وساعيًا إلى تحقيقها بغض النظر عما يمكن أن تؤول إليه النتائج، شخصًا يقول كلمة الحق دون أن ينظر إلى العواقب التي يمكن أن تترتب على ذلك. نظر إليه طلعت وقد أصابه بعض الارتباك، مثل الكثير من الأوقات، لم يفهم ما الذي يرمي إليه ابنه، لم يمنع نفسه من التساؤل عما إذا كان يعني ما قاله حقًا أم أنه يستهزئ به بطريقة ما، أجاب بشكل مقتضب: لا شكر على واجب.

_ نلتقي في يوم العطلة.

هز المستشار رأسه موافقًا دون أن يرد.

كان محسن قد أعد نفسه كثيرا لهذه المحادثة، أدرك أنه لا توجد طريقة سهلة لقول ما قد لا يرغب شريف في سماعه، الأيام الثلاثة التي قضاها في العزاء بالتأكيد جعلته أكثر هدوءًا ووازنًا، لذا فقد اختار أن يتحدث معه بصراحة، كان يعلم أن أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم، وإن لم يكن يحبذ أن يكون ذلك في مثل هذا الوقت المبكر من اليوم، لم يكن قد شرب قهوته بعد.

_ هل كان المرحوم معتر يتعاطى الكحول؟

أجاب شريف: في بعض الأحيان، كان يحب أن يرفه عن نفسه أحيانا، لكن بدرجات قليلة، ليس إلى حد السكر أو الإدمان مثلا.

_ ماذا عن المخدرات؟

فوجئ شريف بالسؤال، نفى بشدة: مخدرات، مستحيل يا سيدي، مستحيل.

أدرك بعدها أنه تسرع في النفي قبل أن ينتظر معرفة المزيد، أكد محسن شكوكه قائلا: يا ابني قبل أن تعطيني إجابة متسرفة، أرغب في إخبارك بأن تقرير الطب الشرعي أظهر أن المرحوم كان قد تعاطى المخدرات قبل وفاته بساعات، ولا أقصد الأنواع البسيطة مثل البانجو أو الحبوب، إنما الكوكايين.

_ كوكايين، مستحيل.

أخرج محسن من درجه مجموعة أوراق وناولها إلى شريف، قرأها الأخير بسرعة وهو لا زال يتمتم بصوت خافت: مستحيل.

رفع رأسه بعد دقائق وقال: لابد من أن هنالك أمرًا خاطئًا.
قال محسن: لا يمكن أن يكون هنالك أمر خاطئ في مثل هذه الأمور.
_ معتزلا يتعاطى المخدرات.

_ أنا أصدقك أن المرحوم لا يتعاطى المخدرات، لكن لسوء حظه، لقد
جرب أن يتعاطى في تلك الليلة المشؤومة.

تذكر شريف المدمن الذي قاموا باقتحام غرفته واعتقاله في اليوم
الذي يسبق يوم مقتل معتز، لم يكن من الصعب عليه بعد ذلك أن
يربط بين الأمور، لكنه لم يتحدث بما جال في خاطره، إنما سأل: هل
يمكن أن يؤثر ذلك على القضية؟

قال محسن: ابتداءً فإنها ستكون مادة خصبة للرأي العام، والمزيد
من الحلول لمحمي الدفاع لطلب البراءة.

ضرب شريف الطاولة الصغيرة التي أمامه بقبضة يده دون أن
يتحدث، تجاهل محسن الحركة التي قام بها وقال متابعًا: لكن هذا لا
يعني إعفاء الجانية من المسؤولية، حتى لو تمكن الدفاع من الزعم
بأن المرحوم كان مدمنًا على كل أنواع المخدرات في العالم، فهذا لا
ينفي حقيقة أنها قامت بقتله، عدد الطعنات التي تركتها على جسده
تؤكد على مدى جديتها في رؤيته ميتا.

قال شريف: أنا متأكد من أنها أرادت رؤيته ميتا، لن أصدق ادعاءها
بأن المرحوم قد حاول قتلها وبأنها كانت تدافع عن نفسها، حتى ولو
كان واقعًا تحت تأثير المخدر، معتزلا يمكن أن يفعل ذلك، تلك
اللعيبة أوقعت به، عندما تأكدت من أنه غير واعي لما يحصل حوله،
أخذت المطواة من جيبه ثم قامت بطعنه، أحدثت في نفسها بعض

الجروح الطفيفة لتدعي أن ما قامت به كان دفاعاً عن النفس،
المسكين، ربما كان نائماً في تلك اللحظة.

قال محسن بحياد: هذا ما ستقوم النيابة بإثباته أمام محكمة
الجنايات، لا داعي لتقلق كثيراً.

قال شريف وعيناه تقدحان شرراً: الإعدام سيكون عقوبة مخففة
جاء ما قامت به. كان يرى هدى وهي تشنق أمامه في تلك اللحظة.

_ معك حق، مقتل ضابط في الشرطة لا يجب أن يمر هكذا مرور
الكرام.

ثم أخذ نفساً عميقاً قبل أن يتابع: هنالك أمر آخر لابد من توضيحه
الآن حتى نقوم بإغلاق هذه المحادثة تمامًا.

_ ما هي؟

_ سأخبرك، لكن بعد أن نشرب القهوة.

ثم قام بالضغط على الجرس لاستدعاء الساعي.

هل يمكن أن يكون قد نسي أخيراً؟ لا، ليس بعد.

بالتأكيد ليس بعد، فالعينان السوداوان الصغيرتان لا زالتا تطاردنه
في أحلام نومه ويقظته، لكنه كان غيباً مؤقتاً ليس أكثر. لن تغفرا له
طالما أنه لم يحقق انتقامه بعد.

كان هذا أول ما خطر على بال محمود في الصباح، كانت بداية أسبوع
آخر، زوجته والأولاد ما زالوا نائمين، عطلة نهاية الأسبوع لم تنته
بالنسبة إليهم بعد.

أخذ ينظر إلى الساعة بين الفينة والأخرى وهو جالس خلف طاولة مكتبه، وكوب النسكافيه الذي أمامه يتناقص ببطء شديد، التاسعة، العاشرة، قاربت الساعة على العاشرة والنصف عندما قرر أن الوقت الآن لن يكون مبكرا جدًا على إجراء المكالمة، عندها أخذ الرشفة الأخيرة من كوبه وأمسك بهاتفه وقام بالاتصال بسليمان، زميله السابق، لم يخيب الأخير ظن محمود، أجاب بعد الرنة الثالثة.

_ لم أتوقع اتصالك في مثل هذا الوقت، لا زال الأسبوع في بدايته.
قال محمود: لقد انتظرت مكالمتك لفترة طويلة، أعتقد أنني قد منحتك الوقت اللازم لأحصل منك على خبر جيد.

_ ما الخبر الجيد الذي ترغب في الحصول عليه؟

لماذا يحب الجميع التهرب من التزاماتهم، فكر محمود في نفسه، قبل أن يقوم بمجازاة الرجل على الطرف الآخر من الهاتف.
_ بأنكم عرفتم مكان السياف.

_ يا الله، أنت لن تترك هذا الموضوع.

قال محمود مؤكدًا: بالضبط، لن أترك هذا الموضوع.

لم يجب سليمان، فقال محمود مؤكدًا بوتيرة ترتفع تدريجيًا: لن أتركه اليوم، ولن أتركه في الغد، ولن أتركه في السنة القادمة أو التي تليها، لن أتركه قبل أن أشاهد الشخص الذي يدعى راضي السياف خلف القضبان.

كانت لهجة محمود في الحديث في غاية الهدوء، لكن الغضب الذي تحمله كلماته لم يكن يخفى على سليمان، اقتنع أخيرًا بأن زميله السابق لا زال جادًا في رغبته. قال: استمع إليّ، ستكون هناك أخبار جديدة عن مكان راضي السياف، لقد أقنعت الرئيس بإعادة تنشيط

التحريات بشأنه، ونحن نقوم بمتابعة خيط سيوصلنا إلى السيف بالتأكد.

دخل أنور إلى الغرفة وسار باتجاه طاولة مكتبه برفقة الأمين حسن وحسي، انشغلوا في حديث جانبي، ترك محمود مكانه وغادر الغرفة، ثم قال وهو يسير في الممر: لديك الخيط الذي تحتاج إليه، لكنك ترفض الاستماع إلي.

قال سليمان: حمدي القصير لا يعرف أي شيء.

_ حمدي القصير يعرف كل شيء. قالها بإصرار.

سادت لحظة من الصمت، وجد محمود نفسه واقفا في الشرفة التي تؤدي إلى الخارج، سمع سليمان يقول: امنحني أسبوعًا واحدًا وسأتيك بأخبار جديدة.

أخذ محمود يتأمل الشارع الهادئ أمامه، على الطرف الآخر تحت صف الأشجار شاهد شابًا يهرول بملابس رياضية ويضع سماعتي أذن. قال: أسبوعًا واحدًا.

جاء الرد بسرعة: عشرة أيام على الأكثر.

مرت سيارة فلوكس بيتل حمراء اللون ذات غطاء مكشوف تسير على مهل، وبداخلها فتاتان انشغلت إحدهما في حديث حماسي وانشغلت الأخرى في إطلاق ضحكة عالية وصلت إلى مسامعه، وشاهد المجند المكلف بالحراسة يخرج من كابينته الشبيهة بالقبة ويشيعهما بأنظاره. قال سليمان: أرجوك، دع القصير وشأنه.

التزم محمود الصمت وهو ينظر بالاتجاه الذي اختفت فيه السيارة والفتاتان عن الأنظار، عاد المجند إلى كابينته، الشاب الذي كان يهرول التقى بشخص آخر في نهاية الشارع ووقفًا يتحدثان. ظن

سليمان أن محمود لم يعد معه على الخط، قال متسائلاً: محمود،
لازلت معي؟

قال محمود دون أن يزيح بصره عن الاتجاه الذي اختفت فيه
السيارة: حسناً، يومان ثم سأعود إليك.

أغلق الهاتف وأعادته إلى جيبه ثم عاد إلى مكتبه، كان أنور لازال
منشغلاً مع أميني الشرطة، فتح محمود الدرج الأخير في مكتبه وأخرج
منه عدة أقراص مدمجة مقسمة إلى مجموعتين، إحداها تحتوي
التسجيلات الأصلية التي حصل عليها من رجال فهمي أبو ربيع،
والأخرى هي التسجيلات التي قام منير التقني في المديرية بتكبير الصور
فيها والتي لم يكن قد شاهدها بعد، اختار المجموعة الأولى، ثم وضع
القرص المدمج في مشغل الأقراص الخاص بجهاز الكمبيوتر الموجود
على مكتبه، وانتظر.

أخذت المشاهد تظهر أمامه، مجموعة من السيارات تدخل من بوابة
القصر، رجال الأمن يقومون بتفقد الدعوات، في بعض الأحيان إلقاء
نظرة سريعة على صندوق السيارة، قبل السماح لها بالمرور، وفي
بعض الأحيان يتم السماح للسيارة بالمرور دون أي سؤال عندما
يتعرف رجال الأمن على أصحابها، وفي مرتين قاموا بإلقاء التحية
العسكرية.

مضت الدقائق، كان محمود يقوم بتقديم المشهد في كل مرة ليتخطى
إلى السيارة التالية، وما أن يشاهدها حتى يقوم بتقديم المشهد من
جديد إلى السيارة التالية.

انصرف أميننا الشرطة، قال أنور فور خروجهما: لقد أحضرت لك
بعض الأخبار، عن الأستاذ الجامعي الذي تشاجرت معه نادين.

قال محمود دون أن يرفع رأسه عن الشاشة: تحدث.
قال أنور: لقد تعرض للشلل.

توقف محمود عن المشاهدة للحظات ونظر إلى أنور، وقال: حقا؟
قال أنور: لقد تعرض لحادث دهس من قبل شخص مجهول،
الشخص الذي قام بدهسه فر من مكان الحادث ولم يعثر له على
أثر، تاركا بدير السيد مع إصابة بالغة في عموده الفقري وشلل نصفي
مدى الحياة، وبالنهاية فقد سجلت القضية ضد مجهول.
قال محمود وهو يعود لينظر إلى السيارات التي في الشاشة: أليس
رجلا سيء الحظ؟

قال أنور: والرجل الآن يعيش مع ابن له متزوج ويعمل في السعودية،
وحزّز ماذا.

لم يجب محمود، فقال متابعًا: الحادثة حصلت له بعد مشاجرته مع
نادين بسنتين.

مرة أخرى لم يجب محمود، لم يكن عقله قد وجد أي شيء يربط بين
الأمر، الأمر الذي أصاب أنور ببعض من خيبة الأمل، قال في محاولة
أخيرة لإشعال نار الحماس: هل تظن أن كلا الأمرين مرتبطان
ببعضهما البعض، أعني هل تعتقد أن الغضب يمكن أن يذهب بها
إلى هذا الحد البعيد؟

_ لا أدري، ربما، التخمين ليس كافيا.

جاءت عبارة محمود الأخيرة باهتة لا طعم لها، الأمر الذي زاد في خيبة
أمل الملازم الشاب، لكنه عزا قلة اهتمامه إلى سبب آخر عدا أنه لا
يرى حقيقة أن هناك أي ارتباط، سأل: ما الذي يشغلك لهذه
الدرجة؟

قال محمود وهو لا يزال ينظر إلى الشاشة: التسجيلات التي أحضرتها من فيلا أبو ربيع عن يوم الحفل، لقد شاهدتها على ما أذكر. قال أنور وهو يبتسم: عدة مرات، والفضل يعود لك في ذلك، ومدة التسجيلات تزيد على الأربع ساعات، لذا يمكنك أن تتخيل الوقت الذي قضيته وأنا أراقب مجموعة من الأغنياء داخل سياراتهم الفارهة وهم يدخلون ليحتفلوا، ومرة أخرى وهم يغادرون بعد أن احتفلوا.

لم يعلق محمود، إنما ظل مركزاً بصره على الشاشة أمامه، فقال متابعاً: صورة الوجوه كانت سيئة ولم نتمكن من التعرف على أي شخص، حتى بعد أن قام منير اللقمة بعمل سحره معها، بقي التعرف على الوجوه مسألة صعبة، الزاوية التي وضعت فيها العدسة لم تخدم كثيراً.

قاطعته محمود: أعرف كل هذه الأمور، أردت سؤالك عن أمر آخر.

قال أنور: ما هو؟

قال محمود: أثناء مشاهدتك للتسجيلات، هل لاحظت وجود سيارة من نوع فوكس بيتلز ذات لون أرجواني.

حاول أنور استعادة الجزء من ذاكرته المتعلق بساعات من مشاهدة الفيديوهات، قال: لا أعلم، لا أذكر.

ثم قال مستدركا: لا أدري إذا كان من السهل تمييز اللون في الظلام. أطل وجه حسني من باب الغرفة وهو يقول: سيادة المأمور يرغب برؤية أحد من المباحث، لكن رئيس المباحث غادر إلى المديرية.

نظر أنور إلى محمود لكن الأخير لم يرفع رأسه، فقرر أن يذهب بنفسه.

كانت أسنان شريف تصطك من شدة الغيظ، ووجنتاه في احمرار متصاعد، إلا أنه لم ينبس ببنت شفة إلا بعد أن انتهى محسن من كلامه، قال: كيف يمكنه أن يفعل ذلك؟ كيف يمكن لوالده أن يتولى الدفاع عن تلك القذرة؟

قال محسن: يا ابني اهدأ قليلاً.

_ كيف يمكنني أن أهدأ وأنا أشهد خيانة مثل هذه، ما الذي جرى للعالم؟ هل أصبح الجميع أشراراً؟ ألم يعد هناك شخص يمكن الثقة به؟

قاطعه محسن بلمهجة فيها بعض الحدة: يا ابني قلت لك أن تهدأ وأن تحاول استيعاب ما أقوله لك، أولاً الرجل لم يخطئ في شيء، لقد حضر إلى مكثبي بنفسه ليخبرني بالأمر وقد كان في غاية الاستياء، والده رجل معروف عنه العناد والتعنت ولن يصغي إليه أبداً، لذلك حضر إلى مكثبي ليعتذر بأن لا حيلة له في منع والده من تولي القضية، ليس الأمر أنه قام بالذهاب إلى والده وطلب منه أن يتولى القضية.

أخذت ملامح شريف تعود إلى حالتها الطبيعية بالتدرج وهو يفكر فيما يقوله محسن الذي قال متابعاً: ثم إنني قد توليت الأمر في غيابك، تحدثت مع مدير المباحث وشرحت له الأمر، وقد قام

بالاتصال بالمستشار طلعت، وقد أوضح له الأخير أن القضية سيتولاها أحد المحامين صغار الشأن الذين يعملون في مكتبه من الألف إلى الياء وأنه لن يتدخل في سيرها بأي شكل من الأشكال، ولا حتى بتقديم استشارة. لذا فحسب ما أراه فإن الوضع يسير في صالحنا تمامًا، وكما يقال رب ضارة نافعة.

أخذ شريف رشفة من فنجانه ودماعه لا زال يقوم بوزن ما قاله له الرئيس، لم يأخذ وقتًا طويلًا حتى تستقيم لديه الموازين، قال وهو يضع فنجانه على الطاولة: معك حق يا سيدي، لقد أعماني الانفعال عن التفكير السليم.

قال محسن: والآن، أريدك أن تستعدي تركيزك تمامًا، هنالك قضية قتل لازالت عالقة، وقد تأخرتم في إقبالها كثيرًا. قال شريف بحماسة صادقة: لا تقلق، سأتابع العمل منذ الآن، رمضان تينة سيكون خلف القضبان قريبًا.

ابتسم محسن وهو يقول مشجعًا: هذه الروح التي أبحث عنها. رن جرس الهاتف الأرضي الموجود على طاولة مكتب محسن، تناول السماعه ووضعها على أذنه.

نعم سيادتك، أجل هذا صحيح... رئيس المباحث قصر النيل موجود عندي.. عفوا لكن المنطقة خارج نطاق صلاحياتنا.. أجل، أجل، فهمت، سأبلغه الآن ليتحرك إلى هناك.

أغلق السماعه وقال موجها حديثه إلى شريف: حسنا، أرجو أن تكون مستعدا للعمل، جثة تم العثور عليها في غرفة أحد فنادق الدرجة الثانية بوسط البلد.

قال شريف مستفهمًا: وسط البلد؟

قال محسن: أعلم، الموقع خارج النطاق، لكن رئيس فرقة مباحث الوسط يعتقد أن الضحية مرتبطة بتحقيق جارلدى مباحث قصر النيل، ومأمور القسم لديكم أكد الأمر. نظر شريف باستفهام، قبل أن ينعقد حاجباه حين سماعه الاسم.

حينما عاد أنور إلى المكتب كان محمود لا يزال ينظر إلى الشاشة، كانت الأفكار قد اختلطت في رأسه من جديد، بدأ شعوره بأن نادين متورطة بمقتل سمية يزداد أكثر فأكثر، إلا أنه لم يتمكن من إيجاد أي تفسير لعدم استخدامها لسيارتها الأرجوانية للذهاب إلى الحفل على الرغم من أنها ذكرت في إفادتها أنها ذهبت في سيارتها الخاصة. كيف يمكن أن يفسر اختفاء السيارة؟ قال معبرًا عما يفكر به في صوت عال: لقد أنهيت الساعة الأولى دون أن أشاهد السيارة، وحسب ما أتذكر فإن نادين كانت من أوائل المدعويين الذين وصلوا إلى الحفل، لم تأت سيارتها ولا أية سيارة تشبهها حتى. لكن عيني أنور كانت تحملان الكثير من الكلام. قال: لقد كنت في مكتب السيد المأمور، هناك أمر طراً.

بدا أن محمود لم يستمع إليه، قال دون أن يرفع رأسه عن الشاشة: أريد إرسال دورية إلى منزل والدي نادين، وأريد مذكرة بالبحث عنها وإلقاء القبض عليها.

قال أنور بصوت أعلى هذه المرة: حسنا، أعتقد أنه لا يوجد هناك داع للمذكرة، فقد تم العثور عليها فعلا.

_ ماذا تقصد؟

_ لقد عثر على جثتها في غرفة أحد الفنادق بوسط البلد.

عقدت المفاجأة لسانه للحظات، ثم سأل: كيف حدث ذلك؟

_ على ما يبدو أنها حادثة انتحار.

_ انتحار؟

_ شريف أصبح في الطريق، يمكنك أن تلحق به.

إلا أن الفكرة التي كانت تجول في خاطر محمود هي أنه قد تأخر عن اللحاق بأي شيء.

لقد وصلت في اللحظة الأخيرة، العروس على وشك المغادرة إلى
مثواها الأخير.

كانت الغرفة التي وجدت فيها نادين تقع في الطابق الخامس، في
فندق متوسط الحال يقع في وسط القاهرة، سرير أعد لشخصين
بإطار بني غامق، وخزانة ملابس صغيرة الحجم من نفس لون إطار
السرير، ومنضدة عليها أصيص فيه ورود بيضاء، كانت الستائر
مسدلة على النافذة الوحيدة، ورائحة عطرية نفاذة ثم إطلاقها في
أرجاء الغرفة، ورجلان من المعمل الجنائي يعملان في تكاسل،
وعدهما لم يكن هناك أي أثر للموت.

بدا أن شريف قد قرأ أفكار محمود، فقال: في الحمام، البانيو.
توجه محمود إلى الحمام الملحق بالغرفة، وهناك كان الموت حاضراً
بقوة.

لقد أحسن رجال الطب الشرعي بالاعتناء بالرائحة، حتى أنني
أعتقد أن رائحة الغرفة أصبحت أفضل مما تكون عليه في العادة.

إلا أن محمود لم يرد، وخطا إلى داخل الحمام.

كان هنالك رجلان من المعمل الجنائي، بالإضافة إلى معاون المباحث
من قسم الشرطة الذي تتبع له منطقة الجريمة، والذي كان وجوده
بلا أي داع حالياً، عيناه كانتا معلقتين على الجثة دون أن تتحركا،
أدار رأسه فقط لينظر إلى القادمين ويحرك رأسه في تحية سريعة قبل
أن يعود ليسترق النظر إلى الفتاة المستلقية داخل الحوض، كانت

هناك قطرات ماء تنساب بداخل الحوض الذي تم تجفيفه من الماء منذ فترة قصيرة، قميصها الأزرق كان لا يزال مبتلا وملتصقا إلى جسدها، وتحتة بنطال جينز أسود، ذراعها اليمنى مثنية إلى جانبها، في حين أن اليسرى كانت ممتدة إلى خارج الحوض، وعلى معصمها الأيسر أثر لجرح قطعي في منطقة الشريان الوريدي في رسغها الأيسر، تاركا على الأرض تحتة بركة دماء جافة، حمل رجلان الجثة ووضعها داخل الكيس الأسود المعد لنقل الجثث فوق النقالة وقام أحدهما بإغلاق السحاب، ثم وضعها فوقه غطاءً أبيض، وغادرا معها.

في المصعد الذي كان ينزل بهما إلى الطابق الأرضي تحدث محمود للمرة الأولى بما يخص الحادثة بعد أن تمكن من تركيز أفكاره: إذا كانت هذه حادثة انتحار فلا أرى سببا في أن نقوم بضمها إلى القضية التي في يدنا، ومن ثم كيف عرفت المديرية أن هذه الحادثة يمكن أن تكون متصلة مع جريمة فيلا الزمالك بهذه السرعة؟

قال شريف مبتسماً: هل سمعت بمصطلح اصطاد عصفورين بضربة واحدة، وأنا سأجيب على كلا السؤالين بإجابة واحدة.

_ لم أفهم

_ الرسالة.

_ رسالة، هل تركت نادين رسالة قبل أن تنتحر؟

هز شريف رأسه موافقا ثم قال: تمامًا، وهل يسمى انتحارا ما لم تكن هنالك رسالة. ثم رفع هاتفه الجوال في وجه محمود وهو يقول: سأريك عندما نصبح في اللوبي، لقد التقطت العديد من الصور الجميلة، أنا متأكد من أنها ستعجبك.

كانت هنالك مجموعة من الأرائك في بهو الفندق، حيث جلس وكيل النيابة وكتابه وقبالتهما جلست فتاة ذات بشرة سمراء داكنة وترتدي الزي الخاص بموظفي النظافة في الفندق، وقد بدا أنها تجيب على أسئلة النيابة، لم يكن من الصعب على محمود أن يستنتج أن هذه الفتاة هي التي اكتشفت وجود الجثة، معالم الصدمة لازالت ظاهرة في عينيها.

جلس محمود وشريف على مقعدين متقابلين تفصل بينهما طاولة زجاجية صغيرة بتصميم منفضة سجانر بتصميم أنيق مكتوب عليها اسم الفندق، كان الأمر مشجعاً بالنسبة إلى شريف لإشعال سيجارة، قبل أن يقوم بضغط عدة أزرار على هاتفه ثم ناوله إلى محمود وهو يقول: هذه هي الرسالة.

قام محمود بتكبير الصورة، وبدأ بقراءة آخر ما تركته نادين للعالم. (أحيانا تشعر بأنك قد وصلت إلى طريق مسدود وبأن لا شيء في هذا العالم الفاني يمكن أن يشدك بعد الآن... وأنا وصلت إلى هذا الطريق المسدود..

مغادرة هذا العالم هو قراري وحدي، لا تأثير فيه لأي شخص كان، سامح أخبرني يوماً ما أنني الوحيدة التي يمكنها أن تهزكيانه في العالم، لذلك فإنه سوف يقوم بالانتقام من إهانة سمية لي، وسهيدني خاتمة الماسي الذي يعرف أنني أحبته منذ أن رأيت أول مرة. منحه للمرأة الخاطئة، والآن سوف يصحح الخطأ ويمنحه للمرأة الوحيدة التي تستحقه، سأحقق انتقامي من سمية، سأزوج سامح وسنعيش في بلاد بعيدة، بعيدة جداً، وسنعيش معاً، للأبد.

أنا وسامح شهاب اتفقنا على التخلص من سمية، قام باستئجار شخص للتخلص منها وسرقة مجوهراتها في الوقت الذي نكون فيه معا في الحفل، قبل أن نصبح بعدها معا للأبد.

الشخص الذي قام بقتل سمية سافر إلى خارج البلاد، وسامح أعاد لي الخاتم، لكنه بعد ذلك نكث بوعده معي، ولا أحد ينكث بوعده معي، لا أحد. وأنا لم يسبق لي أن غفرت لمن أخطأ في حقي، ولن أفعل الآن.

أنا أردت أن أؤذيه، لكن من دون أن أؤذي نفسي،

لذلك قررت الرحيل، رحيل بلا عودة ولا ندم.

وداعا عائلي، وليذهب سامح وسمية والجميع إلى الجحيم

(نادين...)

مط محمود شفتيه، ثم نظراتجاه العاملة التي كانت لازالت تحت تأثير المشهد المخيف في الغرفة، كانت تجيب على أسئلة وكيل النيابة بسرعة غير اعتيادية. نظر إلى شريف وهو يقول: إذًا فقد عاد سامح، قد عاد ليتصدر المشهد من جديد.

أجاب شريف بلهجة مهمة: ربما نعم، وربما لا، ما رأيك أنت؟

كانت ردة فعل شريف مفاجئة تمامًا لمحمود، إلا أنه فكر في نفسه بأن هذه ربما المرة الأولى منذ أن بدأ يعملان معًا التي يفكر فيها المحققان بنفس الأسلوب، لذا فقد سهل ذلك على محمود ما أراد قوله.

_ هل نحن متأكدون من أنها حادثة انتحار حقا؟

قال شريف في تصنع: ألا تظن ذلك؟

قال محمود: لا أدري تحديداً، لكنني لا أفهم لماذا تقوم بترك رسالة مطبوعة، لم تقم بكتابة رسالة الانتحار بخط يدها، أعني أليس ذلك هو الأمر المعتاد في حوادث الانتحار.

_ ربما أنها أعدت الرسالة مسبقاً لأنها تبيت النية منذ وقت طويل، وربما أمر آخر. قالها وعلى وجهه ابتسامة.

قال محمود مستطرداً: كما أن محتوى الرسالة، لا أعلم تحديداً ولكن يبدو لي غريباً بعض الشيء.

قال شريف: يمكنك النظر إلى بقية الصور، قم بالتقليب.

أخذ محمود يقلب الصور الذي التقطها شريف بهاتفه لمسرح الجريمة، عينا نادين المغمضتان ووجهها الذي يظهر في الصورة بدت مثل شخص أخذ غفوة في حوض الاستحمام، الجرح الذي على معصمها، بقعة الدماء على البلاط، زجاجة خمر على المنضدة بجانب السرير وكأس زجاجية واحدة بها بقايا من المشروب الكحولي وبعض آثار أحمر الشفاه على الكأس.

رفع محمود رأسه وقال: كأس واحد فقط.

_ كأس واحد.

_ وغرفة ذات سرير مزدوج.

هز شريف كتفيه دون أن يرد، لكن المقصد كان مفهوماً. حادثة انتحار يلفها الغموض.

عاد محمود لينظر في الصور من جديد.

صورة لأرضية الحمام تظهر كامل المساحة بجانب الحوض، وبقعة الدماء التي تحت اليد تظهر كنقطة حمراء صغيرة، ولم تكن هناك أية دماء في أي مكان آخر، وفي صورة أخرى مشروط له نصل مدبب

وصغير الحجم مشابه للأدوات التي يستخدمها الأطباء في العملية الجراحية موضوع على المغسلة بجانب علبة تحتوي على سائل لتنظيف الأيدي، وأثار دماء جافة بدت واضحة على النصل الحاد. فكر محمود في أنها الأداة المناسبة لإراقة أكبر قدر من الدماء من شريان رئيسي متدفق، إلا أن ما لفت انتباهه كان أمراً آخر. عاد لينظر إلى الصورة التي سبقتها والتي تظهر أرضية الحمام وبقعة الدماء الوحيدة، ثم أعاد الصورة من جديد إلى المشروط الموجود فوق المغسلة.

كان الأمر واضحاً تماماً الآن.

كان شريف ينظر إليه في ترقب، وعندما لاحظ تغير معالم وجه زميله قال: إذن فقد اكتشفت الأمر.

قال محمود بثبات: نحن أمام جريمة قتل.

قال شريف وهو يستعيد الهاتف من محمود: أخطاء بسيطة مثل هذه هي التي تجعلك تعشق هذه المهنة الملعونة، فتاة تقوم بقتل نفسها بمشروط طبي في الحوض، ثم تجد المشروط فوق المغسلة على بعد مترين منها، هل قامت بوضع المشروط فوق المغسلة بعد أن قامت بإحداث جرح مميت لنفسها، وإن كان الأمر كذلك، فأين أثار الدماء التي يفترض أن تنزف منها فوق البلاط ما بين الحوض والمغسلة، إلا إذا قامت بتنظيفها قبل أن تعود إلى الحوض وتتابع احتضارها.

حك محمود ذقنه وهو يفكر، ثم قال: ماذا عن الخاتم؟

قال شريف: وجدناه في حقيبتها، وهو مطابق للخاتم الموجود في الصور من الجريمة الأولى.

قال محمود وهو يتهدد: يبدو أنها أحبت هذا الخاتم حقاً.

اقترب منهما رجل نحيف أصلع الرأس يرتدي قميصًا أبيض وربطة عنق بدون جاكيت، وسألهما إن كانا يرغبان في أن يشربا أي شيء، طلب شريف مشروبًا غازيا باردًا في حين اكتفى محمود بكوب ماء. قال شريف وهو يتابع الرجل الذي انصرف بعيدا عنه: هذا مدير الفندق، المسكين، لورأيت منظره قبل قليل، ستظن أن القيامة قد بدأت، لا بد من أنه قد ارتاح كثيرا وهو يشاهد الفتاة الميتة تغادر فندقه.

إلا أن محمود لم يكن قد غادر بعد المكان الذي كان فيه، قال متسائلا: من تعتقد أنه قام بذلك؟ كان شريف قد فكر في العديد من الاحتمالات في النصف ساعة الماضية، بعضها وجده منطقيًا جدًا، وبعضها ضربًا من الخيال، لكن كان هنالك شخص مرجح بالتأكيد.

قال: رمضان تينة.

_ رمضان تينة إذا.

_ بالتأكيد.

ثم قام من تعديل وضعيته في الجلوس ليقترّب من محمود أكثر وهو يقول: نظريتي الجديدة على ضوء الوقائع المستجدة، هي أن الفتاة قامت باستنجاهه ليقوم بقتل سمية وسرقة المجوهرات، وعلى ما يبدو أنهما قد اختلفا بعد ذلك، فقرر التخلص منها بهذه الطريقة. وجعل المسألة تبدو على أنها انتحار، ولا مانع من إضافة سامح كمشتبه به آخر لصرف أنظار الشرطة، خاصة وأن سامح قد تم توقيفه من قبل لقتل زوجته، وكما هو معروف، الزوج دائمًا هو القاتل.

اقترب أحد العاملين في الفندق منهما ووضع الأكواب على الطاولة أمامهما ثم سار مبتعداً.

قال محمود: حسنا، إذا كان الأمر كذلك، لماذا يذكر نفسه في الرسالة بأنهما قاما باستئجار شخص لارتكاب الجريمة، كان بإمكانه أن يستثني نفسه، لكن بهذه الطريقة بإمكاننا الوصول إلى العديد من الاستنتاجات الصحيحة.

رفع شريف سبابته اليمنى إلى الأعلى وأخذ يهزها وهو يقول: يعجبني هذا الحوار الذي يحدث بيننا، عمل بوليسي محترف.

ثم أخذ رشفة من المشروب الذي أمامه، وقام بتعديل وضعية جلوسه من جديد وهو يقول: ببساطة، هو على يقين من أننا نعرف أنه المسؤول عن جريمة القتل الأولى وأن لدينا العديد من الأدلة التي تدينه، لذا فإن قيامه بتغيير شيء من الحقائق الثابتة التي نعرفها سيؤدي إلى إثارة الشك في مضمون الرسالة وفي عملية الانتحار، علاوة على أن اسمه غير مذكور في الرسالة، وهو أمر من شأنه أن يسعد أي محام يتولى الدفاع عنه.

قال محمود: عملية بسيطة، تقوم بسرد الحقائق التي يعرفها خصمك مسبقا كما هي، ثم تقوم بتمرير بعض الأكاذيب التي لا يعرفها خصمك، وبهذه الطريقة فإن خصمك سوف ينصرف إلى الاعتقاد بأن جميع المعلومات التي أوردتها صحيحة، قاتل سمية قد غادر البلاد، وأن سامح متورط، بالتالي فإننا سنصرف أنظارنا عن رمضان تينة ونركز جهودنا نحو سامح.

تبدو لي خطة جيدة.

لكن التنفيذ لم يكن بالمستوى، إذا كان قد نجح في كتابة رسالة جيدة فإنه قد فشل في إظهار الحادثة على أنها انتحار.

ضحك شريف هذه المرة وهو يقول: هذا دليل آخر يدينه، لقد عرفنا في الجريمة الأولى أن رمضان تينة ليس المجرم الأمثل في إخفاء آثاره، وها هو يثبت ذلك مرة أخرى.

كان وكيل النيابة قد انتهى من أخذ أقوال عاملة الفندق، غادرت اليهود ودفلت إلى الممرات الداخلية للفندق حيث كانت بانتظارها فتاة أخرى أمسكت بيدها وسحبتهما إلى الداخل، في حين انخرط وكيل النيابة في حديث جانبي مع مساعده.

قال محمود: لنتفق على أمر ما.

أدار شريف وجهه باتجاه محمود وسأله: ما الذي يدور برأسك؟ قال محمود: طالما أن القاتل قد أراد أن يظهر الأمر على أنه حادثة انتحار، فأنا أرى بأن نبقي الأمر كذلك إلى أن نتوصل إلى المزيد من المعلومات، لذلك لن نعلن على الملأ أننا اكتشفنا أنها جريمة قتل.

قال شريف: هل تعتقد أن هذا من الممكن أن يعود علينا بأي فائدة؟ فكر محمود في أن العبارة التي قالها شريف حول أنهما يفكران بنفس الطريقة لم تكن دقيقة. كانا في حقيقة الأمر يفكران بطريقة مختلفة بالتأكيد. لكن لا ضير من ذلك، رأيان متعارضان أحدهما صحيح أفضل من رأي واحد قد يكون خاطئاً، قال: ربما، وربما لا. لقد اجتهد القاتل حتى يظهر الأمر على أنه انتحار، لنبقه كذلك مؤقتاً، لا داعي لإضاعة تعب سدى.

قال شريف مازحاً: إذا كان الأمر كذلك فيجب علينا إذاً إلقاء القبض على سامح وزجه في السجن.

_ سأقوم باستدعائه والتحقيق معه بالتأكيد، لكن لن نلقي القبض عليه، هذه المرة سنسير وفقاً لأحكام القانون.

_ ماذا تعني؟

قال محمود: أعني أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته.

_ آه، هذا ما تقصده. قالها شريف ثم دخل في نوبة ضحك مفاجئة.

كانت الحياة الطبيعية قد بدأت تعود تدريجياً إلى الفندق، عادت الموسيقى الهادئة لتعزف ألقانها، وعاد موظفو الفندق إلى حركتهم المعتادة كأني يوم عادي لم تحصل فيه جريمة قتل في الفندق. بقي مدير الفندق بقميصه الأبيض النظيف وربطة العنق واقفاً خلف كاونتر الاستقبال وهو ينظر باتجاه رجال المباحث كمن ينظر إلى بحر هادئ متوقفاً أن تهبج أمواجه في أي لحظة لتغرق جميع السفن التي تسير على متنه، زاد من ارتبائه دخول مجموعة من السياح الذين ينزلون في الفندق، جلسوا على مقاعد متقاربة لا تبعد كثيراً عن مكان رجال المباحث دون أن يعيروا انتباهها لأي شيء، بدا أنه الشخص الوحيد الذي يشعر بأن العالم قد اقترب من نهايته.

قال شريف بصوت هادئ جاء منسجماً مع المقطوعة الموسيقية التي كانت تصدح في الأجواء: صحيح، نسيت أن أخبرك بأن لا ضغينة بيننا.

نظر إليه محمود مستفهماً، فقال موضحاً: لقد أخبرني محسن باشا بأن مكتب والدك سيقوم بتولي مهمة الدفاع عن تلك الحقيرة التي قتلت المرحوم معتز.

قال محمود: آه، ذلك الموضوع.

انتظر شريف أن يضيف محمود المزيد، إلا أنه اكتفى بعبارته الأخيرة، فقال: سوف نتحدث في هذا الموضوع في وقت آخر، ولنركز الآن على القضية التي أمامنا.

ثم تناول هاتفه الجوال وأجرى مكالمة مع رئيس القطاع، قام بإعطائه موجزًا عما توصلوا إليه، ثم تبادل حديثًا قصيرًا مع وكيل النيابة ومفتش مباحث الوسط اللذين كانا يستعدان للمغادرة، عاد بعدها إلى حيث كان محمود جالسًا وقال: لقد أصبح الأمر رسميًا، لقد أصبحت قضيتنا منذ الآن.

قام محمود من مكانه وهو يقول: لنقم ببعض أعمال رجال الشرطة الحقيقية إداً.

مثلاً أن سمع سامح بخبر انتحار نادين، توقع أن تقوم المباحث باستدعائه للتحقيق مجددًا، تخطى أحزانه بسرعة قياسية وهياً نفسه لما هو قادم، وفكر في الكثير من الاحتمالات، لم يأخذ الكثير من الوقت ليعبر عما يدور في خاطره من أفكار، قال بلهجة بدت واثقة: سأكون صريحًا معك، أنا لا أعتقد أن نادين قامت بالانتحار.

_ لماذا تعتقد ذلك؟

قال سامح، دون أن يبدو أنه يملك الكثير ليدعم أقواله: نادين كانت فتاة محبة للحياة وتستمتع بعيشها، ولا يمكن أن تتخلى عنها بهذه السهولة، مستحيل.

_ حسنا، تصرفات البشر يمكنها أن تفاجئك.

إلا أن سامح أجاب بإصرار: لا أصدق، نادين لا يمكن أن تفعل ذلك. لم يرغب محمود في أن يستمر في النقاش معه حول هذه النقطة، فهو يعلم مسبقا أن نادين لم تقتل نفسها والجدال بعكس ذلك لن يعود عليه بأية فائدة، فكر في أن يسير في اتجاه آخر، قال: وماذا لو قلت لك إن نادين قد تأمرت على قتل زوجتك، هل ستصدق ذلك؟ كانت الإجابة واضحة قبل أن ينطق بها، ملامحه لم تتغير، قال نافيًا بجزم: لا أصدق ذلك أيضًا.

طريق مسدود، فكر محمود بسرعة، كان يرغب في إيجاد الغلطة التي ستوقع أيا من كان متورطا. شريف قد حسم الجدال وكسب تأييد

محسن بأن نادين متورطة مع رمضان تينة، لكن بالنسبة إليه، لم يعد أي شيء مؤكدًا.

قال: إذا أردت رأيي فنادين متورطة حتى أخمص قدمها، نادين قامت بتهديد المرحومة زوجتك بالقتل، والتحريات لدينا أثبتت أنها من السهل أن تقع تحت تأثير نوبات من الغضب يصعب عليها التحكم فيها.

_ أمر طبيعي سيدي المحقق، من منا لا يملك مشاكله النفسية الخاصة، من كل اثنين يمكنك أن تجد مريضًا نفسيًا واحدًا.

_ الأمر الآخر الذي لم نعره اهتمامًا كافيًا في البداية ثم اتضح أنه في غاية الأهمية، هو مدى رغبتها في الحصول على خاتم الألماس الذي أهديته لزوجتك في عيد زواجكما. يمكنك على الأقل أن تفسر لي وجود الخاتم بحوزتها.

التزم سامح السكوت لفترة قصيرة قبل أن يجيب: لا أملك أي تفسير، لم أكن أعلم حتى أن هذا الخاتم كان مميزًا بالنسبة لها، لكن هذا لا يعني أنها متورطة.

ذات الخاطر كان يراود محمود، كان من السهل التفكير والخروج بالاستنتاجات، ثم تحليل الاستنتاجات والخروج بالمزيد من الاستنتاجات، لكن الإثبات يبقى هو الأمر الأكثر صعوبة.

_ إذًا، إن كان المتهم الرئيسي بمقتل زوجتك قد قصد إظهار نادين بمظهر المتورطة، فهناك سؤالان لا بد من الإجابة عليهما، أولهما هو لماذا يرغب رمضان تينة في توريث نادين في الأمر؟

فكر سامح قليلا، ثم قال: لا أعلم، ربما لإبعاد الشبهات عن شريكه الحقيقي.

_ لكننا لغاية الآن ليست لدينا أي فكرة عن شريكه إذا كان موجودًا من الأساس.

بانث على سامح إمارات التفكير العميق.

قال محمود متابعًا فكرته: والسؤال الآخر، إذا كان رمضان تينة هو الفاعل، من أين له أن يعرف؟

سأل سامح: يعرف ماذا؟

_ أن نادين كانت ترغب كثيرًا في الحصول على هذا الخاتم تحديدًا، الخاتم الذي أهديته لزوجتك المرحومة.

أثر سامح أن يلتزم الصمت، حديث المحقق بدا مقنعًا، إلا أن محمود عاد لنقض البناء من أساسه. قال: لكن هذا كله على فرض أن نادين ماتت مقتولة كما تعتقد، الحقيقة هي أن نادين قد قتلت نفسها بنفسها، ولم يقتلها رمضان أو غيره.

فكر سامح قليلًا فيما قاله محمود، ثم قال: ربما يكون من الصعب التصديق بأن نادين قد انتحرت، لكن أظن أنني مضطر لتصديق ذلك.

ثم ابتسم فجأة وهو يقول: لأنه على ما يبدو لن يكون في مصلحتي أن يكون هناك شخص آخر متورط، أعتقد أنني سأعود إلى خانة المشتبه به المفضل مرة أخرى.

وجه له محمود نظرة فاحصة وهو يفكر في أنه قد حان الوقت، قال: حسنا، طالما أصبحنا متفقين على هذه النقطة، إليك الأمر الآخر إدا. ثم أخرج ملفًا من درج مكتبه، فتحه وبحث عن ورقة معينة، أخرجها ثم ناولها إلى سامح وهو يقول: هذه رسالة الانتحار التي تركتها نادين.

ناولها لسامح وهو يقول: سوف تعرف الآن كم كنا كرماء معك هذه المرة.

تناول سامح الورقة بسرعة وأخذ يقرأ، راقب محمود التغيير الذي طرأ على ملامحه أثناء القراءة، انتهى سامح من القراءة ونظر إلى محمود وهو لا زال ممسكا بالرسالة بنفس الوضعية، سأل: ما الذي يعنيه هذا؟

أجاب محمود بهدوء: كما ترى، نادين تشير إليك صراحة على أنك المسؤول عن الاتفاق مع اللص، والذي سأفترض هنا أنه رمضان تينة، لقتل زوجتك وسرقة المجوهرات، وأنتك وعدتها بأن تمنحها الخاتم.

أنزل سامح الرسالة إلى أسفل ووضع يده على رأسه وهو يزفر بقوة، ثم قال: إذا، سواء كان الانتحار حقيقياً أو مدبراً، فأنا أصبحت متورطاً بكلتا الحالتين.

_ هذا ما يبدو لي، لذلك سأسألك عن رأيك في الادعاء المذكور في الرسالة.

قال سامح بسرعة مدافعاً عن نفسه: كذب بالتأكيد، هذا الأمر لم يحصل مطلقاً.

_ إذا بماذا تفسر ما جاء بالرسالة؟

مرة أخرى بدا سامح عاجزاً عن إيجاد الإجابة المناسبة، قال: لا أملك أي تفسير.

قال محمود: هذا ما ظننته.

سأل سامح: هل سيتم توقيفي مرة أخرى؟

قال محمود وهو يبتسم: ليس قبل أن نستكمل تحقيقاتنا ونحصل على المزيد من الأدلة، لن نكرر الخطأ نفسه مرة أخرى، لكن في أثناء ذلك عليك ألا تغادر القاهرة، وفي حال كنت مضطراً إلى المغادرة يجب أن تترك خبراً بذلك، يمكنك الاتصال على هاتفي مباشرة إذا رغبت.

أعاد سامح الرسالة مرة أخرى وهو يقول: شكراً لك، سيكون هذا أفضل من السجن بمراحل.

ثم أضاف بحيرة: لكنني لا أفهم الأمر حقاً.

قال محمود: سنفهم كل شيء قريباً جداً، لكننا انتهينا من الحديث الآن.

_ لم أكن أتصور أن يكون هذا هو سبب استدعائكم لي على الإطلاق، أعتقد أنني يجب أن أكون ممتناً لخروجي من هنا بدون أصفاد.

_ يمكنك أن تشكر الصحافة والداخلية على ذلك.

ابتسم سامح، ثم مسح ابتسامته بسرعة وهو يقول: هناك أمر كنت أرغب في أن أحدثك به، ولكن ليس له علاقة بالقضية.

نظر إليه محمود متسائلاً، فقال متابعاً: قد لا يكون الأمر من اختصاصك، لكن يمكنك أن تقدم لي بعض المساعدة في ذلك، أنا أفكر في أن أتقدم بشكوى، ليس الآن نظراً للظروف التي نمر بها حالياً، لكن في المستقبل القريب ربما.

قال محمود: شكوى بحق من؟

قال سامح: بحق الأشخاص الذين يقومون باختلاس الأموال من الشركة، ولدي جميع المستندات التي تثبت ذلك.

لمعت عينا محمود، قال: كلي أذان صاغية.

جلس محسن على مقعده المفضل من ضمن المقاعد التي تحيط بالطاولة المستديرة المخصصة لاجتماعات القسم القليلة جدًا، أخذ يقلب في الصور التي أمامه ثم قال: حسنا، تحليل منطقي للغاية، وجهد جيد في ثلاثة أيام فقط، لكن ما تزال تنقصنا الكثير من المعلومات، هل يعقل عدم وجود أي شهود في الفندق.

قال أنور: للأسف يا سيدي، بحسب أقوال الشهود فإن القتيلة قامت بحجز الغرفة لليلة واحدة، وقامت بالدفع نقدًا، لم يشاهد أحد وهو يدخل أو يخرج من الغرفة، قمنا باستجواب موظفي المناوبة المسائية واحدًا واحدًا ولساعات طويلة، وعرضنا عليهم العديد من الصور، لكن دون جدوى.

قال شريف متابعًا: إن حضور القاتل في منتصف الليل قد زاد كثيرًا من احتمالية ألا تتم مشاهدته، عدد الموظفين في المناوبة الليلية ينخفض إلى خمسة موظفين فقط، كما أن دخول وخروج الأشخاص من الفندق في الليل يبدو أمرًا اعتياديًا بالنسبة إليهم، لا أحد يطرح أي أسئلة ولن يلاحظ أحد أي أمر غريب.

قال أنور متابعًا: كما أننا تحدثنا مع جميع أفراد عائلتها، ولا أحد منهم كانت لديه فكرة عن مكان تواجدها أو مع من، ولا حتى أي من صديقاتها اللواتي تخرج معهن عادة، يبدو أن القتيلة قد أبقّت أمر وجودها في الفندق سرا عن الجميع.

سأل محسن: حسنا، وماذا عن سيارة الضحية، هل وجدتم فيها شيئا يمكننا الاستفادة منه.

قال أنور: لقد قام رجال من المعمل الجنائي بمعاينتها، ولم يجدوا فيها أي شيء يمكن أن يفيدنا، وقاموا بأخذ البصمات على سبيل الاحتياط، لكنهم لم يعثروا سوى على مجموعة واحدة من البصمات، جميعها تعود للضحية.

_ والهاتف؟

_ لقد تم العثور عليه في حقيبتها.

قال شريف وقد أصبحت عباراته أكثر ثقة: الهاتف محمي بكلمة سر، هنالك تقني في المديرية يتبع المعمل الجنائي يدعي منير يعمل حاليًا على فك شيفرة الهاتف ومن الممكن أن ينتهي في أي لحظة، محمود موجود معه الآن.

ثم التفت إلى أنور وقال: ماذا عن الأمور الأخرى، بقية المجوهرات الأخرى، التسجيلات، لقد أخبرني محمود بأن المجني عليها كذبت بشأن حضورها إلى الحفل بسيارتها أو شيء من هذا القبيل.

قال أنور: بقية المجوهرات لا تزال مختفية، أما التسجيلات ومسألة السيارة التي حضرت فيها سأنتهي منها قريبًا، من الصعب تحديد الوجوه داخل السيارات لكنني سأعمل على تحديد لوحات تسجيل السيارات.

قال محسن وهو يتابع بعينه محمود الذي دخل للتو من باب الغرفة ويده مغلف ورقي كبير الحجم: جيد، لا ضير من الإمام بكل شيء وإن كان الأمر يزداد صعوبة في قضية شائكة مثل هذه.

لم ينتظر محمود سماع أية أسئلة، ما إن اعتدل فوق كرسيه حتى قال من فوره: أعتقد أن هنالك شخصاً آخر متورطاً في جريمتي الزمالك والفندق.

سأل محسن: تقصد شخصاً آخر غير تينة ونادين.
 أوما محمود برأسه موافقا، نظر إليه الرجال الثلاثة في ترقب، فقال معلنا عما يجول في خاطره: هيثم شهاب.
 قال محسن متسائلا: هيثم شهاب، ابن عم المجني عليها في الزمالك.
 _ هو بعينه.

قال أنور بحماسة زائدة: كيف توصلت إلى ذلك؟
 قال محمود موضحاً: أولاً رسالة الانتحار المزيفة، نحن نعلم أن نادين لم تكتبها، لكن رمضان تينة لم يكتبها كذلك.
 سأل محسن: كيف تعرف ذلك؟

_ الأسلوب في صياغة الرسالة، إنه يناسب شخصاً مغروراً إلى حد الجنون مثل هيثم شهاب أكثر منه لص بالكاد قادر على فك الخط، صيغة الرسالة تتعدى غروراً أنثوياً لامرأة على وشك الانتحار، إنه أمر أقرب إلى تمجيد النفس، الأمر ليس بحاجة إلى مختص ليستنتج الأمر. ثم أردف قبل أن يتعرض إلى المقاطعة: أعلم أن أمر الرسالة ظرفي بحت، لكن الدليل الآخر أكثر متانة بكثير.

ثم قام بفتح المغلف الذي أمامه وأخرج مجموعة من الأوراق ومررها باتجاه محسن وشريف وهو يقول: هذه الأوراق أرسلها منير من القسم الفني، لقد تمكن من فك قفل شاشة الهاتف، ثم تمكن من الولوج إلى بعض التطبيقات الإلكترونية الخاصة بنادين، ومن ضمنها

البريد الإلكتروني، وهذه الأوراق تحتوي على مجموعة من الرسائل الواردة إليها.

قال محسن معلماً وهو ينظر إلى الأوراق التي أمامه: يبدو شخصاً متمكناً من عمله.

_ هو كذلك يا سيدي، لقد قابلته مرتين من قبل، وإن كان منزعجاً من الرائد شريف لأنه هاجمه في آخر مرة وأخبره بأن وظيفته هو وغيره في المعمل الجنائي لا فائدة منها إلا لاستحداث وظائف فارغة لأبناء المتنفذين.

قطب شريف حاجبيه بشدة وهو ينظر إلى محمود الذي تابع وهو يحاول كتمان ضحكته: بينما والده أصلاً كان موظفًا بسيطاً في الوزارة وليس شخصاً متنفذاً.

تابع محسن القراءة بشكل سريع، توقف عند أحد النصوص التي كان مشاراً عليها بقلم فلوماستر لتمييزها عن بقية المكتوب، قرأ العبارة بتمعن، ثم قال: هل هذه الرسالة مرسله من قبل هيثم شهاب.

قال محمود: تمامًا يا سيدي، هيثم شهاب يستخدم بريدًا إلكترونيًا تحت اسم هيثم الكنج.

الاهتمام الذي بدا على وجه محسن وهو يعيد قراءة مضمون الرسالة للمرة الثانية امتدت آثاره لتصل إلى شريف وأنور، كان أنور هو الأكثر فضولاً إلا أنه أثار الالتزام بالصمت، لكن شريف لم يطق الانتظار أكثر، قال متسائلاً: ما الذي أرسله هيثم إلى القتيبة؟

قال محسن: سأعيد قراءة النص بصوت عالٍ حتى نتمكن جميعاً من مناقشة الأمر، مضمون الرسالة كالتالي:

"إلى العريضة الغالية، نادين، أعلم أن انتظارك قد طال أمده، الخاتم الذي طالما تحدثت عنه قد أصبح بحوزتي، الخطة تسير على خير ما يرام، وقريبًا عندما تهدأ الأمور تمامًا وتعود المياه إلى مجاريها فإنه سيكون لك، ملاحظة: لا تنسي حذف هذه الرسالة"

قال شريف معلقًا كأنه يتحدث مع نفسه: رائع جدًا.

قال محسن: حسنا، كل هذا جيد جدًا، ولكنه لا زال غير كافٍ، خاصة بعد ما حصل مع سامح فهيم وما أثاره الأمر من ردود فعل، نحن بحاجة إلى دليل مادي.

قال شريف محتجًا: لن نترك ما حصل مع سامح فهيم حجة لنا لكيلا نقوم بعملنا يا سيدي.

نظر إليه محسن في لوم، قال أنور مقترحًا: لنقم باستدعائه للحضور واستجوابه، سينهار بالتأكيد عندما نواجهه بهذه الحقائق.

قال محمود: هيثم شخص ليس بالشخص السهل، بإمكانه الإنكار بسهولة، لا بد من أنه فكر في الأمر كثيرًا وجهز العديد من المبررات، وسيكون محاموه على أهبة الاستعداد. لكن ربما يمكننا القيام بأمر آخر.

سأله محسن: ماذا تقترح؟

_ بإمكاننا أن نقوم بمفاجأته، إذا تمكنا من الحصول على أمر بتفتيش الفيلا التي يقطنها بالإضافة إلى مكتبه في الشركة، هناك احتمال كبير في أن نعثر على الدليل الذي نحتاجه، أو على الأقل ما يثبت ارتباطه بأي من الجرائم.

عاد محسن ليفكر من جديد، أخذ منه التفكير وقتًا أكثر هذه المرة، في النهاية استعد للوقوف وهو يقول: سوف أتصل بمدير الإدارة

وبوكيل النيابة، وسنرى ما الذي يمكن القيام به، ثم أردف وهو يوجه ذات النظرة اللائمة إلى شريف: لكني لا أستطيع أن أعد بأي شيء.

لم تكن معالم وجهه تعكس الكثير مما كان يفكر فيه، لكن كان من الواضح أن عقله منشغل في أمر ما، لم يتفاعل مع أولاده كما يفعل في العادة على الرغم من محاولاتهم المستميتة لجلب انتباهه، في نهاية الأمر وضعت منال حدًا للمسألة عندما قامت بإرسالهم إلى السرير، ثم جلست بجانبه على الأريكة الكبيرة وأخذت تتأمله مليًا، حينما نفذ صبرها أخيرا سألته: ما الذي يشغل بالك؟

قال دون أن يرفع عينه عن شاشة التلفاز: مسألة تخص قضايا القتل التي لا زلت أعمل عليها.
_ آه، ظننت أنك عرفت بما حصل بشأن المرأة التي قتلت زوجها ضابط الشرطة.

قال دون أن تتغير نبرة صوته: ماذا حصل؟
_ لقد قامت النيابة بتحويل الملف إلى محكمة الجنايات، على الرغم مما قمت به من إيفاد التقارير الطبية والأقوال التي تثبت تعرضها وأولادها للضرب والحالة التي كان عليها المجني عليه، إلا أنهم مع ذلك أسندوا إليها تهمة القتل العمد، الجلسة الأولى حددت قريبًا، لكننا مستعدون.

قال في شيء من اللامبالاة وعدم التركيز: على الأقل لم يوجهوا لها التهمة مع سبق الإصرار والترصد.

ثم عاد ليركز عينيه على شاشة التلفاز في حين أن أفكاره كانت في مكان آخر، قالت بإلحاح وهي تهزم مرفقه: دورك الآن، ما الذي يشغلك؟

قال: أفكر فيما إذا كان بطل الفيلم سيموت في نهاية المطاف.
_ حقا، هذا ما تفكر فيه.

قامت بخطف جهاز التحكم من يده وأغلقت التلفاز وهي تقول: لقد شاهدت هذا الفيلم الأسبوع الماضي، والنهاية لن تتغير. نظر إليها وهو يبتسم، ثم قال بعد برهة: تعلمين عندما أخبرتك بأن نادين لم تنتحروا وإنما تعرضت لجريمة قتل، وأن هذه الجريمة مرتبطة بجريمة قتل سمية شهاب، وأن المتهم الرئيسي فيها هو اللص المدعو تينة، فقد توصلنا إلى أن هنالك شخصًا يمكن أن يكون على صلة بكلتا الجريمتين، هيثم شهاب.

_ آه، الشاب المغرور ابن عم الضحية.

_ تمامًا، لقد عثرنا على رسالة بالبريد الإلكتروني الخاص به موجهة إلى نادين وفيها إشارة إلى الخاتم.
_ الخاتم؟

_ خاتم كان سامح قد أهداه إلى سمية وعثرنا عليه مع نادين.

قالت وهي تفكر: ليس دليلًا قويًا لتستخدمه أمام المحكمة، لكنه كاف لإثارة الكثير من الأسئلة والشكوك ومبرر قوي للبحث عن قرائن إضافية.

قال متابعًا: اقترحت على رئيس القطاع أن نقوم بتفتيش مكان سكنه ومكتبه، لكنه لم يوفق في الحصول على الإذن بالتفتيش، ما نملكه

ضد هيثم لا يزيد عن كونه تخمينات وأدلة ظرفية، والقضية قد أصبحت تحت رقابة الداخلية منذ الاعتقال الخاطئ لسامح فهيم.
 _ مع أن هذا الإجراء فيه الكثير من العدالة وحفظ الحقوق والحريات الذي نفتقد إليه في أوقات كثيرة، ولكن...

_ الأنظار كلها الآن موجّهة نحو رمضان تينة، لذا فإن النيابة تعتقد أن ليس لدينا ما يكفي للتفتيش، رئيس القطاع يقترح أن نقوم بإحضاره للاستجواب ومواجهته بما نعرفه عنه، وفي حال وجدنا أي شيء آخر يمكننا الحصول على الإذن بسهولة، ولكن إن أردت رأيي فإن هذا كله إضاعة للوقت.

_ تظن ذلك؟

_ رجل خطط لهذا الأمر كله، سيكون مستعداً جيداً لأي استجواب. فكرت قليلاً بما قاله، في حين مد يده نحو جهاز التحكم وأعاد تشغيل التلفاز لكنه أبقاه على وضعية صامتة، سألت: ما الذي ستفعله إذًا؟ قال: سأفعل ما يتوجب علي فعله.

_ لا تقل لي إنك ستقوم بتفتيش منزله دون إذن.

_ لن أفعل، ولو فعلت ذلك فإنك لن تعرفي أبدًا.

قالت بلهجة يملؤها العتاب: محمود، لا تفعل.

أطلق ضحكة قصيرة، غادر بعدها في رحلة سريعة إلى أفكاره، ثم قال: أتعلمين؟ أظن أنني وجدت الحل.

نظرت إليه متسائلة، فقبلها على جبينها ثم قال: أنا ذاهب لأنام.

ثم نهض وتوجه إلى الفراش وهي لا زالت تراقبه في دهشة، أيقنت أنها لن تحصل على المزيد، ابتسمت وتبعته إلى الغرفة.
في الصباح، غادر محمود إلى مكان عمله، اتصل بسامح على الطريق واتفق معه على كل شيء، عند وصوله إلى القسم لم يتجه إلى غرفة مكتبه وإنما اتجه إلى مكتب شريف مباشرة، طرق الباب الذي كان مفتوحًا سلفًا ثم دخل دون أن ينتظر الإذن بالدخول، ألقى تحية سريعة ثم قال: وجدت طريقة يمكن فيها الحصول على إذن لتفتيش ممتلكات هيثم.

القسه الرابع

كعادته، استيقظ سمير، المدير المالي لمجموعة شركات شهاب، مبكرًا جدًا، كان يحرص دائمًا على الاستيقاظ قبل الموعد المحدد لاستيقاظ زوجته وأولاده، يكون قد استحم وحلق ذقنه وأعد ملابسه في الليلة الفائتة، لذا فإن كل ما عليه القيام به هو ارتداء ملابسه بسرعة والتسلل إلى الخارج مثل لص هارب. حل مثالي ليتجنب صداغًا صباحيًا يسببه له تدمير زوجته الدائم من كل شيء وطلبات أولاده التي لا تنتهي.

الفائدة الأخرى التي اكتشفها صدفة هو أن هذا الخروج المبكر من الممكن أن يجنبه ازدحام الصباح في طريقه إلى الشركة، إذا خرج في الوقت المناسب، يمكنه الإفلات من الاختناق المروري، شريطة أن يخرج في توقيت معين، لا قبله بدقيقة ولا بعده بدقيقة، وقت معين توصل إليه بعد سنوات من التجارب، لذلك فقد كان دائمًا أول الواصلين إلى مبنى الشركة، وفي أحوال كثيرة يكون آخر المغادرين. لهذا السبب فقد سار الأمر بأقل ضجة ممكنة.

كان يهم بالخروج عندما سمع صوت جرس الباب ليكسر صمت الصباح، وجود شخص على باب بيته في مثل هذا الوقت المبكر لم يشعره بالقلق، إن ما ألقفه فعلا هو الاحتمالية الكبيرة لأن يصل الرنين إلى مسامع زوجته فيتسبب في إيقاظها قبل أن يتسنى له الخروج من البيت. هرول باتجاه الباب برشاقة لا تتناسب مع جسده وقام بفتح الباب، كان بانتظاره أسوأ ما يمكن أن يخطر بباله. أيقن

أنه ليس الموظف الوحيد الذي يخرج مبكرا من بيته، فأمامه يقف اثنان من أمناء الشرطة بالزي الرسمي.

تراجع سمير خطوة إلى الخلف بشكل لا إرادي وهو يفكر في هذا الكابوس الذي غادر أحلامه ليلاحق به في يقظته، خرجت أولى كلماته متأخرة عن مواعدها المعتاد.

_ أي خدمة؟

حاول أن يظهر بمظهر الشخص الواثق من نفسه، لكنه لم يوفق كثيرا في نقل هذا الانطباع إلى الرجلين الواقفين أمامه، صوته خانه بدرجة كبيرة. سأله أحد الشرطيين: هل أنت المدعو سمير طاهر؟ تنحس سمير قبل أن يجيب، بصوت أكثر ثباتا من المرة الأولى: نعم، أنا هو، أي خدمة؟

قال الشرطي الآخر ببرود: أنت مطلوب للحضور معنا إلى المديرية. تمكن عقله الرياضي من إجراء الحسابات بسرعة. قال: لكنني لا أعرف شيئا عن حادثة انتحار نادين.

نظر كلا الرجلين إليه في عدم فهم، ثم تدخل أحدهما منهيًا حالة الصمت، هذا الأمر ليس من اختصاصنا، عندما نصل إلى المديرية يمكن أن تقوم بإخبار ضباط المباحث بما تريد.

كان سمير قد تهيأ للخروج مسبقا، لذا فقد كان مستعدًا لمرافقتهم. في المديرية جلس في الغرفة ذاتها التي يراها كثيرا في الأفلام البوليسية، الغرفة ذات الحجم الصغيرة الخالية من الأثاث إلا من طاولة في وسط الغرفة وكريسيين، و امرأة كبيرة يعرف أن هنالك من ينظر إليه من خلفها، شعوره بأنه يجلس في مكان جلس فيه قبله أناس من أعتى المجرمين بعث في نفسه الرهبة.

لم يكن في المكان المناسب لشاهد بالتأكيد، رغم ما كان يشعر به إلا أنه كان حريصاً على الحفاظ على مظهر خارجي هادئ، حتى لا يوحي لأي كان يراقبه من خلف المرأة بأن ليس هناك ما يقلقه أو يخفيه.

لم يكن يعرف الكثير عما حصل، فوجئ بالأمر شأنه شأن جميع العاملين في الشركة، نادين زميلة عمل منذ سنوات لكن معرفته بها لم تكن تتعدى حدود العمل، كان احتمال أن يقوموا باستدعائه لهذا الأمر مستبعداً، لكنه قد حدث، ليته كان مستعداً أكثر.

بعد دقائق، ندم لأنه لم يقم بالاتصال بهيثم ليطلب منه المساعدة، هاتفه تم أخذه منه في الخارج، أمر مثير للإزعاج، هو ليس شخصاً متهمًا بأي شيء بالتأكيد فلماذا يعاملونه بأنه كذلك؟ ربما كان من الأجدر بهم أن يسألوا سامح أو هيثم، هيثم بالتأكيد يعرف الكثير عن هذا الأمر، ندم مرة أخرى لأنه لم يقم بالاتصال بهيثم، إلا أنه فكر في أن الفرصة لم تتح له للاتصال بأي شخص كان.

دخول ضابط المباحث كان كفيلاً بقطع أفكار سمير، كان شاباً أبيض البشرة حليق الوجه له شعر خفيف ويرتدي بدلة كحلية، كان يحمل في يده ملفاً أبيض اللون مليئاً بالأوراق.

_ أنت السيد سليم طاهر، المدير المالي لشركات شهاب؟

كان في الدقائق الماضية قد أعد نفسه جيداً هذه المرة، قال بلهجة هادئة وواثقة تدرج عليها كثيراً في عقله: قبل أن تقول أي شيء يا سيدي أحب أن أوضح لحضرتك أمراً، وهو أن علاقتي مع المرحومة لم تكن تتعدى العلاقة المهنية البحتة، وبالتالي فإنني لا أعرف أي شيء عن حياتها الشخصية أو حيثيات الحادث الذي قامت بارتكابه.

في بداية الأمر شعر ضابط المباحث ببعض الارتباك، لكن بدا أنه سرعان ما فهم الأمر، جلس على المقعد المقابل وابتسامة خبيثة ارتسمت على وجهه، ثم قال: أستاذ سمير، أنا لا شأن لي بكل هذا، أنا حتى لا أعرف من هي نادين التي تتحدث عنها، نحن لم نستدعك لهذا الغرض، لكن ربما أن استدعاءك إلى المديرية دون توضيح قد أحدث لديك بعض اللبس.

_ عذرا يا سيدي، لكن إذا لم أكن موجودًا هنا لهذا السبب، إذًا لماذا أنا هنا؟

_ هذا خطأي، لم أعرف عن نفسي منذ البداية.

ثم اتكأ بمرفقيه على الطاولة التي أمامه وهو يلقي لسمير بأسوأ كوابيسه على الإطلاق. فالرجل الذي أمامه كان من مباحث الأموال العامة.

_ هناك شكوى مقدمة بحقك وبحق المدعو هيثم شهاب نائب مدير الشركة من قبل المدير العام للشركة المدعو سامح فهيم، بصفته الشخصية وبصفته وصيًا عن ابنه القاصر هاني مالكي الشركة، وهو يوجه لكما الاتهام بالسرقة والاختلاس من أموال الشركة، وقد قدم جميع الوثائق التي تثبت ذلك.

ثم قام بفتح الملف الذي أمامه وهو يقول: هناك نسختين من كل ملف، والبيانات المالية مختلفة في كلا النسختين، إحدهما يتم إعطاؤها للطرف الخارجي الذي يتعامل مع الشركة والأخرى يتم حفظها في سجلات الشركة، وبمقارنة الأرقام يتبين أن هنالك الكثير من الفروقات، المشتكي يدعي أنك والمدعو هيثم كنتما تحصلان على هذه الفروقات في المبالغ لحسابكما الشخصي.

لم تدم الصدمة التي تلقاها سمير كثيرا، هذا المشهد جاءه كثيرا في كوابيسه، وانشغل بها كثيرا في أحلام يقظته، تلقى الكثير من الأسئلة ودافع عن نفسه في بالكثير من الأجوبة المقنعة. قال وهو ينظر إلى ملف الأوراق الذي أمامه بوجل: جميع الأوراق المالية والعقود والإيصالات كان يتم توقيعها من قبل مالكة الشركة المرحومة سمية شهاب.

_ لكن الأوراق الموجودة معي لا يحمل أي منها توقيع سمية شهاب، وجميعها بتواريخ حديثة بعد وفاتها.

كان الملف الذي بين يدي الضابط يحمل الكثير من الأوراق التي لم يكن يفترض أن يعلم عنها أحد، توقيع سمير كان يزينها جميعا، سمع الضابط الجالس أمامه يعلق بشيء من التهمك: أسلوب اختلاس أموال بدائي للغاية، لكن على ما يبدو أن المال السائب يعلم السرقة، عدا أن مالك المال كان يقظا في هذه الحالة.

في لحظة من اللحظات، أدرك سمير أن الواقع يختلف تماما عما كان يواجهه في أحلامه، إجاباته العديدة التي كان يواجه بها أشباحه ذهببت كلها أدراج الرياح. كان مخطئا حينما وثق بهيثم بعد وفاة سمية، اتخذ قراره بسرعة، قال بصوت اختفى منه كل أثر للثقة: أنا ليس لي أي علاقة بالأمر، هيثم هو المسؤول عن كل شيء.

انتهى كل شيء بالنسبة إلى سمير بلمحة بصر، غادر ضابط مباحث الأموال وعلى وجه ابتسامة رضا، أشار برأسه إلى محمود وشريف اللذين كانا يراقبان التحقيق من خلف النافذة الزجاجية، ثم مضى إلى الخارج.

كان محمود يتوقع أن يسقط سمير بسهولة، لقد جرى كل شيء كما تم الاتفاق عليه مع مباحث الأموال العامة، أقنع سامح أن الوقت مناسب لتقديم شكوى سرقة أموال الشركة التي كان قد أخبره عنها في آخر مرة، الرجل طلب رأيه فلم يبخل عليه بما هو أكثر من ذلك، تم استدعاء سمير إلى المديرية حيث يعتقد أن الأمر يتعلق بنادين ولا يتمكن من تحذير هيثم، يمكن لهيثم بسهولة أن يتصل من هذه الجرائم وأن يدعي أنه كان يوقع على الأوراق بصفته نائب المدير دون أن يعلم بوجود النسخة التي تم التلاعب بها، يمكنه أن يصعب الأمر أكثر ويقوم بالتحدث مع أحد المتنفذين لمساعدته أو حتى بتوكيل محام مختص بإعاقه الإجراءات، لذلك فقد كان الاتفاق مع مباحث الأموال أنه بمجرد الحصول على اعتراف من سمير يدين هيثم أن تقوم بطلب الحصول إذن بتفتيش الفيلا التي يملكها هيثم، الأوراق التي قدمها سامح واعتراف سمير بشراسته مع هيثم ستجعل من مسألة الحصول على الإذن في غاية السهولة، وفي الوقت الذي تنشغل فيه مباحث الأموال في البحث بين أوراق هيثم سيكون محمود ومن معه منشغلين في البحث عن أمور أخرى.

كانت الساعة قد قاربت على التاسعة عندما فتح هيثم عينيه للمرة الاولى هذا الصباح، لكنه فشل في نزع آثار النعاس من جسده بعد ليلة صاحبة أخرى، استسلم للنوم مرة أخرى، الشركة التي يديرها الآن لن تذهب إلى أي مكان.

استيقظ بعد ساعة، ثم قضى نصف ساعة وهو يتقلب في السرير في مشادة بين النوم واليقظة، قبل أن يصحو تمامًا. أخذ كامل وقته في الحمام، وفي تناول فطيرة جاهزة محشوة بالكريمة مع كوب من الشراب، وفي ارتداء ملابسه، وعندما سمع الطرقات القوية على باب الفيلا الداخلي كان يقف أمام المرأة محتارًا في اختيار رباطة عنق مناسبة.

أشعره الطرق على الباب بالضيق الشديد، فالشخص الذي في الخارج لم يقم بإقلاق راحته فقط، وإنما وجد الجرأة ليقفز من فوق البوابة الخارجية ويخطو إلى الباب، ثم تذكر أنه ربما لم يقم بإغلاقها جيدًا عندما عاد البارحة في وقت متأخر. لم يكن قد عين حارسًا آخر بعد الذي قام بطرده لإهماله في أعمال الحديقة، لكن هذا لا يبرر لكائن من كان أن يدخل إلى ساحة الفيلا دون إذن مسبق. لذا فكر في أن أول أمر يجب أن يفعله اليوم هو تعيين حارس جديد للفيلا. توجه نحو الباب ليفتحه وهو يلعن القادم علانية مرة وفي سره مرات. لكنه تمكن من ابتلاع المفاجأة المدوية التي لقيها أمامه بسرعة.

استقبل إذن التفتيش والذين أحضروه بابتسامة ساخرة، وأفسح لهم الطريق وهو يحذرهم من العبث في أي شيء، فالمكان تم تأثيثه منذ فترة قصيرة جدًا ولن يتهاون في حال تم إتلاف أي شيء.

كان محمود لا زال جالسًا داخل سيارته بالقرب من الأسوار الخارجية للفيلا، دقائق قليلة مضت قبل أن تصل إحدى سيارات الدورية وتقف خلف سيارته تمامًا، خرج محمود من سيارته وانتظر نزول ركاب السيارة الأخرى، نزل حسني أمين الشرطة ومعه شرطي آخر، ومن الكرسي الخلفي للسيارة نزل كلب الجيرمان شيبرد الضخم.

_ لقد تأخرتم كثيرًا.

قال حسني معترًا: اعذرنى يا باشا، الطريق مزدحم جدًا. وجه نظرة متفحصة إلى الكلب الأسود، بدا متحفزًا للبدء بالعمل، قال: أتمنى أن يكون على علم بما يجب عمله.

قال الشرطي الذي يمسك بالحبـل: لا تقلق يا سيدي، لو كنت تبحث عن إبرة في كومة قش سوف يجدها لك.

لكن العبارة الأخيرة التي قالها محمود لم يكن يقصد بها الكلب بالقدر الذي كان يقصد بها نفسه. قال أخيرًا: توكلنا على الله إذًا.

ثم خطوا داخل أسوار الفيلا.

لم تكن ساحة الفيلا قد تغيرت كثيرًا عن المرة الأخيرة التي رآها فيها محمود، باستثناء أن الغرفة الخارجية المعدة للحارس كانت قد أصبحت جاهزة تقريبًا، كومة الخردوات التي كانت أمام الغرفة قد تلاشى معظمها.

وبقي بعضها متجمعا في أماكن متفرقة على شكل تلال صغيرة وقد تكدست فوقها أكوام إضافية من الغبار والتراب، إلا أن مدخل الفيلا كان مرتبا ونظيفا، والجهة التي كانت مخصصة للزراعة قد بدأت تنبت فيها بعض الورود والشتلات الصغيرة، بينما المساحة الترابية الأصغر حجماً بقيت على حالها، غير منظمة وخالية من أي ألوان خضراء باستثناء بعض البتلات الصغيرة جداً.

في منتصف الساحة توقف الشخص المسؤول عن الكلاب وجلس القرفصاء، وأخذ وجه الكلب بكلتا يديه وأخذ ينظر إلى عينيه مباشرة كأنه يخاطبه بالتخاطر عن بعد، ثم أخرج عدة أشياء من حقيبته وقربها من أنفه، عاد ليقف من جديد وأشار إليه إشارة خاصة بدأ على إثرها رحلة البحث عن الأسرار.

ظل محمود يراقب الكلب من بعيد وهو يقف في مساحة مظلمة بالقرب من الحديقة، سارحسني مع مدرب الكلاب يتبعان الكلب في الاتجاه الآخر من الساحة الذي تقع فيه الغرفة المبنية حديثاً. شاهد شريف محمود يقف على مقربة من حوض الزهور، سارباتجاهه وهو يحمل في يده سيجارة غير مشتعلة، قام بإشعالها عندما وقف بجانب محمود، أخذ منها سحبة قبل أن يقول: هل تظن أن هذا الأمر مجدٍ؟

قال محمود وعيناه معلقتان على الغرفة في الاتجاه الآخر والتي دخل إليها المدرب مع كلبه: هل هناك حل آخر؟

قال شريف وهو يعرض على أسنانه: بالتأكيد هناك حل آخر، أن نحضر اللعين للاستجواب ونقوم معه بالواجب، هذه هي الطريقة التي يمكنك بها حل الجرائم في هذه البلاد.

_ تقول هذا لأنك لم تجرب طرقاً أخرى.

_ لا توجد طرق أخرى.

_ المشكلة أن طريقتك يمكن استخدامها مع صغار القوم فقط.

لم يلحظ شريف النبرة الساخرة، أخذ نفساً آخر من سيجارته، ثم تابع: أتعلم، لقد كرهته منذ اللحظة الأولى التي فتح فيها فمه ليتكلم في الشركة، لو تمكنا من إثبات أنه القاتل، سيكون الأمر مثاليًا جدًا. _ لو تمكنا من إثبات ذلك.

خرج الكلب من الغرفة وخلفه مديره، لم يكن من الصعب على محمود أن يحزر بأن رحلة الكلب إلى الغرفة لم تسفر عن جديد، لم يكن ذلك خبراً جيداً، فقد كان يشعر بأن هذه الغرفة تخفي بين طياتها شيئاً، لكن أكوام الخردوات التي بداخلها لن تكون دليلاً على أي شيء، عبر عما في داخله بزفرة ضيق دون أن يعلق. أخذ يفكر فيما يمكن أن تكون الخطوة التالية في حال كان كل هذا بلا طائل، فكر مجدداً، فقط لو تمكنا من إثبات تورطه، في حين انشغل شريف بالقضاء على سيجارته.

خرج هيثم من باب الفيلا وهو يتجادل مع أحد ضباط مباحث الأموال، أنهى محادثته سريعاً عندما رأى محمود واقفاً بجانب حديقته الصغيرة، بدا أنه عرفه على الفور، سار باتجاهه بخطوات سريعة وقد كست ملامحه طبقة تجهم إضافية، ثم قال مشيراً إلى الكلب الذي كان قد وصل إلى منتصف المسافة: ما الذي يحدث بالتحديد يا حضرة الضابط؟ ما الذي يدعو لإحضار هذا الكائن القذر إلى أملاكي.

وجه إليه شريف نظرة نارية لكنه أثار الصمت، لقد تلقى كفايته من التحذيرات بسبب هذه القضية، قال محمود: إجراءات روتينية، هناك شكوى بحقك بالاختلاس من أموال الشركة التي تعمل لديها. قال هيثم مصححاً: التي أديرها، الشركة التي أديرها يا حضرة الضابط.

لم يرغب شريف في البقاء أكثر، الموقف برمته كان مستفزاً بالنسبة إليه، ألقى ما تبقى من سيجارته على الأرض وداس عليها بغل ثم سار مبتعداً.

_ منذ متى تقوم مباحث الأموال باستخدام كلاب الأثر، ثم يا حضرة الضابط، هل انتقلت إلى مباحث الأموال؟ قال محمود بعدم اكتراث: إننا ندير تحقيقاً مشتركاً، هذه الأمور تحصل كثيراً.

قال في استهجان: تحقيقاً مشتركاً؟

قال محمود وهو ينظر إلى عيني هيثم مباشرة: لقد أثبتت التحريات أن انتحار نادين له ارتباط بالجرائم المالية التي حصلت في الشركة، هذا يستدعي تحقيقاً مشتركاً، ألا تظن ذلك؟ سكت هيثم قليلاً، كانت المفاجأة التي على وجهه حقيقية، قال: كلام فارغ.

ثم قال وهو ينظر إلى الكلب الذي كان يقترب من الحديقة رويداً رويداً: لا أريد هذا الشيء داخل أملاكي، ليس لكم الحق في ذلك. _ لماذا يقلقك وجود الكلب إلى هذه الدرجة؟

_ لدي حساسية تجاه الكلاب.

ثم قال وهو يشدد على كلماته: واتجاه الأشخاص الفضوليين أيضاً.

لم يكن محمود قادرا على معرفة ما إذا كان قلق هيثم بسبب الكلب فعلا، تجاهل العبارة الأخيرة وقال: أرى أنك قد تجاوزت حزنك على نادين بسرعة، أم أنك لم تحزن لموتها من الأساس.

قال هيثم وهو ينظر إليه في محاولة لفهم المقصود بهذا الحديث: نادين فتاة متميزة، وكانت علاقتي بها جيدة، وما قامت به أمر مأساوي وصادم بالتأكيد. لكني أملك القدرة على تجاوز أحزاني بسرعة.

_ بسرعة قياسية كما أفترض، يبدو أن هذا قد أصبح أمرا يتقنه الجميع هذه الأيام.

_ لقد مضى ما يقارب الأسبوع على الحادثة، وقت كاف للحزن، هي لم تكن عشيقتي أو خطيبتي، مجرد موظفة تعمل لدي، حدث ما حدث وانتهى الأمر.

_ هل أنت متأكد من أن الأمر قد انتهى؟

_ لا أعلم ما الذي تقصده، وبالمناسبة، وجود علاقة بين الاختلاس من أموال الشركة وبين انتحار نادين، ليس الأمر الذي لا أصدقه فقط، لكنه لا يعني في أي شيء كذلك.

اقترب الكلب من هيثم حتى كادت أنفاسه أن تلامس قدمه، فقام الأخير بإبعاد قدمه عنه في تأفف، قام قائد الكلب باقتياده بعيدا باتجاه الحديقة، قال هيثم بغضب ظاهر: هل هناك داع لهذا يا حضرة الضابط؟

قال محمود: قلت لك، إجراءات روتينية.

كان الكلب قد اقترب من حوض الزهور وأخذ يتشممه، لم يتمكن هيثم من تمالك أعصابه أكثر، صاح موجهاً كلامه إلى الشخص

المسؤول عن الكلب: أبعاد هذا المخلوق القذر عن أزهارى، سوف يفسدها بخطمه القذر.

الحنق والاحتجاج الصاخب فيه الذي أظهره هيثم أيقظ بوادر الأمل في نفس محمود من جديد، ركز عينيه على ما يقوم به الكلب، عادت الفكرة لتتبلور في ذهنه.

بقي الكلب يسير في وتيرة ثابتة، تجاوز حوض الزهور وسار بين الأشتال الصغيرة إلى أن وصل إلى المساحة الترابية غير المزروعة من الحديقة، والتي لم تكن مساحتها تزيد على مترين، توقف الكلب عن السير، تسارعت أنفاسه وارتجف جسده، اتخذ ذيله وضعية عمودية وكأنه يستعد للهجوم على عدو غير ظاهر.

كانت دقائق قلب محمود تتزايد، نظر إلى شريف الذي كان يتحدث في الهاتف على بعد أمتار منه وأشار إليه بإشارة ذات معنى، أنهى شريف مكالمته دون وداع وجاء مسرعاً، في اللحظة التي كان الكلب قد وصل إلى قمة اهتياجه، وبدأ ينبج بشدة وهو يحاول أن يحفر التراب بقوائمه.

_ هل وجد شيئاً؟

قال محمود وهو يبتسم: إذا أردت أن تخفي كتزا، فإن أفضل مكان هو أن تقوم بدفنه.

سار باتجاه الكلب، وأراد هيثم اللحاق به لكن يد شريف القوية أمسكت بساعده فأوقفته عن المضي في طريقه، وخرج صوت شريف غليظاً وقاسياً: إلى أين يا هيثم بيه؟

نظر إليه هيثم دون أن يرد، ثم أخذ ينظر إلى ما يحدث في الحديقة.

عندما وصل محمود كان الكلب قد توقف عن النباح، أبعده قائده عن المكان، أما حسني فقد جثا في المكان ذاته وبدأ يزيل التراب بيديه وهو يعلن ما بدا معروفا للجميع من حوله: لقد وجد الكلب شيئا. ثم علا صوته طالبًا المساعدة، تقدم اثنان من مجندي الشرطة الذين كانوا يقفون بالقرب من البوابة، طلب محمود من أحدهما أن يحضر الرفش التي كانت موضوعة في الاتجاه الآخر بالقرب من غرفة الحارس، جرى بسرعة لاحتضارها ثم عاد بعد دقيقة، وبدأ يحفر. لم تمض سوى ثوان قليلة، حتى ارتطمت المجرفة بشيء صلب تحت التراب.

_ وجدت شيئا.

صاح المجند الذي يمسك بالمجرفة، ضرب محمود الهواء بقبضته وهو يلوم نفسه لأنه لم يدرك ذلك منذ اللحظة الأولى التي شاهد فيها العبث في أرض الحديقة في اليوم الذي حضر فيه ليطلب من هيثم عينات فحص الـDNA، هناك شيء مدفون هنا بالتأكيد، لقد عثرنا على الكنز.

مد حسني يده تحت التراب ليخرج صندوقا ذهبيا مكسوا بالتراب ورفعته إلى الأعلى وناوله لمحمود الذي فتحه بنفاد صبر، كانت القطع الذهبية تلمع بشدة تحت أشعة الشمس، قام شريف بإلقاء هيثم على الأرض ثم قام بلي ذراعه خلف ظهره دون أن يبالي باحتجاجاته، وضع الأصفاد في يديه بحرفية عالية، كانت قطرات العرق تتصب بغزارة من وجهه، لم تكن حرارة الجو هي السبب الوحيد لذلك، قطرات العرق كانت باردة مثل الثلج.

أخذ الكلب ينبج باهتياج وهو يدور حول نفسه بتوتر، كان حسني يتابع المشهد ويداه لا تزالان تنبشان في التراب، قبل أن تقع يده على شيء آخر، قال معلنا مثل المرة الأولى: وجدت شيئاً آخر. نظر إليه محمود في ترقب وهو يفكر في ماهية هذا الشيء، سلاح الجريمة، سيكونون محظوظين جداً، لكن حسني وجد شيئاً آخر، مد يده لتغوص بداخل التراب بلهفة، تحولت لهفته إلى ذعر بسرعة، أطلق صيحة مكتومة وهو يتراجع بجسده إلى الخلف. كانت هناك يد بشرية تتدلى من تحت التراب. مضت لحظة الصدمة الأولى، قبل أن يقول محمود: أعتقد أننا عرفنا الآن أين كان رمضان تينةً مختلفياً طوال الوقت.

وصل موظفوا المعمل الجنائي في أقل من ساعة، ووصل خيرى الطبيب الشرعي بعدهم بدقائق، وخلال الساعة التالية كان الحفل قد اكتمل، بحضور النيابة العامة ورئيس مباحث قصر النيل بالإضافة إلى محسن وبصحبته مفتش مباحث قطاع الغرب. كان هناك صحافيان قد تمكنا من الوصول إلى حدود الفيلا، إلا أن أميَّي الشرطة حسن وحسني تمكنا من التعامل معهما وإبعادهما، وقفنا بحزم أثناء نقل المتهم إلى المديرية لمنعهما من أخذ الصور، وغادر شريف خلفها بسيارته، فيما بقي محمود قريباً. عملية انتشارال الجثة من تحت التراب لم تكن سهلة، فقد عمل رجال المعمل الجنائي على إزالة التراب من فوق الجثة بحرص شديد كي لا يحركوها، كانت الجثة في حالة سيئة ويمكن أن تتمزق أشلاؤها بسهولة، حرارة الجو بدا أنها ستبقى في ارتفاع إلى الأبد. أنهى الدكتور خيرى مكالمته مع الجامعة ليعتذر عن حضور محاضرة اليوم، ثم أخذ مكانا بالقرب من موقع بجانب محمود، قال معلقا وهو يضحك: لا أصدق أننا نلتقي للمرة الثالثة في أقل من شهرين، يبدو أن الإثارة لا تنتهي معك. قال محمود: الأمر مفاجئ بالنسبة لي أيضاً. ثم نظر إلى الجسد الذي بدأت تتضح معالمه وقال معلقا: الجثة تبدو متحللة. قال خيرى: بالتأكيد، لقد مرت أكثر من ثلاثة أسابيع على وفاته.

_ ثلاثة أسابيع؟

رد خيرى بثقة: ثلاثة أسابيع على الأقل، ربما شهر أو أكثر، لقد تجاوز مرحلة الانتفاخ منذ مدة طويلة، لذلك فقد اختفت الكثير من الملامح الأدمية وما تبقى عبارة عن هيكل عظمي مكسو ببعض الجلد والدود الأبيض.

رفع أحد أفراد المعمل الجنائي رأسه إلى أعلى وقال متسائلاً: هل هذا كاف يا دكتور؟

_ كاف جدًّا. ارتدى قفازاته على عجل، وجثا بجانب الجثة وحقبته أدواته بجانبه. اقترب محسن وبرفته العميد رشاد مفتش مباحث الغرب من المكان الذي يقف فيه محمود، وسأله رشاد: ماذا وجدتم لغاية الآن؟

قال محمود: الكثير يا سيدي، أشياء كنا نبحث عنها وأشياء أخرى لم نتوقعها، صندوق المجوهرات والمصوغات الذهبية المختفية بداخله، حبل مطاطي على الأرجح أنه المستخدم لخنق سمية شهاب، مسدس مع كاتم للصوت لم نعرف ماهية استخدامه بعد لكن على الأرجح أنه المستخدم في قتل الرجل الذي عثرنا على جثته للتو، بالإضافة إلى الجثة بالتأكيد.

_ ممتاز، عمل ممتاز.

قالها ببرود ثم تحرك خطوتين في الاتجاه المقابل وأخذ يتأمل مجموعة من الأزهار الملونة، بقي محسن ومحمود صامتين لعدة دقائق وهما يتابعان الدكتور خيرى الذي كان يتلمس أطراف الجثة بحذر، نفذ صبر محسن، قال بصوت عالٍ تمكن رشاد من سماعه: وافنا بالأخبار يا دكتور خيرى.

تنبه رشاد إلى الحوار الدائريين محسن وخيري واستدار ليتابع ما يقال تاركًا الأزهار خلف ظهره.

قال خيري: إذا كنت ترغب في إجابات مؤكدة فأنا لا أستطيع أن أمنحك إياها الآن، وإن كنت ترغب في إجابات احتمالية فأستطيع أن أخبرك بأن الجثة تعود إلى ذكر شاب، قوقازي بالطبع، بشرة حنطية، أو هكذا كان في ما مضى، طوله ما بين ١٧٠ إلى ١٨٠ سم.

بدا محسن راضيًا بهذه الإجابة منذ أن سمع كلمة ذكر، سأل: ماذا عن سبب الوفاة؟

قال خيري بأسلوبه المرح: هذا هو ما جئت لأفعله، ألا تظن ذلك. أخذ محسن يقهقه دون أن يتمكن من إخفاء انفعاله، بقي وجهه رشاد جامدًا، لكن جموده كان مصطنعًا.

_ لحظة واحدة.

اقترب برأسه أكثر من منطقة الرأس، وضع أصبعه في منتصف الجمجمة التي كانت قد فقدت ملامحها بشكل شبه كامل، قال: هناك ثقب في الرأس، ولاحظت ثقبًا مشابها في منطقة الصدر، تخميني أن كليهما ناتج عن نفس السلاح.

تدخل محمود قائلًا: مسدس بعيار صغير.

أجاب خيري: تمامًا.

نظر محمود إلى محسن ورشاد وقال: المسدس الذي وجدناه مدفونًا. هز محسن رأسه في رضا وقد بدأت الفكرة تتبلور في رأسه، ثم سأل: ماذا عن وقت الوفاة؟

قال خيري: شهر أو أكثر قليلًا.

قال محسن بلهجة أمرة معلنا لجميع من حوله: المكان سيبقى مغلقا حتى إشعار آخر، وليبقَ حسن وحسني في الموقع إلى حين إعداد جدول الحراسة، يمنع دخول أي شخص إلى الفيلا إلا الأقارب من الدرجة الأولى ولوقت محدود. وتسجيل أي شيء يتم أخذه من الفيلا. ولا أحد يقوم بإعلان أن الجثة التي تم العثور عليها تعود لرمضان تينة إلى أن تأتي نتائج المختبر الجنائي لتؤكد ذلك.

_ مفهوم يا سيدي.

ثم قال بصوت أكثر انخفاضاً موجهاً حديثه لمحمود: ليقم أحد بإبلاغ سامح فهيم بأننا ألقينا القبض على هيثم شهاب بتهمة التآمر على قتل زوجته وسرقة مجوهراتها، أما عن عائلة الفتاة الأخرى فسنرجئ الأمر قليلا لما بعد إنهاء التحقيقات الأولية.

أوما محمود موافقا ثم قال: سأحرص على الذهاب وإخبارهم بنفسي فور أن ننتهي من هنا.

قال خيرى وهو ينظر بإمعان إلى أحد أطراف الجثة: هل لدى رمضان تينة أصبع ناقص؟

نظر محسن إلى خيرى ثم وجه نظره إلى محمود في انتظار الإجابة، قال محمود: بحسب ما أعلم فإن أصابعه جميعها سليمة.

قال رشاد وقد أثار الموضوع اهتمامه للغاية: هل يمكن أن نكون مخطئين وأن الجثة تعود لشخص آخر؟

ثم وجه حديثه إلى خيرى: ما هو الإصبع الذي يفقده الضحية؟

قال خيرى: الإبهام الأيسر.

_ هل هناك أي تفسير لاختفائه؟

_ ليست لدي إجابة.

ابتعد محمود عن المكان وسار بالاتجاه المقابل من الساحة حتى يتسنى له إجراء مكالمة هاتفية بعيداً عن نطاق سمع رؤسائه الذين تأهبوا للمغادرة، قام بطلب رقم صبري ناموسة وضغط على زر الاتصال.

_ أهلا يا سيدي، لقد كنت بصدد الاتصال بك، لدي أخبار جيدة عن الشيخ وكنت أرغب في أن أطلعك عليها.

قاطعته محمود بحدة: كف عن الهراء، أخبرني بسرعة، هل لدى رمضان إبهام مقطوع.

_ لا أفهمك يا سيدي.

قال محمود وهو يحرص على ألا يرتفع صوته كثيراً: يا بني آدم، ركز معي قليلاً، رمضان شقيق زوجتك، هل لديه إبهام مقطوع من يده اليسرى.

_ لا يا باشا، رمضان أصابعه كلها سليمة. لكن ما...

أغلق محمود الخط وقد بدأت الشكوك تراوده من جديد. أن يكون القتل شخصاً آخر غير رمضان تينة، كان احتمالاً بعيداً للغاية، ولكنه يبقى احتمالاً قائماً.

ولكن إذا كان هذا الاحتمال صحيحاً، فيبدو أنهم قد غفلوا عن الكثير من الأمور.

تصرف ساعة كاملة كانت قد مضت، لم يكف فيها هيثم عن الصراخ، حمل صراخه بعض الشتائم، والكثير من التهديد والوعيد، لكن بدا أن نبرة صوته لن تنخفض أبدًا. قال العميد رشاد موجهًا حديثه لشريف ومحمود وهو ينظر إلى هيثم من خلف الحاجز الزجاجي: ما هذا الجنون؟ قال شريف معلقًا ببعض السخرية: حسنا، بالتأكيد يمتلك حنجرة قوية.

_ هل تعتقدان أنه مصاب بمرض نفسي؟

_ لا يا سيدي، على الإطلاق، إنه مخادع، كل هذه الضجة مجرد مظاهر.

قال رشاد وهو يضع يده على ذقنه: لا أعلم، يبدو الأمر جديدًا.

قال محمود: مجرد ميل إلى الاستعراض، الأشخاص أمثال هيثم غير معتادين على أن يتم تجاهلهم، يظنون أنهم يتميزون على باقي البشر، أكثر ذكاءً وأكثر جمالًا وفوق كل نقد، ولديهم نزعة إلى حب الظهور، هيثم يحاول أن يخبرنا بطريقته الخاصة أنه الأقوى والأكثر سيطرة، يمكنك أن تقول نوع من أنواع جنون العظمة.

_ إذًا فهو مريض نفسي فعلا.

قال محمود وهو يبتسم: ليس للدرجة التي يمكنه فيها أن يتجنب حبل المشنقة.

قال شريف وهو يضرب قبضته اليمنى بكف يده اليسرى: أتمنى لو يتم منحي الفرصة لإسكاته.

قال محمود بصوت منخفض: تفكير سادي.
نظر إليه شريف وهو يقول متسائلا: هل قلت شيئا؟
قال محمود: لا، كنت أفكر فقط في أن أدخل إلى الغرفة وأقوم
بضربه إلى أن يسكت أو يموت.
_ هل تصدق بأنني كنت أفكر في ذات الشيء.

كف هيثم عن الصراخ الغاضب عندما فتح باب الغرفة، دخل
وجهان مألوفان بالنسبة إليه، إلى حد أن أحدهما كان قد حل ضيفا
إجباريا على بيته في مرة من المرات.

كان في تلك اللحظة يقف قبالة المرأة الكبيرة التي تغطي الحائط،
عندما رأهما يدخلان عاد إلى مقعده في هدوء شديد. ما إن جلس
المحققان أمامه حتى رفع يديه مظهرا الأصفاد التي تكبلهما وهو
يقول: هل هناك داع لهذا الشيء الذي في يدي؟

قال شريف بسخرية: هل أنت متزعج من الأصفاد إلى هذا الحد؟
قال هيثم بسخرية مماثلة: إنها تظهرني بمظهر من ارتكب جريمة.
_ أنت مجرم خطير، متهم بقتل شخصين على الأقل والتآمر على قتل
شخص ثالث، بصراحة، هذا أقل ما يجب عمله معك.
مط هيثم شفثيه في تأفف، قال: أنا لم أقتل أي شخص، ولم أتآمر
مع أحد.

وجه شريف إلى هيثم نظرة مباشرة وقال: هل يمكنك أن تخبرنا
بمكان تواجدك ما بين ليلة الجمعة قبل الماضية الماضية إلى فجر
السبت، في الليلة التي قتلت فيها المدعوة نادين زميلتك في الشركة؟

قال هيثم بتعال: مرؤوستي في الشركة، وليست زميلتي، يفترض أنكم حفظتم هذا من كثرة ما كررته لكم.

لاحظ أن عيني شريف بدأتا تقدحان شرراً، قال متابِعاً: كنت في أماكن كثيرة في تلك الليلة، ربما يمكنك أن تحدد الوقت أكثر. قال شريف: يالك من متحذلق، لنقل إذن من الحادية عشرة ليلاً إلى الخامسة فجراً.

قال هيثم متظاهراً بالضيق: لقد سبق وأن أخبرتكم بالأمس، ولن يتغير شيء لهذا اليوم، لقد كنت أسهر لوحدي في أحد النوادي المحترمة في شارع الهرم، وأعطيتكم اسم المكان وعنوانه بالتفصيل. يمكنكم سؤال الفتيات والبارمان في الكازينو الذي كنت فيه، فقد كنت سخياً كفاية ليتذكروا وجهي، بالإضافة إلى أنني شربت كثيراً في تلك الليلة، لا أذكر شكل الفتاة التي عدت معها إلى الفيلا، لكن يمكنكم السؤال عنها هناك.

قال شريف وهو يكبح جماح غضبه قدر الإمكان: في الحقيقة هذا ما قمنا به فعلاً، لم نضع الوقت وأرسلنا رجالنا إلى المكان بالأمس، تعرف بعض العاملين عليك ولكن لا أحد منهم تذكر المدة التي بقيت فيها أو الوقت الذي غادرت فيه بالتحديد، وبالطبع أنكر الجميع أن هنالك فتاة قد خرجت معك.

قال هيثم محافظاً على أسلوبه الساخر: لا يمكنك أن تثق بتلك الأماكن أبداً، أليس كذلك؟

نظر إليه شريف في احتقار، ثم سأله: هل كانت هناك علاقة تجمعك مع نادين.

قال هيثم: تقصد علاقة رومانسية؟ لا طبعاً، كنا مقربين من بعضنا البعض، وكانت بيننا قاعدة أصدقاء مشتركة فيما مضى، لكن أن

تجمعنا علاقة حب، لا أنكر أنني معجب بجمالها، من لا يمكنه ذلك، لكن إذا كنتم قد أدبتم عملكم جيدا فيمكنكم أن تعرفوا أن نادين لم تكن تحب شخصا سوى نفسها.

أضف بأسلوب استعراضي وسبابة مرفوعة: هذه الجرائم كلها ملفقة، تذكرنا كلامي جيدا.

تدخل محمود قائلا بصوت حرص على أن يكون ودودا وهادئا قدر الإمكان: هل تعتقد حقا أنها تهم ملفقة، لديك ما يدعم ذلك؟ قال هيثم: أنا لا أعرف أي شخص اسمه تينة ولم يسبق لي أن سمعت به في حياتي، ثم لماذا أقوم بإخفاء صندوق المجوهرات والجنّة في حديقة الفيلا، هل تظنان بي الغباء إلى هذا الحد؟

_ ما نظنه هو أنك كنت بانتظار الفرصة المناسبة لتقوم بنقل الجنّة والمجوهرات لتدفنها في فيلا سامح.

أطلق هيثم ضحك عصبية وهو يقول: كلام فارغ، هل هذا كل ما لديكم حقا؟ أنتم فعلا لا تملكون أي شيء ضدي.

نظر إليه كلاهما في دهشة، ثم قال شريف وقد استعاد هدوءه بعد البداية الحانقة: أنت من أوقعت نفسك بنفسك، يا سيد هيثم الكنج، أليس هذا هو اللقب الذي تستخدمه كعنوان لبريدك الإلكتروني.

قال هيثم دون أن يكثر: ما المشكلة في ذلك؟

_ المشكلة هي أن الشخص الذي اتفق مع رمضان تينة على تنفيذ جريمة قتل ابنة عمك كان يطلق على نفسه اسم الكنج.

كانت كذبة بيضاء، لكنها مع ذلك أصابت هيثم برعشة خفيفة، قال: وإن يكن، هل أنا الوحيد الذي يطلق على نفسه هذا اللقب.

قال شريف مجاريا الحديث بمزيج من الانفعال والسخرية: يا لمحاسن الصدف، الشخص الذي قام بالاتفاق على ارتكاب الجريمة يحمل نفس اللقب الذي تستخدمه.

قال هيثم وهو يشد على أسنانه: قلت لكما إن شخصًا يحاول الإيقاع بي، بالتأكيد سامح هو من فعلها، هو يعرف عنوان البريد الإلكتروني الخاص بي.

قال محمود: وهل يعرف سامح الرقم السري للولوج إلى بريدك الإلكتروني.

أخذ هيثم يفكر في الغرض من هذا السؤال، خانه ذكاؤه، قال مجيبًا: بالتأكيد لا.

قال محمود: حسنا، يمكنك أن تفسر لي إذا كيف قام البريد الإلكتروني الخاص بك بإرسال رسالة إلى البريد الإلكتروني الخاص بنادين يشير فيه إلى أن الخاتم الماسي الذي أهده سامح لسمية في عيد زواجهما قد أصبح معك وأنت ستقوم بمنحها إياه قريبًا جدًا.

قال هيثم محاولا التظاهر بالسخرية رغم شعوره بأن الأمر يسير على نحو خاطئ بالنسبة إليه: هذا أيضًا ملفق، أي شخص بإمكانه القيام بإنشاء بريد إلكتروني يحمل نفس الاسم.

قال شريف: لقد تحرينا عن هذا الأمر بالتأكيد، بالمناسبة لدينا في المعمل الجنائي قسم فتي يمكنه أن يهرك بقدراته، لقد انبهرت به أنا شخصيًا.

قال محمود مؤكدًا: الرسالة التي ذكرتها لك موجودة ضمن البريد الوارد لنادين، وهي مرسلة من بريدك الإلكتروني نفسه، وليس من بريد مزيف، هذا أمر نحن متأكدون منه ويمكننا إثباته في المحكمة، أمر يدعى عنوان ال IP في حال لم تكن قد سمعت عنه.

فكر هيثم قليلا بالأمر، ثم قال: يمكن أن يقوم أي شخص بسرقة كلمة السر وإرسال رسالة من البريد الإلكتروني الخاص بي، أو التسلسل إلى مكثبي واستخدام جهازي الشخصي.

اتكأ شريف بظهره على المقعد وأخذ ينظر إلى الأعلى وهو يزفر في عمق، قال محمود: أنت لا تدرك مدى جدية هذا الأمر، أليس كذلك؟ قال هيثم: ربما يمكنك أن تقوم بتوضيح الأمر لي إذاً. قال محمود: حسنا، لكن أولا سأخبرك بما نعتقد أنه حدث.

تقوم بالاتفاق مع رمضان تينة اللص المحترف على قتل سمية وسرقة مجوهراتها، بعد أن علمت أنها قامت بإحضار المجوهرات من البنك وتحفظ بها في غرفة نومها، من السهل أن تعرف أن سامح سيكون منشغلا في حفل أبي ربيع وأن البواب في إجازة، ومن السهل عليك معرفة مداخل الفيلا ومخارجها مثل نافذة القبو الصغيرة ومكان غرفة النوم، بعدها تلتقي مع رمضان في منزلك ويحصل بينكما خلاف، رمضان يرغب في الحصول على المجوهرات وأنت ترغب في الاحتفاظ بها لتوريط لسامح، فتقوم بقتله ثم تقوم بدفنه في حديقة الفيلا مع المجوهرات،

ثم تظهر نادين في الصورة، لا نعلم بعد على وجه اليقين مدى تورطها في الأمر، فهي تكره سمية ولكن هل يمكن أن يصل ذلك إلى حد التفكير في الانتقام؟ أم أنها مجرد ضحية تعيسة الحظ؟ المهم في الأمر هو أنك عرضت عليها الحصول على خاتم سمية ويبدو أنها قررت كشف أمرك ففكرت في التخلص منها هي أيضاً، قمت بالتخطيط للقاء بها في الفندق، تدس لها المورفين في شرايبها ثم تقوم بقطع شريان معصمها وتظهر الأمر على أنه انتحار، وتترك الرسالة التي تدين سامح، لكنك لست أكثر ذكاء من رمضان فقد أفسدت

الأمر أنت أيضاً، تمكنا بسهولة من معرفة أن الانتحار مزيف، وقمنا بفحص السموم للضحية لنجد آثار المورفين مضافة إلى الشراب، والأثر ذاته على الكأس التي شربتها نادين في حين أنك أخذت كأسك معك لكي لا تترك أثراً خلفك، خطة محكمة، لكنها فشلت مع ذلك. كان هيثم حريصاً على أن تبقى معالم وجهه ثابتة وساخرة، لكن وجهه خانه لا إرادياً عندما أخذ يتحول تدريجياً إلى اللون الأصفر الباهت، قال محمود متابعاً: لكننا سبقناك بخطوة لأول مرة، وها نحن ذا.

ظل هيثم صامتا لبرهة، تدخل شريف بصوت جاف: هل مازلت مصراً على الإنكار؟

فشل هيثم في الحفاظ على الثقة واللامبالاة في صوته، خرجت الكلمات مترددة وذاهلة: لن أجيب عن أي سؤال آخر إلا بحضور المحامي.

قال محمود متظاهراً بالدهشة: اعتقدت بأن غرورك سيمنعك من الاستعانة بشخص أقل منك درجة للدفاع عنك.

نظر هيثم إلى محمود، ثم عاد لينظر إلى سطح الطاولة وهو يكرر طلبه بحزم: لن أجيب عن أي سؤال آخر إلا بحضور المحامي.

هز محمود كتفيه في لامبالاة ونظر إلى شريف وقال: عملنا هنا قد انتهى إذًا.

وجه شريف إلى هيثم نظرة نارية، إلا أنه لم يتبعها بأي نوع من أنواع الوعيد الذي يتناسب معها، اكتفى بالقول: انتهى، لنر كيف بإمكانه إقناع النيابة بأنه غير مذنب.

عندما غادرا الغرفة كان هيثم لا زال يحدق في سطح الطاولة بحنق.

القسه الخامس

الأيام التي قضاها هيثم خلف القضبان استنفدت قواه الجسدية والمعنوية بسرعة فائقة.

بين جدران السجن، كان الوقت يمر عليه بطيئًا جدًّا، لطالما كان يشتكي من سرعة مرور الوقت، لكنه الآن أصبح يتمنى أن ينتهي كل شيء بلمحة بصر. ساعات النهار القصيرة كانت تطول كأنها أيام كاملة.

وفي الليل عذاب آخر، ظلام آخر يضاف إلى ظلمة الاحتجاز، ووحشان يتصارعان للنيل من آدميته، الأرق واليأس.

لم يعرف هيثم ما هو أقسى وأشد وطأة، الابتعاد عن حياة صاحبة مليئة بالملذات، لم يبق له فيها سوى سرير متهالك ومرحاض قدر، أو البقاء حبيسًا بين أربعة جدران حفظ جميع شقوقها وتجاعيدها في يومه الأول فقط. أم الجحيم الآخر الذي ينتظره والذي كان يبغضه أكثر من الجحيم الحقيقي نفسه، العيش مع مجموعة من حثالة المجتمع في مكان واحد.

فكر مليًا فيما قاله له محاميه بالأمس، هنا الكثير من الوقت يتاح للتفكير في كل شيء وأي شيء. قال له محاميه إن البراءة أمر مستحيل، لكنه متفائل جدًّا في أن يبعده عن حبل المشنقة، سجن مؤبد ومن الممكن يتم تخفيضه إلى خمس عشرة سنة ستكون صفقة رابحة. كاد هيثم أن يصيح في وجهه غاضبًا بأنه يفضل الإعدام على

السجن، لكنه لم يجد في نفسه القوة حتى ليتحدث، كان منهكا جداً، التعب الذي يسببه العقل أكثر تأثيراً على الجسد من أشد عمل بدني. سمع صوت المجند من وراء الباب الحديدي وهو يهيم بفتح باب الزنزانة: لديك زيارة.

راقب هيثم الباب وهو يفتح، ثم اقترب منه أحد المجندين اللذين كانا عند الباب ووضع الأصفاد في يده، حدجه بقرف، لم يتحدث إلا عندما أصبح في الممر، قال متسائلاً: هل هو المحامي؟

_ ليس محامياً، إنها امرأة.

_ امرأة؟

حاول هيثم أن يتذكر فيما إذا كانت أياً من شقيقاته الثلاث اللواتي قاطعن قد دبت في قلبها الرأفة فجأة وقررت زيارته، لكن هوية الزائرة المجهولة كانت مفاجأة له، لم تكن إحدى شقيقاته. فور أن رآها انتابه الغضب لرؤيتها لكنه تكلم من دون أن يرفع صوته: ما الذي جاء بك إلى هنا؟ الشماتة كانت أول ما خطر بباله.

أخذت المرأة نفساً عميقاً، ثم قالت: هناك شيء ظننت أنه ينبغي عليك أن تعرفه، لم أكن لأخبرك به أبداً لولا أنني أعلم الآن أنك لن تخرج من هذا المكان أبداً.

على الرغم من تظاهره باللامبالاة والثبات، إلا أن جسده ارتعش عندما ذكرته بمسكنه الجديد، استياؤه تغلب على غضبه.

قال بصوت واهن هذه المرة: ما الذي تريدينه؟ قوليه وانصرفي من هنا.

عندما عادت الظلمة من جديد، كان هيثم يستعد لحلاقة ذقنه التي نمت بسرعة جنونية، نظر إلى المرأة الصغيرة التي أصبحت نافذته الوحيدة ليطل منها على روحه البائسة، لكنه لم يضع الشفرة على وجهه، بقي جامدًا يتأمل وجهه في المرأة، تحول إلى تمثال، لم يدركم مضى عليه من الوقت وهو على هذه الحالة الساكنة. ساعة، ساعتان. من يدري، المهم أن الليل قد حل، فقد أطفئت الأنوار عن المكان.

أصبحت الظلمة نفسها وحشًا ثالثًا إلى جانب الأرق والأفكار اليائسة، لكنه وحش فتاك بقم كبير يقوم بابتلاعه تدريجيًا. انتهى كل شيء، لن يخرج من هنا أبدًا، إذا خرج فإنه سيخرج إلى مكان أسوأ.

لأن هذا ما سيكون عليه حاله من الآن فصاعدًا سيكون مدانا ومدينا، جاءه بلاغ في وقت سابق أن البنك سيسعى إلى الحجز على الفيلا، والآن الشركة التي حلم في كل ليلة أن تصبح ملكه، تبخرت. الظلمة تطبق على روحه رويدًا رويدًا، لم يبق له سوى الاستسلام. الأمر أشبه بسقوط في بئر عميق، تغوص إلى الأسفل رويدًا رويدًا وأنت تعلم أن الأمر سينتهي في أية لحظة، لكنك لا تعلم متى. لكن لحظة، الظلام لم يبتلعه تمامًا، وإلا فما تفسير بصيص الضوء الذي ظهر فجأة، لا زال هنالك أمل في هذا الجحيم. لقد عرف طريقة يمكنه فيها من الخروج من أعماق البئر.

كان محمود جالسًا خلف طاولة مكتبه وهو يحدق في ورقة موضوعة أمامه على الطاولة وفيها عدد من الملاحظات المكتوبة بخط اليد. والعديد من التشطيبات، القلم كان لا يزال بين أصابعه لكن دون أن يستخدمه، شعر بأنه سمع رجة، صوت نغمة خافتة، نظر إلى شاشة هاتفه، لكن الشاشة كانت مطفأة، خياله خدعه مجددًا.

لولا ذلك الإبهام المقطوع الذي عكس صفو الأحداث لكان من الممكن أن يجزم يقينًا بأن الأمر انتهى، أما الآن فعليهم الانتظار أكثر.

فقط القليل من الوقت بعد حتى يسدل الستار وسيحصل هاني الصغير على خاتمته، لكن متى سيحصل هو على خاتمته؟ عاد الأمر ليطرق باب أفكاره مرة أخرى، إذا كان هيثم كافيًا بالنسبة إلى الضحايا الثلاث، فهو بحاجة إلى القبض على السيف.

كل ما كان يراه أمامه في هذه اللحظة كان وجه فتون السيف ذات الستة عشر عامًا التي فارقت الحياة برصاصة طائشة، كانت تنظر إليه دون أن تزبح عينها عنه، دون أن ترمش ولو لمرة واحدة، عينها واسعتان وصافيتان، تشبهان عيني ابنته تمامًا، الابنة التي يتجنب النظر إلى وجهها.

قال أنور معلقًا من الطرف الآخر من الغرفة: يبدو أنك تنتظر مكالمة مهمة، هذه المرة الثالثة التي تنتظر فيها إلى هاتفك.

كان محمود ينتظر مكالمة من سليمان، زميله السابق في إدارة المخدرات، حاول الاتصال به مبكرًا هذا الصباح لكنه لم يتلقَ أية إجابة، ثم أرسل له رسالة نصية يخبره فيها بأنه يحمل أخبارًا جديدة، وسيقوم بالاتصال به خلال ساعة.

قال مغيرا الموضوع: إذا، نادين حضرت إلى حفل الزفاف بسيارة مستأجرة.

_ بالضبط، لهذا لم نعثر لسيارتها على أثر في التسجيلات، بما أن الوجوه لا يظهر منها الكثير، لقد أخذت رقم التسجيل للسيارة وعرفت مكتب تأجير السيارات الذي تعود ملكيتها إليه، ذهب حسن وحسني هذا الصباح إلى المكتب وقاما برؤية سجلات العملاء، نادين قامت باستئجار سيارة من نوع ميتسوبيشي لانسر في تلك الليلة وأعادتها في صباح اليوم التالي.

قال محمود: عمل جيد، بقي أن تقوم بمراقبة التسجيلات مجددًا لنتأكد فيما إذا كانت السيارة قد تحركت من مكانها.

_ هل لا تزال لديك شكوك حول نادين؟

_ ليس بالضرورة، لكن كلما وجدنا أدلة تبرئ الآخرين كلما أصبحنا أكثر قناعة بإدانة هيثم.

_ فكرة معقولة.

ثم لاح له أمر آخر، قال: يا ترى ماذا لو أن رمضان تينة ليس هو القاتل؟ وأنه بعد أن انكشف أمره قد حاول توريط هيثم، وقام بدفن جثة أخرى.

_ عندها سيكون قد استحق لقب أغبي قاتل على وجه الأرض، أو ربما يكون عاش حياته في كهف ولم يسمع من قبل عن شيء اسمه فحص الـ DNA .

كان أنور يواصل نثر الشكوك مثل حبات القمح. رفع رأسه عن الشاشة ونظر إلى محمود وقال: لكن ماذا لو كان يهدف إلى أمر آخر؟

هناك دائماً أمر آخر، لهذا نحاول البحث في المكان المناسب، وإلا ما الذي تظن أننا نفعله الآن.

رنة هاتف محمود لم تترك مجالاً لأنور ليضيف أي تعليقات أخرى، تناول محمود هاتفه بسرعة ونظر إلى هوية المتصل، أوقف شاشة العرض وحرص على أن يجيب على الهاتف بصوت منخفض حتى لا يسمعه أنور في الطرف الآخر من الغرفة: ما الجديد الذي وعدت بأن تخبرني به؟

_ هناك خبر واحد، لكني لا أعلم كيف ستكون ردة فعلك إزاءه.

كان محمود قادراً على أن يستشعر التردد في نبضة سليمان، سكت لحظات ليفكر لكن لم يخطر له أي شيء، سأل: ماهو؟ أنت بالتأكيد لم تتصل بي لتخبرني بأنكم لازلتُم لا تعرفون مكان السيف. قال سليمان: يمكنك أن تقول إننا عرفنا مكانه ولم نعرف. قال محمود بسرعة: ربما يمكنك أن تفسري هذه المعضلة.

كان سليمان يشعر بالحيرة، الأمر بالنسبة له أو لأي شخص آخر من العاملين في إدارة المخدرات سيكون عادياً جداً، لكن بالنسبة إلى الحالة التي تحول إليها محمود، حتى بعد أن ترك المخدرات والمحافضة كلها، فقد كان أمراً غريباً للغاية. قال: لدينا مصادر موثوقة بأن راضي السيف قد هرب إلى خارج البلاد.

_ ماذا تقول؟

النبذة عالية لفتت انتباه أنور الذي ألقى نظرة خاطفة على زميله قبل أن يعود لينظر إلى الشاشة التي أمامه.

_ يا أخي اهدأ قليلاً، ليس الأمر كأن هناك ثأراً تطالبه به، لقد تمكن راضي السيف من الحصول على أوراق مزورة وهرب إلى اليونان.

عاد صوت محمود هادئا، لكن الغضب كان لا يزال موجودا هناك:
ومن هو مصدرك الموثوق هذا؟

_ لن أستطيع الكشف عن أية أسماء يا محمود، بالإضافة إلى أننا
تأكدنا من صحة هذا الأمر.

خطر في بال محمود اسم واحد فقط، غضبه جعل من خياراته
قليلة، لذا حسم أمره بسرعة، قال منهيًا المكالمة: حسنا، شكراً لك.
ثم أغلق الخط قبل أن يتمكن من سماع ما سيقوله سليمان،
انسحب إلى أفكاره لفترة من الوقت، سأله أنور: هل الأمور على ما
يرام؟

أجاب محمود بطريقة آلية: كل شيء بخير.

ثم عاد ليفكر من جديد، لكن كل ما هناك هو أن وعاءً مملوءاً
بالغضب كان يسخن تدريجياً ليؤجج الفكرة التي خطرت له للتو،
كان الدافع قوياً جداً، قام من مقعده وهو يقول: علي أن أذهب إلى
مكان ما، وافني بالنتائج حال انتهائك من الأمر.

كان قراراً سريعاً آخر قد اتخذه، لم يكن يعجبه بالتأكيد، لكنه لم
يكن يمتلك السيطرة على نفسه، قرر أن يحاول مرة أخيرة.

عندما أصبح خلف المقود قام بإخراج هاتفه من جيبه وطلب رقم
حمدي القصير، بعد فترة من الصمت جاءه الصوت على الطرف
الأخر: الهاتف المتنقل المطلوب مفصول.

لم يكن يحب هذا الأمر، ولكن.

كان الدخان يملأ محيط الغرفة الصغيرة، وثلاثة رجال يضحكون بصوت عالٍ كأنهم لم يضحكوا في حياتهم من قبل، بدا أن هموم الدنيا كلها قد انتهت.

الشقة كانت تحتوي على غرفتين صغيرتين وصالة في طابق التسوية لإحدى العمارات القديمة جدًا، شقة متواضعة استأجرها حمدي القصير مع اثنين من أصدقائه ليتخذ منها عرينا لممارسة ملذاته، فقد أصبح هذا الأمر متعذرًا بوجود زوجة وأولاد. الرجل القصير الذي عمل في فترة من فترات شبابه مروجًا للمخدرات، قبل أن يصبح مرشدًا للشرطة ويدًا خفية تضرب بها خصومها.

كان أنبوب الـ"جوزة" يدور بين ثلاثهم في نظام متسق، من أفضل من حمدي القصير في الحصول على أفضل أنواع الحشيش غير المخلوط وبكمية تكفي لإشعال جوزة بسعة أربعة أحجار، ومن غيره أقدر على توفير بيئة آمنة للهلوسة مع ضمانة بعدم تدخل الشرطة.

رن جرس هاتف محمود في تلك اللحظة، ابتعد عن الباب قليلا ووضع مسدسه بيده اليسرى وأجاب على الهاتف بيده اليمنى.

_ محمود، أين أنت؟

_ أسيوط.

خرجت الكلمة من فمه بمنتهى البساطة، كأنه يذهب إلى هناك يوميًا،

أخافتها هذه النبوة لدرجة أنها شعرت بيدها الممسكة بالهاتف وهي ترتعش.

قالت برجاء: محمود، ليس مرة أخرى، يا الله، أشعر أنني في فيلم تتكرر مشاهدته.

قال: ماذا تعنين؟ لقد اتصل بي سليمان وأخبرني بأنهم بحاجة إليّ في أمر استشاري يتعلق بقضايا قديمة. كان يتحدث بصوت منخفض بالكاد كانت تسمعه.

_ قضايا قديمة؟

قال: بالتأكيد، سأخبرك بالأمر عندما أعود، لقد أرسلت لك رسالة قبل ساعات، لم تريها؟

_ لم أفعل، لقد كنت منشغلة.

كانت منال متأرجحة ما بين تصديقه أو تكذيبه، اختارت تكذيبه في نهاية المطاف، لكنها لم تكن تملك أن تفعل أي شيء.

قالت: متى ستعود؟ الوقت متأخر.

_ سأعود في الغد.

التهديد التي سمعها على الطرف الآخر من السماعة بثت في قلبه شعورا بالأسى،

قال مؤكداً: منال، إنها ليلة واحدة فقط، حدث الأمر فجأة، سأعود في الغد.

قالت بعد فترة: اعتنِ بنفسك جيداً.

عندما أنهت المكالمة كانت دموعها تسيل تلقائياً دون أن تستدعيها، فقد شغلها التفكير عن كل شيء،

ماضي زوجها لا زال يطارده، لكن إلى أين سيؤدي ذلك؟ لغاية الآن كان الأمر لا يتعدى بضعة رحلات مفاجئة إلى أسيوط، لكنها أصبحت تخشى حدوث الأسوأ.

بقيت طوال الليل تدعو أن يكون إحساسها خاطئاً.

في البداية، توجه محمود نحو محل الخردوات الذي يملكه حمدي القصير، لكنه لم يكن موجوداً هناك، توجه بعدها إلى منزله، لكن سيارته لم تكن تقف أمام المنزل، عندما وجد أن الساعة قد اقتربت من العاشرة، عرف محمود تماماً أين يجب أن يبحث عنه.

_ هذا النوع رديء هذه المرة.

قال القصير بغضب: لا تقل ذلك، أنا لا أحضر إلا أفضل الأنواع.

_ يا رجل مثلما أقول لك، هذا النوع رديء ويسبب الصداع، أشعر بطرقات تدوي في رأسي.

_ أنا أشعر بنفس الشيء.

ركز القصير قليلاً، ضاقت عيناه وكنتم أنفاسه، ثم قال معلقاً: أنا أشعر بنفس الشيء، لكن لا تقل إن الصنف رديء، نحن الذين أصبحنا أدمغتنا رديئة.

ازدادت الطرقات عنفاً، ثم تبعها صوت نداء عالٍ بدا قادماً من مكان بعيد: افتح الباب يا قصير.

قال أحد الثلاثة مقترحاً: الصوت قادم من الخارج.

أصاخ حمدي السمع، ثم قال ساخراً: الصوت قادم من الباب أيها الأغبياء.

دخلوا في جدال حاد لعدة دقائق أخرى، قبل أن يتبرع أحد الرجلين ويقوم ليفتح الباب وهو يتلمس طريقه مثل شخص أعمى.

في الدقائق العشر التالية، كان الرجلان مستلقيين على وجهيهما، أحدهما غائب عن الوعي تمامًا، والآخر بقيت تصدر عنه أنات متقطعة، حمدي القصير كان يلهث بشدة من جراء الصدمة التي تعرض لها جهازه العصبي نتيجة لقنينة الماء الباردة التي انسكبت على وجهه، أما الدخان الذي كان يملأ المكان فقد بدأ يتلاشى شيئاً فشيئاً، والجوزة كانت أجزاءها متناثرة على الأرض.

بدأ القصير يعود إلى الواقع تدريجياً، النظرة الذاهلة والساهمة تحولت إلى خوف وذعر شديدين، كانت فوهة السلاح مصوبة إلى وجهه، لقد بدأ يدرك أخيراً أن الموت أصبح قريباً جداً، لقد عاد إلى الواقع. سمع صوت بوق سيارة في الخارج.

لم يكن من الصعب على محمود أن يدرك أن القصير قد استيقظ من سباته الذي لم يدم سوى لدقائق، قال بلهجة ساخرة: لا تعلم إلى أي درجة أشعر بالحنين لمثل هذه الأوقات.

بقي القصير ينظر في وجه نذير الموت لثوان، ثم نظر إلى وجه محدثه لثوان أخرى.

_ محمود باشا؟

معرفة هوية محدثه لم تخفف من مقدار خوفه.

قال محمود: عذرا لأنني اقتحمت حفلتك الصغيرة بدون سابق دعوة. قال القصير متلعثماً: لا، لا بأس يا سيدي، أنا أتشرف بحضورك في أي وقت.

أشار إلى الرجلين المرميين على الأرض وهو يقول: أعتذر أيضًا لما حصل مع صديقيك، لكنني شعرت بأني بحاجة إلى ضرب شخص ما. ازدرد القصير لعابه وعاد لينظر إلى فوهة المسدس من جديد بعد أن نجح في إبعاد عينيه عنها لدقيقة، ثم قال بصوت ضعيف: لماذا يا سيدي؟ هل أسأت لك بأي شكل؟

ثم قال وهو يظهر ثقة زائفة بالنفس: هل لك أن تبعد هذا المسدس عن وجهي حتى نتمكن من التحدث.

العبارة الأخيرة أدت إلى نتائج عكسية لم يكن القصير يقصدها على الإطلاق، عينا محمود لمعتا بوميض مخيف، قال بصوت أشبه بحفيف أفعى تستعد للنيل من فريستها: هذا المسدس لن يذهب إلى أي مكان، والحركة التالية التي ستحدث له هي بإحداث فجوة في وجهك بحيث يتعذر على زوجتك وأولادك أن يتعرفوا عليك.

تراجع القصير إلى الخلف قليلا، أخذ عدة أنفاس عميقة دون أن يتأثر برائحة العفونة والدخان اللتين ملأتا أرجاء الغرفة، لكن نقص الأكسجين لم يكن أكبر مشاكله، قال: ما الذي تريده مني يا سيدي؟ كان واضحًا على ملامحه أنه يعرف مسبقًا ما الذي يريد، كانت محاولة بائسة لكسب الوقت، قام محمود بمجاراته، قال: أين يختبئ راضي السيف؟

_ لا أصدق، ليس الموضوع ذاته.

من جديد لم يكن أداؤه مقنعًا. قال محمود وهو يبتسم بسخرية: بلى، الموضوع ذاته.

فكر القصير قليلا بمدى حرج موقفه، كان يحاول أن يقيم فيما إذا كان محمود سيطلق عليه الرصاص فعلا أو أنه يحاول إخافته فقط.

لكن تلك النظرة الشيطانية لم تكن تساعد. فالبنبرة حاول بها استمالة محدثه: يا سيدي، أنا لا أعلم مكان السياف، أقسم لك إني لا أعلم، لقد أخبرتك قبل ذلك وأخبرك الآن مجددًا.
_ لا أصدقك.

_ يجب عليك أن تصدقني، أنا أقول الحقيقة، أرجوك يا سيدي، لماذا أكذب عليك؟

قال محمود: هذا هو السؤال الذي سألته لنفسه كثيرًا، لماذا تكذب علي؟

ثم صرخ في وجهه فجأة: لماذا تكذب علي؟

الصرخة المفاجئة سببت للقصير نوعًا من الصدمة المؤقتة، شلت حركته تمامًا لوقت قصير، ثم قال بصوت ضعيف فيه الكثير من الرجاء: أنا لا أكذب عليك، أقسم بأنني لا أكذب.

قرب محمود المسدس أكثر حتى أصبح ملاصقًا لصدغه وهو يقول: أتعلم؟ لهذا السبب بالذات اخترت أن أحضر معي مسدس سميث آند ويلسون عيار ٣٨، هذا السلاح له أهمية خاصة لدي، لم يسبق لي أن استخدمته من قبل، لكن كان لدي شعور بأن الليلة لن تنسى، فقد كنت أحفظه لمقابلة خاصة.

قال القصير وهو يتراجع إلى الخلف أكثر إلى أن التصق ظهره بالحائط: أنا لست نكرة، أنا شخص قيّم بالنسبة إلى رؤسائك السابقين، إذا قتلتي فإنك ستخسر وظيفتك وهيبتك وستذهب إلى السجن.

نبرته لم تكن لتشكل أي قلق أو تحدٍ، فقد قال عبارته الأخيرة وأطرافه ترتعش.

قرب محمود فوهة المسدس من وجه القصير الذي لم يعد لديه أي مساحة للتراجع، وقال: لنرَ كيف سيكون مظهرك عندما تنتشر أشلاء دماغك الصغير على الحائط.

التصقت فوهة المسدس بجمجمة القصير الذي أخذ يقول بصوت متحشرج: انتظريا سيدي، أرجوك، ماذا ستفعل؟
قال محمود مقاطعاً: سأعد إلى ثلاثة، ثلاث عدات هي كل ما تبقى لك للنجاة أو الموت، ولك أن تختار.
_أختار؟

_تختار، أن تستمر في الحياة، أو أن تموت، كثيرون لم يحظوا بهذا الخيار.

قال القصير: انتظر انتظر قليلا، أعطني مهلة، بضعة أيام فقط، سوف أقوم بإيجاده.
_ واحد.

ظهرت عدة قطرات من العرق على جبينه من العدم، سألت إحداها لتصل إلى ذقنه كأنها تحاول الهرب، قال في محاولة يائسة أخرى: إذا قتلتني فلن تعرف مكانه أبداً، أنا الوحيد الذي بإمكانني مساعدتك على إيجاده. لكنه لم يكن يملك الثقة الكافية لينجح في استخدام استراتيجيته الجديدة.

_ اثنان...

استنفد القصير كل خياراته القليلة للمماطلة، لم يبقَ له سوى التوسل، أخذ يستحلف محمود بالأطلاق الرصاص، تحولت توسلاته إلى الاستجداء في لمح البصر، أدار وجهه إلى الناحية الأخرى متجنباً النظر في وجه الموت ودموعه تنزل بغزارة، كان بنطاله مبتلا.

إنها العدة التي تتكشف فيها لحظة الصدق، هذا ما كان يفكر فيه محمود في تلك اللحظة، الوقت الذي يعرف فيه المرء أن الموت أصبح قريبًا إلى درجة أن الاستمرار في الكذب قد أصبح أمرًا عبثيًا، ما جدوى حماية مجرم فار إذا كان الثمن هو روحه؟
_ ثلاثة.

قالها ثم ضغط على الزناد دون أن يتردد.

لم يدر محمود إلى أين يجب أن يذهب، فقد توقفت القشرة المخية عن إعطاء الأوامر، ركب سيارته وراح يدور بها في أحياء مدينة أسبوط المعتمة دون هدى.

في فترة من الفترات شعر بالتعب، أوقف سيارته على جانب الطريق تحت عمود إنارة تالف، أطفأ أنوار السيارة، ثم دخل في نوبة غضب مفاجئة، أخذ يضرب المقود بكلتا يديه وهو يصرخ، أراد أن يظهر لنفسه بأن غضبه نابع عن فشله في القبض على السيف، لكنه في حقيقة الأمر كان نابعًا عن شعوره بالذنب.

انقضت نوبته سريعًا، لكن الشعور المؤلم لم ينقض بعد، وجد راحته أخيرا في الاسترخاء، أخذ يتنفس بعمق وهدوء، لكنه لم يغمض عينيه، بقيتا مفتوحتين على اتساعهما، تنظران إلى الفراغ. التفت إلى جانبه فجأة، كان مسدس الطاحونة موضوعًا على الكرسي بجانبه.

تناول محمود المسدس وأخذ يتلمسه بيده الأخرى، ثم خطر له خاطر أشعل كل حواسه من جديد، قام بفتح المسدس وضرب مخزن

الذخيرة بيده على طريقة الروليت الروسي، أخذ العجل يدور، بقي محمود ينتظره إلى أن توقف عن الحركة، ثم أغلق المسدس من جديد، ووضعه على صدغه الأيمن، لكنه غير رأيه بعد قليل ونقل الفوهة إلى داخل فمه، ثم أخذ يضغط على الزناد.

عدد قليل من السيارات مر بجانب سيارته، جميعها تركت أثرا هادئا لمروها السريع، على الرصيف المحاذي له اقترب شابان يترنحان في مشيئهما، توقف أحدهما بالقرب من سيارة محمود ولكز صاحبه، لم يفهم الآخر، أشار له إلى السيارة، تجادلا لدقيقة، ثم اقتريا أكثر من مقعد الراكب الأمامي. تقدم أحدهما وأخذ يطرق على باب السيارة كأنه يطرق على باب منزل.

قال صاحبه: يا رجل، لا يوجد أحد بالداخل.

رد عليه بإصرار: بلى، هناك شخص خلف المقود.

كان صاحبه في حالة سكر شديدة بحيث لم يقوَ على مجادلته في أهمية أن يعرفا ما إذا كان هنالك شخص بداخل السيارة أم لا.

أحنى الشاب ظهره وركز النظر من خلف الزجاج، بقي على حالته هذه لفترة ليست بالقصيرة، قبل أن يدرك ما الذي كان يراه، تراجع إلى الخلف في فزع بحيث سقط على ظهره فوق الرصيف، ثم قام مسرعاً وأخذ يجري مبتعداً، لم يفهم صديقه ما الذي يجري بالضبط، لكنه جرى خلف صاحبه وعلى وجهه علامات ذعر شديد، اختفيا عند ناصية الشارع.

كان محمود يضحك بشدة، ويده التي تمسك بالمسدس لازالت ممدودة باتجاه نافذة السيارة، ثم قال بصوت عالٍ دون أن يكف

عن الضحك: هذا المسدس لم يذق طعم الرصاص منذ مائة سنة
أيها الأوغاد.

ثم فتح غطاء التابلوه وأخرج صندوقاً أسود اللون، وضع المسدس
الفارغ من الرصاص بداخله، ثم أعاد الصندوق إلى داخل التابلوه،
المسدس الذي أهدها إياه والده بعد أن تخرج من كلية الشرطة، لا
زال يذكر الامتعاظ الذي كان بادياً على وجه والده وهو يناوله
الصندوق، كان خائب الأمل لأن ولده اختار طريقاً مختلفاً عن
الطريق التي رسمها له، شتان ما بين الانضمام إلى الشرطة
والانضمام إلى السلك القضائي على حد قوله، لكنه كان مضطراً
لذلك وإن لم يكن هنالك أي سبب محدد، لقد نقل له والده هذا
المسدس ويجب أن ينقله إلى أحد أبنائه، صحيح أن ولده الأصغر
خيب ظنه، لكن بدرجة أقل بكثير من شقيقه المهاجرين. فهو ابنه
الوحيد الذي لم يُلذ بالفرار إلى خارج البلاد، لم تكن هنالك أية
حكاية مميزة وراء المسدس عدا أنه كان مملوكاً لأحد أجداده الذي
كان جندياً، حينما وقع المسدس في يد أحد أولاده، وحتى يوفر على
نفسه عناء إجابة أسئلة لا يعرف إجابتها فقد أخبر ابنه بأن
المسدس يعود لجده وبأنه سيعيده له، وقام بإخفائه في تابلوه
السيارة ونسي أمره حتى الليلة.

ارتسمت على ثغره ابتسامة قصيرة المدى وهو يعيد الصندوق إلى
مكانه، قال لنفسه: ليس الحشاشون فقط، السكارى أيضاً يفرون
من وجه الموت، ما الذي تحاولون إثباته إذًا.

صوت المؤذن لصلاة الفجر أعاد إلى نفسه السكينة والاطمئنان
الذين غابا عنه طيلة هذه الليلة، قام بتشغيل محرك السيارة
وأخذ يسير ببطء وهو يتلفت حوله حتى وصل إلى أقرب مسجد،
ركن سيارته ودلف إلى الداخل.

لم ينم محمود أكثر من ثلاث ساعات، عند الثانية عشرة والنصف ظهراً، كان قد استيقظ تماماً.

هاتفه موضوع بجانبه على المنضدة، كان الهاتف لا زال مغلقاً منذ البارحة، لكنه الآن مشحون بالكامل، ألقى نظرة على منال والصغيرة اللتين كانتا نائمتين بجانبه، قال محدثاً نفسه بأن هذا أفضل شيء يمكن أن يتمناه أي إنسان في العالم. ثم تذكر الطفلين، فقال مضيئاً: صحيح، والثنائي المشاغب كذلك، لم لا؟ تردد فيما إذا كان عليه إيقاظ منال أم لا، تذكر أنها بقيت ساهرة إلى وقت متأخر مساء أمس، بسببه، مجدداً.

تناول هاتفه وخرج إلى الصالة، ثم قام بتشغيله ووضعها على الأريكة. قام بأخذ حمام وارتداء ملابسه بوقت قياسي، تناول بقايا طعام البارحة التي كانت موضوعة في الثلاجة دون تسخين، لم يكن يواجه الكثير من المشاكل مع الأرز البارد.

تنبه إلى صوت رنين هاتفه من الصالة، حمل طبق البرياني وسار إلى الصالة مخالفاً تعليمات زوجته الصارمة، جلس على الأريكة ووضع الطبق على رجله ثم رد على مكالمة أنور الذي قال بصوت منفعل: أين أنت يا رجل؟ أنا أحاول الاتصال بك منذ البارحة. قال محمود وهو يمضغ طعامه: عذراً، بطارية الهاتف كانت بحاجة إلى شحن.

_ ليس الوقت المناسب إطلاقاً لتبقي هاتفك مقفلاً وتتغيب عن الحضور.

_ لم أكن أنوي التغيب عن الحضور، كنت أشعر بألم في معدتي البارحة وتأخرت في النوم.

ثم نظر إلى الطبق الذي أمامه وهو يقول: يبدو أنني قد تناولت طعاماً فاسداً.

خرجت العبارة منه بصورة تلقائية. إلا أن أنور لم يكن مهتماً بهذا الأمر، حتى أنه نسي أن يطمئن على صحته، قال بسرعة: هل ستحضر أم لا؟

قال محمود وهو يضع لقمة أخرى في فمه: بالتأكيد، سأكون في القسم خلال أقل من ساعة.

لم يتمكن أنور من الانتظار أكثر ليلقي بما في جعبته، قال بسرعة: هيثم شهاب انتحرفي السجن.

شعر محمود بغصة في حلقه، أزاح طبقه جانباً وهو يوجه اللكمات إلى صدره حتى تمكن أخيراً من ابتلاع اللقمة التي علقت في الطريق، ثم بحث عن هاتفه الذي سقط على الأرض، وأعادته إلى أذنه مجدداً، صوت أنور على الطرف الآخر كان أقرب إلى الصراخ.

_ محمود، أين ذهبت يا رجل؟

قال محمود: لازلت معك على الخط.

لم ينتظر استجابة أنور، قال متابعاً: تقول إن هيثم قد انتحرف؟

قال أنور: لقد وجدته الحراس ميتاً في زنزانته هذا الصباح، الشفرة التي صرفوها له لحلاقة ذقنه، استخدمها لقطع الشريان الوريدي

لمعصمه، يبدو أنه بقي ينزف طوال الليل، شريف توجه إلى السجن في وقت مبكر.

فكر محمود في أنها نفس الطريقة التي ماتت بها نادين، قال وهو بهم بأن يغلق الخط: سأوافيه إلى هناك فورًا. _ انتظر، هناك أمر آخر.

أعاد محمود الهاتف إلى أذنه وهو يتناول مفاتيح سيارته ويتجه صوب باب الشقة: ما هو؟ ثم تذكر، قال وهو يمسد جبهته: أه، التسجيل.

_ سيارة الميتسوبيشي المستأجرة التي نعتقد أن نادين قد جاءت بها إلى الحفل، لقد أعدت رؤية التسجيلات هذا الصباح وركزت على الوقت الذي طلبته، وعلى السيارة التي حضرت بها نادين. قال محمود ليستحثه على الانتهاء بسرعة وهو يقوم بفتح باب المنزل: حسنا؟

قال أنور: السيارة قد غادرت القصر في وقت ما في منتصف الحفل، ثم عادت من جديد قبل نهاية الحفل بدقائق. ضاقت عيننا محمود وهو يفكر فيما قاله أنور للتو، ثم قال: ماذا عن الأوقات؟

قال أنور وهو يقوم بالنظر إلى ورقة صغيرة كتب عليها عدة أرقام: بحسب التوقيت الموجود في الفيديو، السيارة دخلت إلى القصر في التاسعة وثلاث عشرة دقيقة، ثم غادرت القصر في الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق، وعادت مجددًا في الواحدة وأربعين دقيقة، أي قبل انتهاء الحفل بعشرين دقيقة، ثم غادرت مجددًا في الثانية والرابع.

لم يشعر محمود بنفسه وهو يدخل إلى المصعد ويقوم بضغط الزر المؤدي إلى الطابق الأرضي، كان غارقاً في دوامة، قال أنور ليزيد من حيرته: هل تظن أن هذا يعني شيئاً؟

_ لا أعلم حقاً، أنا متفاجئ بقدرك، هل نحن متأكدون من أن نادين كانت تقود السيارة؟

_ للأسف، الصورة لا تظهر الوجوه بشكل واضح، كما قلت تماماً، يمكن رؤية الأجزاء السفلية من الوجه فقط، وهي من تلك المسافة وتحت الإضاءة القليلة غير كافية لتحديد الأشخاص بدقة، لكنني أعتقد أن التي كانت تقود السيارة عندما عبرت البوابة في المرة الأولى هي نادين، ولكن في المرة الثانية لا يمكنني الجزم، فقد كانت ترتدي قبعة، كان في السيارة شخص واحد فقط، مقعد الركاب كان خالياً في كل المرات.

وجد محمود نفسه خارج الشقة، أخذ يتلفت باحثاً عن سيارته وهو يقول: وسأتصل بشريف الآن، أريد منك في هذه الأثناء أن تقوم بإرسال صور السيارة في كلتا المرتين اللتين تحركت فيهما من بوابة القصر.

_ حسناً، سأقوم بذلك الآن، بعدها سأغادر إلى مصلحة الطب الشرعي.

قال محمود وهو يقوم بتشغيل السيارة: لماذا أنت ذاهب إلى هناك؟ قال أنور: يفترض أن تكون نتيجة DNA للجنة التي وجدت في الحديقة جاهزة اليوم، ولكن شريف ومحسن غير قادرين على الانتظار إلى أن يتم إرسال التقرير، لا زالا يشعران بالقلق من أن تكون النتيجة سلبية ونقع في مطب آخر.

قال محمود معلماً: من لا يشعر بالقلق لذلك؟ أبلغني إن استجد أي شيء.

_ انتظر، أين ذهبت البارحة فجأة....

أنهى محمود المكالمة قبل أن يكمل أنور عبارته، ثم انطلق بالسيارة.

الهاتف الجوال أطلق نغمتين سريعتين، عرف محمود أنه قد تلقى رسالة للتو.

استغل وقوفه على الإشارة الحمراء التالية ليتفقد الهاتف، رسالتان على خدمة الواتس آب التي نادرا ما يستخدمها، كانت هناك صورتان أرسلهما أنور.

قام محمود بفتح الصورة الأولى ونظر إليها، ظهر فيها سقف السيارة والزجاج الأمامي، المقعد الذي بجانب السائق كان فارغاً، في مقعد السائق كان هنالك شكل آدمي غير محدد الملامح، توجه الوجه نحو الأمام بشكل مستقيم صعب أكثر عملية تحديد ملامحه، لكن الجزء السفلي من الوجه والتقاسيم النحيفة للذقن كانت عائدة لامرأة بالتأكيد، قام بتكبير الصورة أكثر، معالم الصورة أصبحت أقل نقاءً، كانت هنالك خصلات نازلة لتغطي جزءاً من الجبين الأيمن، لم يكن لون الشعر ظاهراً لكنه كان يوحي بأنه لون مميز. حسم محمود أمره، فقد كانت هذه نادين بالتأكيد. لم يسعه الوقت ليفتح الصورة الثانية عندما أعلن الضوء الأخضر عن السماح بالمرور، انطلقت أسراب السيارات في سرعات متفاوتة.

عند الإشارة التالية قام بتخفيف السرعة، كانت الإشارة الخضراء تومض ليتبعها الضوء الأصفر تحذيرا لما هو قادم، تجاوزته ثلاث سيارات على المسرب المجاور لقطع الإشارة قبل أن تصبح حمراء، قرار محمود بأن يتوقف على الإشارة أثار غضب السيارة التي خلفه فأطلق العنان لبوق سيارته لكن محمود لم يزد من سرعة سيارته، وقف خلفه السائق الغاضب وهو يلعن في سره السائقين الذين يتسمون بالجبن لدرجة أنهم يستعدون للوقوف عند الضوء الأصفر. لم تكن القيادة الموافقة لحرفية القانون من العادات الشائعة لدى محمود، إلا أنه تعمد الوقوف على الإشارة الحمراء ليتمكن من رؤية الصورة الثانية.

مقعد الراكب كان خاليًا مثل المرة الأولى، لكن هذه المرة لم تكن هنالك خصلة شعر تغطي الجبين الأيمن، كانت نادين ترتدي قبعة تغطي الجزء الأكبر من وجهها، هذا كان واضحًا، فالناظر للوهلة الأولى يشعر بأنه يشاهد قبعة دون وجه، أول فكرة طرأت على ذهنه، أنها تعرف مكان وجود الكاميرا وتعمدت إخفاء وجهها، لكن بقي تحديد أمر آخر أكثر أهمية.

ما ظهر من ملابسها كان مختلفا عنه في المرة الأولى، ترتدي جاكيت أوسع ولونه مختلف..

لفتت القبعة انتباهه من جديد، كانت تفرض نفسها بوضوح في الصورة. قام بتكبير الصورة فوق القبعة حتى بدت أشبه بكتلة متكسرة، كان هنالك كتابة أو رسم من نوع ما فوق القبعة، ركز نظره أكثر.

سائق السيارة التي خلف محمود اشتعل غضبًا، وأطلق العنان لبوق سيارته مرة أخرى، بوتيرة أعلى هذه المرة، انتقلت حمى التزمير إلى السيارات التي في الخلف فانطلق زئيرها المزعج في وحشية، الضوء الأخضر قد حضر، لكن السيارة الأولى في المسرب لم تتحرك بعد.

جلس أحد حراس السجن بالزي الرسمي في غرفة صغيرة الحجم بباب واحد وبلا نوافذ، أثاث الغرفة كان عبارة عن مكتب صغير عليه جهاز كمبيوتر وأمامه كرسي، وطاولة وضع عليها دفتر من الحجم الكبير، وخزانة من أربعة أدراج جميعها محشوة بالملفات الورقية، كانت الغرفة تفصل ما بين منطقة الزوار وما بين أماكن الزنانات. من الباب المفتوح، دخل مأمور السجن بقامته القصيرة وشواربه الضخمة وجسده الممتلئ بالدهون، خلفه ضابط المباحث القادم لأجل السجن الميت. وقف المجند احترامًا لرئيسه الذي قال بلهجة أمرة: الضابط شريف من المباحث الجنائية يرغب في الاطلاع على سجل الأشخاص الذين قاموا بزيارة السجن الذي قتل نفسه داخل الزنانة.

_ حالا يا سيدي.

قال ثم جلس على كرسيه بسرعة وأخذ يضرب على لوحة المفاتيح كأنه يسابق الزمن، ثم قال: هل تريد القائمة كلها يا باشا منذ حضوره إلى السجن.

قال مأمور السجن: هل القائمة طويلة؟

أخذ الشرطي ينظر إلى الأسماء الموجودة أمامه ومواعيد الزيارات التي حضروا بها، ثم قال: هنالك اسمان فقط، أحدهما هو محامي السجن وقد حضر لزيارته لعدة مرات، وهناك اسم آخر قام بزيارته البارحة فقط.

قال شريف متسانلا: هل هو أحد أقاربه؟

قال الشرطي: لا أعلم يا سيدي فيما إذا كانت من أقاربه أم لا.

_ هل هي امرأة؟

_ نعم يا سيدي، كانت الشخص الوحيد الذي زاره بالأمس، وقضت

معه عشر دقائق قبل أن تسجل خروجها، اسمها نهلة فهيم.

_ نهلة فهيم؟

كانت الدهشة بادية على وجه شريف، مما دفع بمأمور السجن إلى

سؤاله بفضول: هل تعرف هذه المرأة؟

قال شريف: قريبة أحد الضحايا، بالأحرى شقيقة زوج الضحية

الأولى له، أتساءل ما الذي كانت تفعله هنا؟

قال المأمور وقد أدرك السبب: الشماتة يا حضرة الضابط، رغبة

عارمة تتمكن من بعض البشر.

قال شريف وهو يحك ذقنه: ربما، قد تكون أثرت فيه إلى الدرجة التي

دفعته إلى الانتحار.

قال المأمور وهو يحك ذقنه هو الآخر: معقول، معقول جدًا.

_ لقد عملت لنا معروفًا وأراحتنا بذلك من عناء المحكمة.

ثم قهقهه الرجلان الأعلى رتبة، الأمر الذي دفع الشرطي الذي يجلس

خلف الكمبيوتر إلى مشاركتها الضحك مرغمًا. ثم قال شريف

موجهًا كلامه للشرطي: أعطني نسخة من الأسماء والمواعيد.

ثم موجهًا كلامه إلى المأمور: لا أجد شيئًا يستدعي التحري بشأنه على

أية حال، الرجل قام بتعجيل ميعاد موته فقط.

_ هل كل شيء على ما يرام؟

كانت المعلمة العزباء ذات الثلاثين سنة تتمتع بقدر كبير من الاستكانة والهدوء، لكنها فتاة طيبة جدًا، وليس بإمكان وجهها أن يخفي الكثير مما يمكن أن يعتمل في داخلها من مشاعر، فإن نظرة واحدة إلى الشحوب الذي اعتلى وجهها كان كافيًا لتدرك نهلة بأن هنالك شيئًا ما، لكن شيئًا ما كانت تحمل العديد من الاحتمالات في حالة هذه الفتاة، من موت شخص قريب إلى قيام إحدى الطالبات بإلقاء شتيمة غير مسموح بها، كان الشحوب نفسه.

قالت نهلة: الطالبات دخلن إلى الصفوف بعد الاستراحة؟

قالت الفتاة مستدركة: نعم، دخلن يا سيدتي، لا توجد أية مشكلات.

قالت نهلة بنفاد صبر: ماذا هناك إذًا؟ تكلمي.

_ ضابط مباحث يرغب في رؤيتك.

أسلوب الفتاة البطيء دفع بنهلة إلى الوقوف في مكان وسط بين القلق واللامبالاة، قالت: تعين والد إحدى الطالبات يعمل بالمباحث ويسأل

عن مديرة المدرسة؟

قالت الفتاة: لا يا سيدتي، يسأل عنك تحديدًا بالاسم.

ثم قربت رأسها أكثر وقالت بلهجة من يقرر أمرًا في غاية الخطورة: لا أظن أنه والد إحدى الطالبات.

سألت نهلة: أين هو الآن؟

_ يقف في الممر.

فالت بسرعة: دعيه يدخل حالا.

أسرعت الفتاة إلى الخارج، بعد لحظات كان محمود يخطو إلى الداخل لتواجهه بنظرة حيرة شديدة، لكنها رحبت به.

_ أهلا حضرة المحقق.

قال: أعتذر عن حضوري هكذا إلى مكان عملك دون موعد مسبق، لكن الأمر لا يحتمل التأجيل.

قالت وعلى وجهها ابتسامة متوترة: لا مشكلة يا حضرة المحقق. أتمنى أن يكون كل شيء على ما يرام.

كان من المبكر جدًا على نهلة أن تحدد ما إذا كانت الدقائق التالية ستمر بسهولة أو بصعوبة، لكن محمود كان صريحًا وواضحًا جدا.

قال: هيثم شهاب، قتل نفسه في السجن ليلة أمس.

أصيب وجهها بالجمود لعدة لحظات، قالت بعدها: مستحيل.

قال وهو ينظر إلى عينيها مباشرة: لماذا مستحيل؟ تبدين جازمة.

شعرت ببعض الارتباك من تلك النظرة الموجهة، لكنها تمالكت نفسها بسرعة، قالت بصوت عادي: لا شيء، تفاجأت فقط.

فكرت بمدى تسرعها في إظهار مشاعرها أمام عينيها تتفحصان ردود أفعالها بعناية، تنازعتها الأفكار، هل تخفي عنه ما حدث البارحة أم

تقوم بإخباره ببساطة؟ كان من المحتمل جدًا أن يأخذ انطباعًا خاطئًا، لكنها سرعان ما حسمت أمرها، فالشرطة ستعرف بالأمر

عاجلا أو آجلا، لكنها كانت ماهرة كفاية لتبقي على صوتها عاديًا: لم أظن أبدًا أنه سوف يفعل ذلك، لقد زرته البارحة في السجن.

تأمل محمود وجهها مليًا كأنه يشاهده لأول مرة. لم يكن قد علم بأمر الزيارة بعد، لكنه استوعب الأمر بسرعة، قال متسائلًا: لماذا فعلت

ذلك؟

الاستغراب الذي ظهر عليه أشعرها ببعض الارتياح ومنحها مساحة أكبر، لقد سمع الأمر منها لأول مرة وبالتالي لن تظهر بلباس المذنبية.

قالت: أردت فقط أن أنظر إليه وهو داخل السجن، ولأعلم لماذا قام
بقتل سمية وجعل هاني يتيمًا.

قال: وما الذي دار بينكما من حديث؟

أخذت برهة لتفكر فيما إذا كان بالإمكان اكتشاف الأمر، ثم قالت: لم
نتحدث بشيء، لقد رفض أن يتحدث معي.

كان عقله يعمل بأقصى طاقته لتحليل الموقف، دفع جسده إلى
الأمام حتى اتكأ بذراعه اليمنى على طاولة المكتب وقال: سيدتي، ما
الذي قلته لهيثم ودفعه إلى الانتحار.

فاجأها السؤال، كان يفكر بوتيرة أسرع منها إذ لم تتح لها الفرصة
لتفكر في الأمر على هذا الوجه، قالت: أنا لم أقل له أي شيء يدفعه
إلى الانتحار.

_ أشك في هذا كثيرا، لكنني سأمنحك الفرصة لتخبريني بكل شيء.

وجهت له نظرة ساهمة، قال وهو يعود بظهره إلى الخلف من جديد:
صدقيني، أنا أعرف الكثير من الأشياء، وأعرف أنك تعرفين الكثير
أيضًا، لم يكن من الصعب أن أعرف أن هنالك ما تخفينه، لكن الأمر
سينتهي اليوم.

فكرت قليلا، ثم قالت: كل ما قلته له، إن ما فعله قد تسبب بالدمار
لأخي وابنه، وأن هذه الشركة التافهة التي يسعى لامتلاكها لا تساوي
إزهاق أرواح بريئة، وأن سامح قد قام بتصفيتها وبيع كل أصولها
وسيسافر إلى أميركا.

قال محمود وقد بدأ يفهم الأمر: لقد كنت قاسية معه بعض الشيء.

_ لم أتوقع أن يصل به الأمر إلى هذا الحد.

توقفت عن الحديث، وسادت فترة من الهدوء، سألتها محمود: تحبين الفتى كثيرا.

قالت بدون تفكير: مثل بناتي وربما أكثر.

قال: إلى أي مدى يمكنك الذهاب حتى يصبح الطفل لك وحدك؟ نظرت إليه في فزع بعد أن فهمت ما يرمي إليه، أدركت أن الرجل الذي أمامها على وداعته وحسن سلوكه ليس سهلا على الإطلاق. قالت وهي تزدد لعابها: لا أفهم ما الذي تعنيه.

_ أنا لا أصدق أن هذا هو السبب الوحيد لذهابك لرؤيته، لتخبريه أن سامح قد تخلص من الشركة، على الرغم من أن هذا يمكن أن يكون ما قد تسبب بقتله، حتى أنني أصبحت أشك فيما إذا كنت قد توقعت أن تصلي إلى هذه النتيجة.

_ بالتأكيد لا يا سيدي. كان الخوف ظاهرا في صوتها.

_ سيدة نهلة، يجب أن تكوني صريحة أكثر حتى أعرف ما الذي يجب عليّ تصديقه، الأسرار لديها وقت محدد لا بد بعدها أن تظهر، وإلا تسببت في الكثير من المشكلات لأشخاص لا ذنب لهم. أخذت نفسا عميقا، ثم قالت: لقد ذهبت إليه لأخبره بأمر شعرت بأن عليه أن يعرفه، لكنني تراجع عن ذلك في آخر لحظة.

نظر إليها محمود بطريقة ودية ليشجعها على الاستمرار، قالت: لا أعلم، ربما لو أخبرته بما جئت لإخباره به لربما لم يكن لينتحر. قال محمود وهو ينظر إليها: وما هي هذه الحقيقة التي كان من الممكن أن تدفعه إلى تغيير رأيه.

أغمضت عينها مجدداً، وأخذت نفسا آخر، حسمت فيه أمرها.

لم تمض سوى دقائق على مغادرة سامح، حتى فوجئ رجب بالسيارة التي أصبحت مألوفة بالنسبة إليه تقف أمام البوابة، فتح البوابة وهو يبتسم ويرحب ببشاشة، لكن سيارة الدورية التي كانت تسير بالخلف كانت كفيلة بمحو هذه الابتسامة. قال لمحمود ببعض التردد وهو ينظر إلى السيارة التي في الخلف: أهلا يا باشا، سامح بيه غادر قبل دقائق.

قال محمود وهو يبتسم: من قال إننا قادمون لرؤية سامح بيه؟

قال رجب: لم أفهم يا سيدي.

كان انعدام الفهم جليًا على ملامحه.

_ لقد جئنا لأجلك أنت يا رجب.

_ لأجلي أنا؟ اتسعت عيناه بمزيج من الدهشة والخوف.

أوما محمود موافقا، ثم قال: نرغب في زيارة الغرفة التي تنام فيها.

بقي رجب شاردًا، كان بصره ما زال موجهًا إلى سيارة الشرطة التي

بالخلف وإلى الذراع الضخمة والشوارب الكثنة التي كانت تطل عليه

تطل منها. قال: الغرفة التي أنام فيها؟

في اللحظة التالية دخلت السيارة الأولى إلى ساحة الفيلا وبقيت

السيارة المخيفة واقفة عند البوابة.

كانت غرفة الحارس ذات مساحة كبيرة وملحق بها حمام صغير مع

دش، ذات أثاث بسيط وترتيب جيد، كان رجب قد قام بطلائها

بنفسه قبل أن يتزوج، ثم تدبر أمر إحضار خزانة ملابس ذات أربعة أبواب تتوسطها مرآة ذات حجم كبير، أفسح مجالاً في إحدى زوايا الغرفة ليتدبر أمر وضع أريكة مزدوجة قديمة وأمامها منضدة وتلفاز، وفي الطرف الآخر من الغرفة قام بتركيب مغسلة ألومنيوم بحواف من الرخام الأملس وخزانة صغيرة مثبتة على الحائط، ومعظم مساحة الغرفة مكسوة بقطعة من الموكيت بلون أخضر ربيعي. كان كل شيء معداً لاستقبال الزوجة، بقي عليه فقط إحضار سرير مزدوج بدلا من سريره القديم ذي الأطراف التي يعلوها الصدا.

راقب رجب الرجل الذي حضر مع محمود وهو يضع حقيبته على الأرض ويقوم بإخراج بعض المعدات التي لم يسبق له أن رآها من قبل في حياته، لكنه لم يكن يملك الجرأة على طرح المزيد من الأسئلة، حتى ولو كان ضابط المباحث صديقا له. لكن عينيه كانتا تحملان الكثير من الفضول.

_ الشاي يا رجب.

استيقظ رجب من شروده، قال محمود مؤكداً: نحن ضيوفك.

_ آه، بالتأكيد، ثوان يا سيدي. ظلت عيناه تتطلعان بريبة إلى الرجل الذي يقوم بارتداء القفازات.

حلت الحيرة محل الفضول، توجه رجب إلى المساحة المخصصة للمطبخ في الطرف الآخر من الغرفة.

قال محمود بصوت عالٍ: ولا تنسَ أمني الشرطة اللذين يقفان عند البوابة، خاصة الضخم منهما.

_ حاضر يا سيدي.

قال صبحي بصوت هامس وهو يقوم بإطفاء لمبة النيون الوحيدة التي تضيء الغرفة: هل أنت متأكد من سبب وجودنا في هذا المكان؟
 _ لست متأكدًا من أي شيء، مجرد حدس، لكن هذا سيكون أفضل من أن نضطر إلى إحضار جيش من الفنيين لمسح ذرات الحديقة، هل هناك داع لإطفاء النور؟

_ العملية في الظلام ممتعة أكثر.

فوجئ رجب بالعتمة لكنه لم يعلق، استمر في عمله كأن شيئًا لم يكن معتمدًا على النور الذي تمنحه أشعة الشمس للغرفة من النافذة الوحيدة التي تقابله، كانت أشعة الشمس وضوء شعلة الغاز الصغير تمنحانه القدرة على رؤية ما يفعله، لكن الرجلين خلفه غاصا في الظلام.

بدأ صبحي بنثر رذاذ اللومينول ضمن مسار منتظم، بدأ من باب الغرفة مرورًا بالحائط والأرضية.

قال: بداية غير موفقة، يفترض بالأثر أن يبدأ من عند الباب.

استرق رجب النظر وقد عاد إليه الفضول من جديد، لكن كان من الصعب عليه أن يرى ما يحدث على وجه الدقة، كل ما رآه هو ذلك الشخص الذي جاء مع ضابط المباحث وهو يقوم برش مادة تشبه مبيد الحشرات في أرجاء الغرفة، لم يتمكن من إيجاد أي تفسير للأمر، كان صوت الماء وهو يغلي قد وصل إلى مسامع الرجلين.

كان صبحي أول من أظهر حماسة حقيقية دون أن يهتم فيما إذا كان رجب يسمعه هذه المرة: لقد وجدناه.

لم يعد هناك داع للهمس.

نظر محمود باهتمام إلى البقعة الكبيرة في منتصف الحائط والتي بدت بحجم كرة تنس، تحيطها عدد من البقع الصغيرة المتناثرة، وكانت هناك بقع مماثلة أكبر حجمًا على الموكيت بالقرب من الحائط، استرق رجب النظر مجددًا، كل ما تمكن من رؤيته هو بقعة فوسفورية كبيرة على الحائط، كانت ظاهرة بوضوح رغم قلة الإضاءة.

قال صبحي موضحًا: رجلنا لم يتم إخفاء جثته هنا كما كنت تتوقع، الرجل قتل هنا أصلاً.

عاد النور ليضيء الغرفة من جديد، شعر رجب بأن هذا بمثابة إشارة له للحضور، قام بحمل الصينية والاقتراب من الرجلين، كان صبحي يشرح لمحمود نتيجة ما توصل إليه وهو يحرك كلتا يديه بحماسة:

_ كان يقف هنا، يبدو أنه تراجع إلى الخلف عندما شعر بالخطر حتى التصق ظهره بالحائط، تلقى الرصاصة في هذا المكان، وتم سحبه إلى تلك النقطة.

لم يكن ما يراه أو يسمعه يبشر بخير أبدًا، وجد يده ترتعش وهو يقوم بملء الأكواب، انسكب قسم من السائل الساخن على الصينية، سمع صوت صبحي وهو يطلب منه أن يكون حذرًا، لكنه لم يفهم ماهية التحذير بالضبط.

سأل أخيرا وهو يمد يده بالصينية: ما الأمر يا سيدي؟ هل هناك شيء خاطئ؟

كان الاضطراب واضحًا على نبرة صوته، لم يكن في نية محمود القيام بتهدئته، فقد كان يركز في أمور أخرى. قال متسائلاً: هل لديك كماشة هنا؟

_ لدي صندوق عدة، فيه كل شيء تحتاجه، لكن لماذا؟
قال محمود مقاطعًا: أحضري الصندوق كله.

ازدرد رجب لعابه دون أن تكون لديه أدنى فكرة عما يحدث، لكن لم يكن من الصعب عليه أن يدرك أن الأمر سيء جدًّا. وضع الصينية على الأرض، ثم سار باتجاه المطبخ من جديد، وتناول صندوق أدوات حديدي وعاد به ليضعه أمام الرجلين.

انحنى صبحي إلى الأسفل وأخذ ينظر في محتويات الصندوق باهتمام، لقد كان ينظر إلى كنز، لكن عليه انتقاء القطعة المناسبة بعناية. اختار أداتين، ثم سلط جهازه عليهما، في النهاية قام برفع يده إلى الأعلى وهو يحمل كماشة صغيرة ذات قواطع حادة، قال: هذه هي الأداة بالتأكيد، لدي أثر واضح.

قال محمود: جيد، ضعها في حرز.

قال رجب متسائلاً: أثر لماذا يا سيدي، ما الذي يحدث؟

_ أثر للدماء يا رجب، هناك رجل قتل في غرفتك.

_ رجل قتل في غرفتي؟ هل هذا معقول؟

_ اسمع يا رجب، نحن الآن في مسرح جريمة، سوف نخرج جميعًا وسأقوم بإغلاق الباب، لا يمكنك الدخول إلى هنا تحت أي ظرف حتى إشعار آخر، والأهم ألا يعلم أي مخلوق بما حدث هنا أو سيحدث لاحقًا، هل تفهم ما أقول؟

قال رجب بفتح لم يعد يهتم بإخفائه بعد الآن: حاضريا سيدي،
لكن، ما الذي حدث؟ رجل قتل في الغرفة؟ كيف ومتى؟
قال محمود وهو يوجه إليه نظرة ثاقبة: ربما يمكنك مساعدتي في
توضيح هذا الأمر.
ازدرد رجب ريقه مرة أخرى، لقد توقع الأسوأ، اعتقد أن توقعاته
ستتحول إلى واقع.

ساعة، قام بأخذ حمام سريع ثم أسرع إلى غرفة مكتبه دون أن يقابل أيا من ساكني الفيلا، ابنه الصغير نائم، والخادمة على الأرجح تتحدث مع عائلتها عبر السكايب في غرفتها، لم يرَ سوى رجب الذي قام بفتح البوابة ثم أغلقها وبقي جالسًا في الخارج.

جلس سامح في غرفة مكتبه الأثيرة، ارتدى بدلة نوم خميرية من القطن الفاخر فوقها روب دي شامبر من نفس اللون، وجلس خلف طاولة مكتبه وفي يده غليون أهداه إياه حموه المرحوم في أحد أعياد ميلاده، على الرغم من أنه ليس مدخنا، إلا أن الغليون كان يضيء عليه مظهرًا أرستقراطيًا، المظهر الذي شعر الآن بأنه قد أصبح من حقه أن يظهر به.

كانت يده اليسرى منشغلة بقراءة مجموعة من الأوراق والمستندات الخاصة بتصفية الشركة وبيع الممتلكات، وخطابات من جهات عديدة، ودائع وخطابات مديونية وتسويات مالية، قرأها كلها على عجل، وكلما مرت عدة دقائق كان يلوح له خاطر يدفعه إلى الابتسام رغما عنه.

وقع أقدام تسير في الردهة أخرجه من أفكاره مؤقتًا، ليست أقدام سامي بالتاكيد، ولا الصوت المميز للحذاء الخفيف الذي ترتديه الخادمة على الدوام، كان الإيقاع مختلفا بعض الشيء، صاحب هذه الخطوات شخص حذر أو متردد.

لم يشعر سامح بالقلق، لكن شعوره بالغرابة كان طاغيًا، خاصة وأن وقع الخطوات منحه انطباعًا بأن هنالك أكثر من شخص في الردهة. نحى غليونه العتيق جانبًا، ودس السكين الصغير التي يستخدمها لفض الخطابات الورقية في جيب رداؤه، لم يكن سلاحًا صالحًا لدفع هجوم عدو محتمل بما يزيد على قبضة يد قوية ووضعية جسدية قتالية، لكنه كان يمنح دفعًا معنويًا لا بأس به. سار باتجاه باب المكتب وهو بكامل انتباهه، ويده اليمنى تتحسس المقبض المعدني الصغير بدون عنوان، ثم وقف مترقبًا عندما أدرك أن صاحب الخطوات سوف يظهر أمامه في أية لحظة الآن.

جمد في مكانه للحظة، ثم قال وهو يبتسم: آه، هذه أنتِ.

قالت نهلة وقد فاجأها وقوفه بهذه الطريقة المتحفزة للهجوم: أسفة، الباب كان مفتوحًا.

قال سامح وهو يعطيها ظهره ليسير باتجاه طاولة مكتبه: لا مشكلة.

لكنني لم أتوقع حضورك في هذا الوقت المتأخر.

أضاف وهو يقهقه: كان يمكن أن أطلق عليك النار.

_ هذه تبدو عبارة دارجة هذه الأيام.

تجمد سامح في مكانه للحظة، ثم استجمع استدراكه واستدار وهو

يرسم على وجهه أفضل ابتسامة متاحة.

_ حضرة الضابط، أعتذر، لم أنتبه لوجودك.

قال محمود وهو يرد بابتسامة أقل سطوعًا: الذنب على عاتق

شقيقتك، فمهي لم تعلن لك عن حضوري.

نظرت نهلة إليه محرجة ولم تجب، سارت باتجاه أحد المقاعد

وجلست بهدوء وهي تضع حقيبتها على الطاولة أمامها، جلس محمود

على الكرسي المقابل دون انتظار دعوة، ظل سامح يراقبه بعينه إلى أن أصبح فوق المقعد، ثم سار بخطوات متناقلة، وجلس على كرسيه خلف طاولة المكتب، لاحت منه التفاتة باتجاه الغليون، تناوله وقربه من فمه.

_ لقد شرفتنا بحضورك يا حضرة الضابط. كانت عيناه تحملان تساؤلًا أكثر مما كشفت عنه عبارته.

_ ألا تشعر بأن الأمر غريبًا، أعني حضوري في هذه الساعة المتأخرة برفقة السيدة نهلة.

هز سامح كتفيه، كفه الممسكة بالغليون ارتفعت إلى الأعلى قليلا، قال: لم يعد هنالك ما يمكن أن يفاجئني في هذا الزمن.

قال عبارته الأخيرة وهو ينظر إلى نهلة في شيء من الاستنكار بعد أن استشعر وجود مؤامرة ما، ثم أردف بابتسامة: بالإضافة إلى أنني سأعرف السبب بغض النظر عن درجة الفضول والإلحاح التي يمكن أن أبدو عليها.

قال محمود وهو ينظر إلى مجموعة الأوراق التي أمامه: معك حق في هذه، لذلك سندخل في الموضوع مباشرة.

وضع سامح غليونه جانبًا ثم أصبح أكثر تركيزًا.

_ أنت تعلم بالتأكيد أن هيثم قد انتحى صباح اليوم.

قال سامح: لقد أخبرني المحامي للتو، أمر مؤسف وإن كان يستحق ذلك.

قال محمود: بالنظر إلى ما توصلنا إليه، وبعد المحادثة اللطيفة التي أجريناها أنا والسيدة نهلة، فقد توصلنا إلى نظرية مختلفة تمامًا، وقد جننا لنشاركك بها حيث إنك الشخص المعني بالمسألة برمتها.

عقد سامح ساعديه على صدره وهو ينظر إلى نهلة التي أشاحت بوجهها في الاتجاه الآخر وهي تقول بنبرة فيها الكثير من التردد: لقد قمت بزيارة هيثم في السجن.

نظر إليها وقد اعتبرت الدهشة ملامحه، كانت عينا محمود معلقتين عليه، تابعت نهلة كلامها: لقد حدث هذا الأمر البارحة، قبل ساعات من موته.

_ لماذا فعلت ذلك؟

إلا أن الفضول غلبه فقال متابعًا: ما الذي دار بينك وبينه؟ ماذا قلت له؟

ثم تحول الفضول إلى حماس، قال متجاهلا وجود المحقق: يا إلهي، أنت السبب إذًا، أنت من دفعه إلى الانتحار، ما الذي قلته له؟ قالت: سامح، ليس مهمًا ما الذي قلته.

قال مقاطعًا: بل هو مهم، أفترض أن هذا سبب وجودك هنا مع حضرة الضابط، أم أن الأمر محظور التحدث فيه؟ قالها وهو ينظر إلى محمود الذي رفع يديه بحركة استعراضية وهو يقول: الأمر عائد لك كلية.

عاد لينظر إلى شقيقته، قال: تحدثي، ما الذي يجب علي أن أعرفه؟ قالت نهلة وقد بدأ وجهها بالشحوب مبكرًا: لقد أخبرته بأنك حصلت على قرار بالوصاية والتصرف في أملاك سمية، وبأنك تحضّر لتصفية الشركة وبيع جميع ممتلكاتها.

قال سامح باستغراب: هذا الأمر كفيلا بتدميره، لم فعلت ذلك؟ لاحظ محمود أن عينيه كانتا تضحكان، كانت المرة الأولى التي يرى فيها جانبًا حقيقيا من سامح، التزم الصمت وهو ينظر إلى نهلة مشجعًا،

كانت لديهما خطة مرسومة لهذه المحادثة، لذا فقد قالت متابعه:
أخبرته كذلك بأنني أعرف.

_ تعرفين ماذا؟

قالت بثبات: أعرف بما حصل بينه وبين سمية.

بدأ سامح يتململ في مقعده، لكنه لم يتظاهر أو يدعي المفاجأة، فقد
عرف من نبرتها أن لا مكان للتظاهر. قال: ما الذي أخبرته به؟

_ قلت لك، أخبرته بأنني كنت أعرف بأمر تلك الليلة التي سلمت فيها
سمية.

قال سامح دون أن يلتفت إلى محمود: وماذا أخبرته أيضًا؟

قالت بكلمات سريعة: إذا كنت تخشى من أن أكون قد أخبرته بأن
هاني هو ابنه البيولوجي، فلا داعي لتقلق من هذه الناحية، لقد كان
هذا هو السبب الحقيقي لقيامي بزيارته في السجن، لكنني ترددت
وتراجعت عن إخباره في آخر لحظة.

قال: هذا هو الأمر إذًا.

ثم توجه بكلامه إلى محمود: أفترض أنك تعرف عن هذا الأمر.

هز محمود رأسه موافقًا، ألقى سامح نظرة باتجاه النافذة، بدا عليه
أنه منشغل في التفكير، ثم قال كأنه يروي حكاية لا تزال تسبب له
الألم: لقد علمت بالأمر منذ اللحظة الأولى، من الصعب على سمية
أن تخفي شعورها بالذنب، صحيح أنها لم تقم بمصارحتي ولكنها
فكرت في القيام بذلك ألف مرة، في ذلك الوقت كنا قد خضنا شجارًا
كبيرًا بسبب مسألة الإنجاب، كانت سمية تشعر بأن سنوات عمرها
قد مضت في خضم انشغالها بالشركة ومسؤولياتها، ثم ظهر الأمر

أمامها فجأة، لذلك فقد بدأت تلح عليّ كثيرا في الآونة الأخيرة، لكنني لم أستجب لها.

قال محمود معقبا: لأنك كنت مصابا بالعمق وغير قادر على الإنجاب. ابتسم سامح بمرارة وقال: حادثة بسيطة حدثت معي عندما كنت صغيرا، لقد سقطت عن دراجتي من فوق تلة، هل لك أن تتخيل ذلك؟ حادث دراجة لعين قضى على مستقبلي في الإنجاب.

قال محمود: وسمية، لم يكن لديها أي فكرة عن ذلك. قال سامح: لقد أخفيت عنها الأمر، لست فخورا بذلك، لكن هذا ما حدث.

ثم شبك ذراعيه فوق الطاولة وقال: طبعا لك أن تتخيل ما مررت به وقتها، إلا أنني بعد أن فكرت في الأمر من زاوية أخرى، أدركت أن الخطأ يقع على عاتقي في المقام الأول، فأنا أعلم كم رغبت سمية في الحصول على الطفل الذي لم أكن قادرا على أن أمنحها إياه، كما أنها كانت مجرد غلطة لا أكثر، هيثم بقي خارج الإطار تماما، شعوري بالذنب دفعني إلى سلوك الطريق الأكثر صعوبة، سامحتها وتجاوزت الأمر مع الوقت.

ثم نظر إلى نهلة وقال: والآن، لماذا اعتقدت أنه يجب عليك أن تقومي بإخباره بهذا الأمر؟

قالت بتوتر: لا أعلم، لقد شعرت بأن من حقه أن يعرف، لقد شعرت بالذنب.

قال سامح بصوت حاد وهو يفرد ذراعه اليمنى في الهواء: لماذا تشعرين بالذنب على الشخص الذي تأمر على قتل زوجتي وأعز صديقاتك؟ وقتل شخصين إضافيين علاوة على ذلك.

_ هيثم لم يقم بأي من هذه الأشياء.

قال بتهكم: حقا؟ الرجل يجلس على جبل من الأدلة التي تدينه وأنت لا زلتِ تعتقدين أنه بريء.

ثم نظر إلى محمود وهو يقول: هل تصدق هذا الهراء؟
قال محمود: في الحقيقة، أنا أصدقه.

عند هذه اللحظة أدرك سامح أن الأمر أكثر خطورة مما اعتقد. قال محمود متابعًا: هيثم عبارة عن شماعة لا أكثر، شاب أخرج تم إصااق جميع هذه التهم به.

كانت نهلة خائفة ومترددة، لكنها استجمعت شجاعتها ونظرت في وجه سامح، قالت: سامح، لقد عرفت الشرطة كل شيء.

مط سامح شفثيه باستهزاء، وجه نظرة نارية إلى نهلة، لكنه كان يفكر بأن الطريقة الأسلم لتقدير الموقف هي طرح الأسئلة، قال: ما الذي تعتقدون أنكم تعرفونه بالضبط؟

أخذت يده تعبث في السكين الصغيرة الموجودة في جيب رداثه، وظهر عرق نافر في عنقه، لكنه بقي هادئًا.

قال محمود بثقة: صدقني، نحن نعرف كل شيء.

قالت نهلة وقد أصابها موجة غضب مفاجئة: سامح، لقد أخبرتني سمية بكل شيء حصل معها، كانت نادمة، سمية كانت لديها شكوكها حول قدرتك على الإنجاب ولكنها تركت الأمر كله بعد تلك الليلة، تلك الخطيئة التي أرققت سمية لسنوات، الشعور القاسي بذنب الخيانة، الذنب الذي دفعها إلى ترك الشركة والأعمال والسهرات والاجتماعات وإلى العزوف عن الشرب مطلقًا، وإلى حياة شبه منعزلة، والانغماس

في الأعمال الخيرية، والاكتفاء بتربية الصغير الذي أحبته أكثر من أي شيء في العالم.

رد سامح بلامبالاة مفتعلة: أنا لست المذنب هنا، أنا من تعرض للخيانة، كان يجب أن أقتلها معاً ولكني غفرت لهما لأجل الصغير. _ بل أنت مذنب بقدرهما، فقد كنت تعرف كل شيء منذ اللحظة الأولى، كنت تعرف أن سمية كانت محبطة، كنت تعرف بمحاولات هيثم لإغوائها وإرضاء عجرفته، لكنك لم تتدخل على الإطلاق، بل إنك قمت بالتخطيط لما حدث وأفسحت المجال لهما للخطأ.

رمقها سامح بنظرة نارية، ودّ لو يلقي بأقرب التحف الموجودة فوق سطح مكتبه ليشجج بها رأسها، لكنه اكتفى بأن تجاهلها وتوجه بالحديث لمحمود: لماذا أنت هنا يا حضرة الضابط؟ ليس لمناقشة أسرارنا العائلية بالتأكيد.

قال محمود: ليس تمامًا، ببساطة، أنا أتابع دليلاً جديداً، دليل يدينك بكافة الجرائم التي ارتكبت.

قال سامح وهو يضحك: يا إلهي، لقد انطلى عليك كلام المسلسلات، أليس الأمر واضحاً كفاية؟

ثم توقف عن الضحك، وقال بلهجة غاية في الجدية: اسمع، لو كنت أرغب في إيذاء سمية أو ذلك اللعين الذي انتحرفعلت ذلك منذ سنوات، منذ أن علمت بتلك الفعلة الشنيعة، ولم يكن ليلومني أي شخص على ذلك، لكنني تركت الأمر وشأنه وقررت العفو، لذا كما يمكنك أن ترى، أنا لا أملك أي دافع لإيذاء زوجتي في الوقت الحالي. عادت نهلة للتصدي للإجابة مرة أخرى: لقد كنت تخشى من قيام سمية بتركك.

لا تكوني على هذا القدر من السخافة.

لم تلتفت إلى لهجته الساخرة وقالت متابعة: الحالة النفسية لسمية أخذت تسوء شيئاً فشيئاً، أصبحت أكثر انعزالا، وأكثر خوفاً على هاني، ثم أصبحت أكثر شغاً، حتى أنها بدأت تشك في أنك تقوم بخيانتها مع نادين، وإليك الحقيقة، لقد كانت بحاجة إلى معرفة ذلك، لأن قيامك بخيانتها سوف يخفف من حدة الذنب الذي كانت تشعر به، لكنك كنت ماهراً جداً في إخفاء ذلك، ثم حدث الخلاف ما بين سمية ونادين، ولكن نادين كانت ذكية جداً، فبالإضافة إلى علاقتها السرية معك، قامت بتوطيد علاقتها مع هيثم بسرعة، وهكذا فقد قامت بتأمين موقعها في الشركة لأن كليكما بإمكانه إبعاد سمية عنها، لكن سمية لم تتمكن من الاحتمال أكثر، لذلك قامت بمصارحتك بكل شيء في لحظة يائسة، ثم طلبت الطلاق. حدجها سامح بنظرة غامضة، اشتدت يده على مقبض السكين الصغيرة التي في جيبه.

قالت متابعة: هذا صحيح، لقد طلبت سمية منك الطلاق، هذا كان كفيلاً بأن يجعلك تخسر كل شيء، خاصة وأن هاني ليس ابنك البيولوجي.

كان جسد نهلة يرتعش من فرط الانفعال، لم تعد إلى وعيها إلا عندما سمعت صوت محمود يطلب منها مغادرة المكان، أخذت نفساً عميقاً ثم قامت من مكانها ونظرت إلى سامح وهي تقول بصوت ضعيف: أنا آسفة، آسفة حقاً.

رسم على وجهه ابتسامة ساخرة، وقال بلهجة غامضة: سوف نتعامل مع هذا الأمر لاحقاً.

لم تجد نهلة ما تقوله، تابعت طريقها إلى الخارج وتهالكت على أقرب مقعد في الصلاة، ووضعت وجهها بين كفيها ودخلت في نوبة بكاء صامتة.

_ كما قلت لك، أنا أملك دليلاً ضدك. دليل كفيلاً بإدانتك في كل هذه الجرائم.

_ أنت لا تملك أي شيء يا حضرة الضابط، لو كنت تملك نصف دليل لكانت الأصفاة تزين يديّ الآن، لكن أن تقوم بزيارات تبدو ودية في ظاهرها وتستخدم شقيقتي الساذجة كوسيلة لتبرر دخولك إلى المنزل بشكل قانوني بدلاً من الحضور بمذكرة اعتقال وجيش من رجال الأمن، هذا يعني أنك لا تملك أي شيء على الإطلاق.

ثم تذكر غليونه الموضوع بجانبه، تناوله وأخذ منه نفساً في استمتاع ظاهري، ثم قال متابعاً وهو ينفث الدخان بعيداً: ما قالتة لكم نهلة لا يمت إلى الجرائم بأي صلة، مجرد تكهنات عما تظن حقيقة أنها تعرفه، كما أن هذه تدعى أقوالاً أخذت تحت الضغط، سيكون المحامي سعيداً بتفتيتها إلى رماد أمام المحكمة.

قال محمود: ربما إذا نظرت إلى الأمر من هذه الزاوية، كما تعلم، كل شخص ينظر إلى الأمور نفسها من الزاوية التي تناسب أغراضه. أليس كذلك؟

قال سامح: الآن سوف أسألك بلطف أن تغادر منزلي، فالوقت متأخر وأنا بحاجة إلى النوم.

_ ألا ترغب حتى بمعرفة الدليل الذي أملكه ضدك.

نظر إليه سامح لفترة من الوقت دون أن يتكلم، ثم قال وهو يستريح على كرسيه: أنت لا تملك شيئا، لأنني لم أفعل أي شيء.
قال محمود: يمكننا أن نتابع اللعب طوال الليل، أعني لعبة أملك دليلاً ولا أملك دليلاً، أو يمكننا أن نختصر الأمر في عشر دقائق، أقوم فيها بإخبارك بما أعرفه، وبعدها سنرى.

نظر سامح إلى محمود مطولاً في محاولة لسبر أغواره، ثم ألقى نظرة آلية إلى ساعة يده قبل أن يقول: حسنا، يمكنني أن أسهر لعشر دقائق إضافية، ولو تمكنت من الإسراع أكثر سيكون أفضل.

تجاهل محمود ملاحظته الأخيرة ودخل في الموضوع مباشرة: سأخبرك بالنظرية التي توصلت إليها، ثم سأترك لك الأمر لتحكم عليه بنفسك. ثم استراح في مقعده مجارياً سامح، وقال متابعاً: كل ما كان ينقصني هو الدافع الذي جعلك تقوم بكل هذه الجرائم من الأساس، وقد تكرمت شقيقتك بتقديمه لنا، لقد كانت سمية في طريقها إلى الطلاق منك، الأمر الذي سيكلفك الكثير، زوجتك وأموالك ومنصبك وحتى ابنك. وتعود مهندساً عادياً في شركة صغيرة براتب لا يكفي ملء خزان سيارتك ذات الدفع الرباعي، أو تعود إلى أمريكا لتبدأ من الصفر، والأسوأ هو أن الطريق ستكون معبدة أمام خصمك اللدود، وهكذا بدأت تنسج خيوط خطتك للتخلص من سمية وهيثم معاً.

لم يكن من الصعب عليك إقناع نادين لتشارك معك في خطتك، الفتاة كانت واقعة في حبك، وبنفس الوقت كانت تكره سمية، لذلك فقد وعدتها بالزواج بعد التخلص من سمية وهيثم، وكل ما عليها فعله هو تغطية أثارك. بعد أن ألحت عليك سمية كثيراً وافقت واشترطت عليها أن تقوم بإعطائك صندوق المجوهرات الذي تحتفظ

به في البنك كئمن لمنحها الطلاق، قامت المسكينة بإحضاره بالفعل ووضعتة في غرفة النوم إلى حين قيامك بما وعدتها به، لكنك كنت تخطط لأمر مختلف، قمت بالاتفاق مع رمضان تينة، اللص المعروف بسرقة البيوت والذي سجن لسنوات بتهمة محاولة خنق ربة منزل، ليقوم بسرقة الفيلا، وضربت معه الموعد المناسب لذلك، لكن حتى اللص التعيس الحظ لم يكن يعلم شيئاً عما كان ينتظره، لم يتسن له دخول الفيلا حتى، فقد قمت بقتله قبل ذلك في غرفة الحارس حيث كان يفترض به أن يختبئ إلى حين خروجك إلى الحفل ليقوم بالتسلل والسرقة، ثم غادرت إلى الحفل كأً شيئاً لم يكن، وعندما حان الوقت، عدت إلى الفيلا وقمت بأخذ صندوق المجوهرات من خزانة سمية، ثم قمت بمغافلتها عندما كانت تخرج من المطبخ وضربتها على رأسها، وقمت بخنقها.

كان سامح يدور ما بين الغضب والاستغراب، قال: ما الذي يدفعك إلى الاعتقاد بأن كل هذا قد حدث؟ لقد كنت في الحفل طوال الوقت، بالإضافة إلى الآثار التي عثرت عليها.

قال: الآثار التي تركها رمضان كلها مفتعلة، لقد قمت بوضعها بنفسك حتى تتمكن الشرطة من إيجادها، اللص الذي قمت بقتله قبل ساعات وقمت بإخفائه في غرفة الحارس، ثم قمت بقطع إبهامه واستخدمته في نشر آثار وهمية بشكل يمكننا من إيجادها بقليل من الجهد.

أما بالنسبة إلى مسألة مغادرتك الحفل فأمرها سهل، كنت تعلم بأن الكاميرات لن تكون كافية لإظهار وجوه الأشخاص الذين يدخلون إلى الفيلا ومن السهل التمويه عليها، لكن تبقى مسألة السيارة التي

ستتحرك فيها، لهذا قامت نادين باستئجار سيارة الميتسوبيشي وحضرت بها إلى الحفل، ثم قمت بأخذ مفاتيح السيارة وقمت بقيادتها إلى الفيلا، قتلت سمية وأخذت الصندوق، ثم وضعت جثة اللص في صندوق السيارة مع بقية الأشياء، ثم ذهبت إلى الفيلا الجديدة التي اشتراها هيثم، كنت تعرف أن هيثم لن يكون هناك وأن الفيلا لا زالت قيد الإنشاء وبلا حراسة، كما أنها تبعد مسافة شارعين فقط عن قصر أبي ربيع حيث كان الحفل، قمت بدفن الأشياء بسرعة في الحديقة، ليس لمسافة بعيدة بالطبع لأنك تهدف إلى أن يتم العثور على الجثة في نهاية المطاف، وعدت إلى الحفل وكأنك لم تغادره أصلا، أعدت مفاتيح السيارة لنادين وانتظرت حتى انتهى الحفل ثم غادرت بسيارتك عائداً إلى الفيلا. وهكذا لدينا حمض نووي للص مجهول بالقرب من زوجتك، ولدينا الجثة والمجوهرات في حديقة هيثم، وأنت بعيد عن الشبهات. لكنك ارتكبت خطأين، الأول هو أن هاني قد رآك وأنت تقوم بخنق والدته. قال سامح: طفل صغير يمكن لخياله أن يرسم له أي شيء. _ باستثناء أنه قد رآك حقا، لكن يحسب لك أنك تصرفت بهدوء وبشكل ملفت.

قال سامح وهو لا زال يمتط شفثيه في سخرية: والخطأ الثاني؟ قال محمود: بصراحة لن أخفي عليك، لقد كنا قد أهملنا موضوع التسجيلات تماما بعد أن وصلنا إلى رمضان، وقد تنبهنا إلى الأمر بمحض الصدفة.

انتظر قليلا ليقيس أثر كلامه على ملامح سامح، ثم أضاف: القبة التي استخدمتها لإخفاء ما يمكن أن يظهر من ملامحك عن عدسة

الكاميرا حينما تغادر بالسيارة المستأجرة لترتكب الجريمة، قبعة فريق نيو أورليانز الذي كنت تشجعه عندما كنت تدرس في لوزيانا، اللون الكحلي المميز ورأس البجعة، لقد أحضرت قبعة مثلها للصغير في آخر زيارة لكما إلى هناك.

بدا الارتباك جلياً على وجه سامح للمرة الأولى، قال: هذا لا يعني أي شيء، أي شخص يمكن أن تكون لديه قبعة مماثلة.

تجاهل محمود عبارته الأخيرة وقال متابعاً: ثم يأتي دور نادين، في البداية قامت نادين بالتغطية على وجودك في الحفل، والآن يأتي دورها في توريط هيثم، حيث قامت باستغلال غرور المسكين الذي كان يدعوها إلى مكتبه وقامت باستخدام كمبيوتره الشخصي حيث بريده الإلكتروني المفتوح وأرسلت منه رسالة إلى نفسها، الرسالة ذاتها التي وجدناها في البريد الوارد لديها، ثم قامت بمحو الرسالة من خانة المرسل لديه، وبهذا يكون دروها قد انتهى في هذه الحكاية، لكنها تظل الشخص الوحيد الذي يعرف حقيقة ما حدث، لماذا تبقى على قيد الحياة إذاً؟ لماذا تغامر في حين أنه يمكنك اقتلاع المشكلة من جذورها، خاصة وأن الشرطة قد بدأت تنظر في أمرها بجدية. لكن هذه المرة كان الأمر أقل تعقيداً بكثير، قمت بالتواعد معها في أحد الأماكن التي كنتما تترددان عليها والتي تعرف كل مداخلة ومخارجه، وتعرف الأوقات المناسبة للتسلل إلى المكان دون أن يلاحظك أحد، دسست لها المخدر في الشراب، ووضعتها داخل حوض الاستحمام، وتركت لنا رسالة انتحار تدينك فيها بشكل صريح، لكنك في المقابل تركت لنا ما يدل على أن الانتحار مفتعل وأن هناك مجرمًا، وحيث إننا سنكون متأكدين من أنك لست الفاعل لأنك لن

تقوم بذكر نفسك في الرسالة، فإننا سنتجه إلى أن هنالك شخصاً ما يحاول أن يورطك، وهكذا فإن دليل إدانتك تحول إلى دليل لصالحك.

ثم قال دون أن يخفي إعجابه: يالها من ضربة ذكية يا رجل، لقد أخرجت نفسك ووجهت الشكوك نحو هيثم تماماً، لكنك لم تكن حريصاً جداً هذه المرة أيضاً وخلفت وراءك شهوداً.

قال سامح: عن أي شهود تتحدث؟

قال محمود وهو يبتسم بخبث: سوف تعرف حينما ننتهي، ألم أخبرك منذ البداية بأنني أملك الدليل الذي يدينك.

كان كاذباً في عبارته الأخيرة، لكن النظرة التي ارتسمت على عيني سامح جعلته راضياً عن كذبه.

شعرت نهلة بيد تلمس معصمها، رفعت رأسها بسرعة، ثم قالت: يا إلهي، لقد أفزعني يا عزيزي.

ثم أخذت الصغير بين أحضانها وعادت لتبكي من جديد، ظل يسألها عن سبب بكائها لكنها بقيت تحتضنه دون أن تجيب، سألها عن والده لكنها لم تجب، شعر بالسأم أخيراً وأخذ ينظر إلى باب غرفة المكتب المفتوح وهو يحاول أن يتفلسف من بين أحضانه عمته.

قال محمود: وهكذا أصبح كل شيء معداً، لكن ظهور جثة رمضان قد تأخر لبعض الوقت، لذا فقد قمت باستخدام خطتك البديلة، بعد أن تأكدت من أن هيثم أصبح تحت المجهر قمت بمنحي حافزا

آخر، تهمة باختلاس أموال الشركة من الممكن أن تؤدي إلى تسريع وتيرة الأحداث أكثر، وهو ما حدث فعلاً.

_ كلام جميل يا حضرة الضابط، حظاً موفقاً في إثبات ذلك في المحكمة.

لم يكن سامح بنفس الثقة التي كان بها عندما بدأ محمود يتحدث، كانت يده اليسرى ترتعش من شدة الانفعال الذي كان يحاول جاهداً أن يخفيه، إلا أن المعاناة بدت واضحة على وجهه، كان مقبض السكين الصغيرة قد ترك آثاره على جلد يده اليمنى.

كانت تلك اللحظة الحاسمة بالنسبة إلى محمود، لذا فقد كان يجب عليه أن يبدو مقنعاً وواثقاً، حتى وإن كان بعض مما سيقوله يفتقر إلى الدقة. قال: إذًا، كما وعدتك سوف أكشف الأدلة التي نملكها ضدك، لدينا أولاً شهادة شقيقتك حول العلاقة المتكبرية التي كانت بينك وبين زوجتك في أيامها الأخيرة، لدينا شهادة ابنك الصغير التي رمينا بها عرض الحائط بقصور نظر، لدينا صورتك وأنت تعود بسيارة مستأجرة من قبل نادين إلى الحفل بعد ساعة من مقتل زوجتك، لدينا ما يثبت أن رمضان تينة قد قتل في غرفة الحارس، لن أنسى الأدلة الشرعية أيضاً، لدينا الكماشة التي استخدمتها في قطع إصبعه لتستخدمه أثناء قيامك بقتل سمية، اثنان من العاملين في الفندق تمكننا من التعرف على صورتك وقد استعدنا لتقديم الشهادة بوجودك في الفندق في الوقت الذي قتلت فيه نادين، وللمفارقة فقد كان التعرف عليك أسهل عندما وصفت لهم القبعة، كما تمكننا من الوصول إلى السيارة التي استأجرتها نادين وقمت باستخدامها، ولن يكون من الصعب على المختبر الجنائي إيجاد آثار الدماء والحمض

النووي لرمضان في الصندوق الخلفي للسيارة، كما أن العمل جار على تتبع مساراتهاتفك الجوال لمعرفة الأماكن التي كنت متواجداً بها وقت مقتل نادين، أرجو ألا أكون قد غفلت عن شيء.

توقف محمود عن الكلام فجأة، ثم تظاهر بأنه ينظر إلى ساعته قبل أن يقول: عشر دقائق، تمامًا كما وعدتك، هناك المزيد بالطبع، لكنني أفضل أن تعرف لاحقًا أمام النيابة.

نظر سامح إلى النافذة المفتوحة مرة أخرى، بكثير من التوجس هذه المرة، ثم قال: هل جماعتك هنا؟

قال محمود مؤكدًا: منذ وقت مبكر، لقد قاموا بتفتيش الحديقة وغرفة الحارس، وعثروا على الكثير مما يمكننا استخدامه، لكنهم كانوا ناجحين في الاختباء حينما اقترب موعد وصولك، إنهم ماهرون إلى الدرجة التي لم تلاحظ فيها أي شيء، كما أن هناك مذكرة بالقبض عليك، لكنني طلبت منهم الانتظار قليلا حتى نتمكن من التحدث بحرية، في الحقيقة كنت أمل أن أعرف منك المزيد، جزء صغير مني شعر بالتعاطف معك، لكنني بمجرد أن نظرت إليك من دون أقنعتك عرفت أنك الشخص المقصود، وهذه المرة من دون أية شكوك.

أخذ سامح ينقر بيده اليسرى على طاولة المكتب بعصبية، ثم قال: لن تتمكن من إثبات أي شيء، سوف يقوم المحامون بنسف كل هذا الأدلة.

قال محمود بنفس اللهجة الواثقة التي قلبت كيان سامح: يجب علينا أن ننتظرونرى إذا.

مضت فترة أخرى من الصمت، بقيت نظرات محمود ثابتة وراسخة. لكن سامح كان يقلب أمرا ما في عقله، لكنه لم يكن يصل إلى أي

نتيجة. قال محمود أخيراً قاطعاً الصمت: هل كان الأمر يستحق أن تزهق أرواح ثلاثة أشخاص؟

العبارة الأخيرة كانت كفيلاً بقطع حبل أفكار سامح المتشابكة، قال: ما الذي يعرفه شرطي مثلك عما يفكر به رجال من أمثالنا. قال محمود بطريقة مستفزة: هل تظن نفسك حقاً من صفوة المجتمع؟ أنت بدون أموال زوجتك لا تساوي أي شيء.

ثم ابتسم محمود بطريقة ساخرة وقد لاحت الحقيقة أمامه الآن واضحة مثل الشمس: يا إلهي، لقد أخطأت التقدير طوال الوقت، ظننت أن هيثم شخص مصاب بجنون العظمة، لكن تبين أنه مجرد شخص مغرور لا أكثر، وأن المريض الحقيقي هو أنت، أنت إنسان خال من المشاعر.

نظر سامح إلى محمود في دهشة وقد اتسعت عيناه، ثم انفجر فجأة في الضحك، مضت فترة من الوقت وهو مستمر في القهقهة إلى أن هدأ أخيراً وهو يقول: هيثم؟ هيثم هذا ليس سوى حشرة صغيرة، إنسان مغرور ليست لديه أية فكرة عن الكيفية التي يسير فيها العالم، حيوان يعيش لمذاته فقط.

كانت ردة فعله مفاجئة بالنسبة إلى محمود، ظل ينظر إلى سامح دون أن يتكلم، قال الأخير متابعاً: وهل تظن أن شخصاً مريضاً مثلي كما تزعم يمتلك كل هذا القدر من العبقرية بحيث يتمكن من خداع الجميع وإظهار عكس ما يبطن في داخله؟

_ أنت فقط تتوهم أن بإمكانك خداع الجميع لكنك لم تخدع سوى نفسك.

قال سامح وهو يلوح بيده وقد تذكر أمرا مهماً: يكفي حديثاً عني وعن الغبي الذي قطع شرايينه، لم لا نتحدث عنك قليلاً؟ قل لي، كيف شعرت عندما قمت بقتل فتاة بريئة؟

تمكن محمود من أن يحافظ على مظهره الثابت، لكن رفة جفن صغيرة منحت سامح الشعور بالانتصار. قال متابعاً: لن تتخيل مدى السهولة التي يمكن بها أن تعرف أي شيء عن أي شخص في هذه البلاد. كل ما عليك هو أن تقوم ببحبة يدك قليلاً، وسينهال عليك المتطوعون لكشف الأسرار من كل مكان.

لم يجب محمود، قال سامح متابعاً: سمعت أنه قتل خطأ، لكن أنتم رجال الشرطة بإمكانكم تفتيح وتحوير أي حكاية، كيف يمكن أن يخطئ شخص ما بين رجل ناضج وبين فتاة صغيرة ورقيقة.

تمكنت أولى طلائع الغضب من أن تطفو إلى السطح على هيئة نظرات نارية موجهة وجسد يشتعل، قال محمود بصوت فيه الكثير من التهديد: لا تجرؤ على أن تصفني بالقاتل مرة أخرى وإلا...

قال سامح: وإلا ماذا؟ ستقتلني أنا أيضاً؟ يا إلهي، هل هذا هو الأمر إذًا؟

ثم اقترب برأسه أكثر فوق الطاولة وقال بصوت هامس: قل لي الحقيقة، هل أعجبك الأمر؟

مرة أخرى لم يجب محمود، عاد سامح ليقول: ألا ترغب في تكرار الأمر مرة أخرى؟ أنت ضابط شرطة، يمكنك النجاة بفعلتك مثلما نجوت في المرة الأولى، أطلق علي النار، افعلها الآن، يمكنك أن تدعي بأنني قاومت الاعتقال.

أدرك محمود أبعاد الشرك الذي يحاول سامح أن ينسج خيوطه، اكتفى بعدم الرد وطرد البقية الباقية من الغضب في جوفه. قال سامح بلهجة مستحثة: يا رجل، افعلها، أخرج سلاحك الذي تخفيه تحت ملابسك، لا تخيب ظني بك.

بقي محمود على ثباته، أخرج مسدسه واللاسلكي وهو يقول: سيد سامح، أنت مقبوض عليك بتهمة ارتكاب ثلاث جرائم قتل.

ثم أخرج جهاز اللاسلكي من جيبه ليعطي الأوامر لرجال الشرطة الذين ينتظرون خارج الأسوار بالدخول.

حدث الأمر بسرعة كبيرة، الصرخة التي أطلقتها نهلة دفعت محمود إلى القيام برد فعل تلقائي وتصويب المسدس باتجاه باب الغرفة، ردة فعله لم تكن مناسبة، شعر بالارتباك عندما رأى هاني يدخل إلى الغرفة راکضًا، اضطر إلى إخفاء المسدس تحت كفه، ثم ظهرت نهلة وهي تدخل من الباب وتجري خلفه، هذه المرة كانت استجابة محمود لهذا التطور في الأحداث أكثر بطئًا، عندما تنبه إلى ما يحدث، كان الصغير قد أصبح بين أحضان سامح الذي رحب به بابتسامة، ثم أجلسه على حجره، قبل أن ينظر إلى محمود ونهلة اللذين كانا واقفين كالصخر وهو يقول: حسنا، ما الذي كنا نتحدث عنه إذًا؟

قال محمود بصوت جاد وهو يقبض على مسدسه من تحت إبطه: ألا يفترض بالصغير أن يكون نائمًا الآن؟

قال سامح وهو ينظر إليه بخبث: لماذا؟ لندعه يسهر قليلا.

ثم رفع يده اليمنى كاشفًا عن نصل السكين الصغير التي كانت في جيبه، وقرنها من عنق الصغير، أطلقت نهلة شهقة فزع.

_ سامح، لا تفعل، أرجوك.

قال سامح وهو يحتفظ بهدونه حتى لا يثير حفيظة الصغير الذي لم يكن ينتبه لما يحدث حوله: لماذا؟ الفتى ليس ابني حتى.

قال محمود الذي كان لا زال ثابتاً في مكانه: سامح، دع الفتى يذهب. سار سامح خطوة إلى الأمام وكفه اليسرى تقبض على كتف الصغير، ويده اليمنى تمسك السكين بثبات، ثم قال: سوف أمتحكم عرضاً لم يسبق لكم رؤيته على الهواء مباشرة.

النظرة التي على وجه سامح لم تترك لمحمود أي مجال ليفكر في خياراته الأخرى، أصبح المسدس في يده ظاهراً للعيان، أطلقت نهلة شهقة فزع أخرى، انتقل الرعب الذي تشعر به فيها إلى الصغير الذي بدأ يشعر بوجود خطر محقق، وانفلتت عن سامح ضحكة شيطانية، لكن فوهة المسدس بقيت موجهة إلى هدفها بثبات.

_ لن تفعلها.

_ هل ستراهن على ذلك؟

بحركة سريعة، قام سامح بحمل الصغير الذي بدأ في البكاء دون أن تكون لديه أي فكرة عما يحصل بالضبط، أحاطت يده اليسرى بوسط الصغير بإحكام، والسكين في يده اليمنى على بعد شعرة من عنقه.

قال سامح: هل لازلت تملك القدرة على الرهان؟ حسناً، قل لي إذاً. ثم أخذ يميل بجسد الصغير يمناً ويسرة وهو يقول: هل يمكنك أن تصوب علي وتقتلني قبل أن أقوم بحركتي؟ أم أنك ستتأخر؟ وسيكون عليك التعامل مع جثتين لا جثة واحدة. قالت نهلة برجاء: سامح، أرجوك، اترك الصغير.

لم يلتفت لها، قال متابعاً: أم أنك ستحقق ما أمله وتخطئ التصويب وتقوم بقتل الفتى وحده.

اشتدت يد محمود القابضة على المسدس، وقرب سبابته من الزناد أكثر، قال سامح: أم أنك ستقوم بالتصويب على الصغير وقتله متعمداً، كما قتلت الفتاة من قبل؟ هل تذكر ذلك الشعور؟ ها؟ أراهن بأنك أحببت الأمر في المرة الأولى، هذه هي فرصتك الآن لتكراره. قال محمود: أفضل الخيار الأول.

قال سامح باستهزاء: تقتلني قبل أن أقوم بحركتي، حقا، حظاً موفقا في ذلك.

قرب نصل السكين بحيث التصقت بعنق الصبي.

قال محمود: ربما تكون أذكي المجرمين الذين رأيتم في حياتي، لكنك لست ذكياً لدرجة تجعلك تظن أنني سأتردد في أن أطلق النار عليك. _ تبدو متأكداً من كلامك، لكنني متأكد أيضاً، أعلم لماذا أنا متأكد؟ لأن هناك شريانا في الرقبة، هنا تماماً حيث النصل الحاد، إذا قمت بقطع هذا الشريان فستنفجر منه نافورة من الدماء لا سبيل إلى إيقافها، لن تأتي النجدة في الوقت المناسب، وستكون هذه روح أخرى على عاتقك.

ابتسم محمود، ثم قال: أنت مخطئ في هذا.

قال سامح: مخطئ في ماذا؟

ابتعد النصل عن رقبة الطفل بوصة واحدة، لكنها كانت كافية.

قال محمود: لا توجد أية أرواح على عاتقي.

الرصاصة الأولى أصابت العضد الأيسر واستقرت في العظم، الألم ضرب فجأة مثل صاعقة، اختل توازن الدماغ وأصبح الألم طاغيا

على أية أوامر أخرى، انطلقت صرخة حادة وارتخت اليد التي تطوق الصغير فانزلق إلى الأسفل، الرصاصة الثانية أصابت الكتف اليمنى في منطقة الترقوة، انطلقت ومضة ألم أخرى شلت على أثرها حركة اليد بالكامل، وسقطت السكين على الأرض. الرصاصة الثالثة اخترقت عظام الركبة اليسرى، أصبح الألم وحشا لا شيء يقف في طريقه، لم يملك سامح سوى الصراخ وهو يتلوى على الأرض. ثلاث رصاصات عرفت طريقها إلى العظم.

أصبح الصغير بين أحضان عمته، اقترب محمود عدة خطوات إلى أن أصبح يقف فوق سامح تمامًا، نظر إليه الأخير وحاول أن يضحك، لكن الألم كان طاغيًا، فخرجت ضحكته عبارة عن أنات متقطعة. قال محمود وهو يبتسم: يبدو أنك لم تقم بإجراء أبحاثك جيدًا وإلا لكنت عرفت أنني كنت الأمهر في التصويب في كلية الشرطة، ربما كان عليك أن تبجح يدك أكثر.

انتظر سماع الرد الذي سيخرج من سامح، لكن الأخير لم يقوَ على الكلام، فقد شغل الألم الآني تفكيره كلية.

كان يجلس على المقعد الخاص بالشهود، بالقرب من المنصة الرئيسية التي يجلس خلفها ثلاثة قضاة.

أكثر من نصف ساعة مضت وهو يقوم بشرح تفاصيل الجريمة التي حصلت، الوضعية التي كانت عليها الجثة، الحالة التي كانت عليها المتهمه والأقوال الأولى التي تفوهت بها. قبل أن يكتفي ممثل النيابة بهذا القدر من الأسئلة.

جاء دور الدفاع، تقدمت الأستاذة ميادة لتقف مقابل المنصة، تنحنحت مرتين كما لو كانت تجرب صوتها، ثم نظرت إلى عيني محمود مباشرة، وبدأت بتوجيه الأسئلة.

سألته عن الحالة النفسية التي كانت عليها المتهمه حينما وصل إليها، فكر ممثل النيابة في مدى سخافة السؤال وعدم إنتاجيته، لكن إجابة الشاهد كانت دقيقة جدًا، المتهمه كانت تحت تأثير صدمة عصبية شديدة أثرت على مكانن وعيها وإدراكها الحسي، عندها شعر ممثل النيابة بخطورة الموقف، فالتهمة الموجهة هي القتل العمد، وهذا الأمر يستوجب إدراكا كاملا وقصدا جرميًا، حاول الاعتراض، لكن سبق السيف العذل.

ثم تركزت أسئلة المحامية حول المطواة التي ارتكبت بها الجريمة، أخبرها الشاهد بأن المطواة عائدة في الأصل إلى أحد المدمنين الذين تم إلقاء القبض عليهم مؤخرًا من المجني عليه بنفسه، ولكنه احتفظ بالمطواة بجيبه ولم يتم بتسجيلها في قسم الأدلة،

نقطة أخرى كانت في صالح المتهمة وأبعدتها خطوات عن القتل العمد. لكن ممثل النيابة استعاد شعوره بالتراخي، فالواقعة ثابتة على المتهمة حتى وإن راعت المحكمة الظروف التقديرية وخففت من الوصف الجرمي.

ثم انتقلت المحامية بأسئلتها حول الحالة الذهنية للمجني عليه وقت وقوع الجريمة، وعن الفحص الذي أجري له والذي ثبت فيه وجود نسبة عالية جداً من الكحول في دمه، والمشادة الكلامية التي حدثت بينه وبين المتهمة قبل وقوع الجريمة والتي اتهمها فيها بالخيانة تحت تأثير المسكرات التي أعمت بصيرته وأضعفت حكمه، ثم انتقل الحديث بسلسلة عن الحالة الجسدية التي كانت عليها المتهمة، الإصابات والجروح التي كانت ظاهرة على المتهمة، الجروح التي أحدثها المجني عليه بالمطواة ذاتها التي استخدمتها المتهمة في إتمام جريمتها، وطبيعة هذه الجروح ومدى إمكانية أن يكون إحداثها قد كان بنية القتل،

قامت المحامية بالربط بين النقطتين وإدارتهما باتجاه واحد، أدرك ممثل النيابة عندها ما يرمي إليه الدفاع، لقد كانت غاية ظن أنها بعيدة المدى، لكن الدفاع اقترب جداً من توضيح ما يسعى إليه، فقد سبق أن قدم الدفاع تقاريره الطبية الداعمة لدفاعه

وشاهد النيابة الرئيسي بدا مستجيباً جداً كأنه يؤدي عمل شاهد دفاع، كأن حقيقة أن المجني عليه ضابط زميل لم تكن تعني له الشيء الكثير،

في كل استجاباته وانفعالاته كان هادئاً ورابط الجأش ومنسجماً مع محامية الدفاع التي لم تجد نفسها مضطرة إلى استفزازه لتفكيك أقواله ومزاعمه، إنما سعت إلى تدعيمها وتقويتها.

ثم تجلت مخاوف ممثل النيابة جلية، عندما ختمت محامية الدفاع أسئلتها بسؤال صريح ولا يحتمل التأويل.

_ هل تعتقد أن المتهمه كانت في حالة دفاع شرعي عن النفس؟

في الأحوال العادية لم يكن وكيل النيابة ليلقي بالمثل هذا السؤال، لكن الوتيرة التي سار عليها استجواب الشاهد من قبل الدفاع، واستجاباته المحايدة جداً، دقت ناقوس الخطر، وقف ممثل النيابة معترضاً على السؤال بقوة وهو يلهج، إلا أن رئيس الهيئة الذي بدا أن ما حدث قد أثار اهتمامه وفتح أبواباً أخرى لقناعاته، قام برد الاعتراض وإجازة السؤال.

نظر محمود إلى الهيئة، ثم لاحت منه التفاتة باتجاه قفص الاتهام حيث كانت المتهمه تنظر إليه في رجاء خالص، ثم نظر إلى منال التي كانت تجلس في الصف الثاني من القاعة، ردت عليه زوجته بنظرة مشجعة.

أجاب: نعم.

حالة الدهول العام وصل صدها إلى هيئة المحكمة نفسها، في حين تابع محمود مؤكداً: أعتقد أن المتهمه كانت في حالة دفاع شرعي عن النفس.

هزت الأستاذة ميادة رأسها في ثقة قبل أن تقول: لا مزيد من الأسئلة.

ابتسمت منال وهي تحتضن ذارعه بذراعها وهما يسيران نحو بوابة الخروج من المحكمة، قالت: مع شهادة الشهود والتقارير الطبية، وشهادة الطبيب النفسي، حسنا، لا أريد أن أبدو متفائلة كثيرا، لكنني أصبحت متأكدة من أن المحكمة ستقرر أن الجريمة كانت دفاعاً عن النفس.

والحكم بإذن الله سيكون البراءة.

تمت بحمد الله

للتواصل مع الكاتب

هاتف/واتس اب: ٠٠٩٦٢_٧٨٩٦٦٦٥٠٢

إيميل: nizar.ghannam@yahoo.com

Skype:nizar.ghannam



الإسكندرية ج . م . ع

(+٢) ٠١٠١٨٨٣١٣٦١

(+٢) ٠٣/ ٥٧٦٥٧٧٧

حسنة للنشر والتوزيع

